

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثاني

سورة البقرة

من الآية رقم ١٤٤ / ٢٥٢

تحويل القبلة

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

المراد بالسفهاء ها هنا مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون : والسفه : خفة في العقل وطيش في
الأحلام . وقد روى البخارى رضى الله عنه في سبب نزول هذه الآية : عن البراء رضى الله عنه أن رسول
الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ؛
وأن أول صلاة صلاها هي العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم
راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان من قد
مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليضيع
إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ . وروى الإمام مسلم بسنده عن الإمام البراء بن عازب قال : كان
رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب
وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، فقال رجال من المسلمين :
وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله :
﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ . وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التي
كانوا عليها فأنزل الله ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ إلى آخر الآية . وحاصل الأمر أنه قد كان رسول
الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو
مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

ولقد جاء الأمر بتحويل القبلة نحو المسجد الحرام والرسول ﷺ قد صلى ركعتين من فريضة الظهر في
مسجد بنى سلمة ، ولذا سمي « مسجد القبلتين » : ووصلت الأخبار بعد ذلك إلى مسجد قباء في صلاة
الفجر من اليوم الثانى ، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء في
صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة

فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة^(١) . ولما تم ذلك ثارت ثائرة اليهود وتحركت ثعابين الشك فى قلوبهم ، وهاجت عقارب التشكيك فى صدورهم ، وتساءلوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ ما الذى دفع هؤلاء الناس أن يغيروا قبلتهم ؟ وأخذوا ينفثون سمومهم محاولين تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، لكن الله ، جلت قدرته ، حسم القضية حسماً لا يحتمل ريبة ولا شكاً ، قال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . وما دفع اليهود إلى هذا الموقف إلا الحسد الدفين فى نفوسهم على الإسلام ونبي الإسلام ؛ إذ أن الجميع يعلم ما بين اليهود وما بين المسلمين من سموم الحقد ، وزاد القرآن الموقف جلاءً ووضوحاً ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

وقد بين الرسول ﷺ ما فى نفوس اليهود من حسد وحقد على هذا الدين ، فقال فى أهل الكتاب : (إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هداها الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التى هداها الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)^(٢) . إن سر قوة هذه الأمة الإسلامية كامن فى قوة التوحيد . إنها أمة .. الله ربها ، ومحمد نبيها ، والمصحف كتابها ، والكعبة قبلتها ، فكيف لا تكون قوية وهذه أسسها وأركانها ؟ الله نور السموات والأرض . ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾^(٣) . ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾^(٤) . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾^(٥) . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً أهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾^(٦) . وإذا كان اليهود قد تحالفوا مع المشركين والمنافقين فى فجر الإسلام وظهر الإسلام وعصر الإسلام ، فإنهم لا يكفون عن الدس ضد الإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام وقبله الإسلام . لقد تحالفوا قديماً مع المشركين والمنافقين ، واليوم يتحالفون مع الشيوعيين والصليبيين ، وصار الإسلام يواجه الثالث المدمر : شيوعية عالمية ، صهيونية عالمية ، وصليبية عالمية . والإسلام ينادى على أبنائه ويقول : —

مال للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولو كان حافظ إبراهيم موجوداً بيننا الآن لقال على لسان الإسلام :

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدى
نظر الله لى فأرشد أبنائى فشدوا إلى العلا أى شد
إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندی
نحن نجتاز موقفا تعثر الآراء فيه ، وعشرة الرأى تردى

(٤) سورة المائدة آية : ١٥ .

(٥) سورة التغابن آية : ٨ .

(٦) سورة الشورى آية : ٥٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ط دار الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٥ ط دار الشعب .

(٣) سورة يونس آية : ٥٧ .

قد وعدت العلا بكل أب من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دعوى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدى
ولو كان شوقى حياً بيننا لقال فى الإسلام :

شهيد الحق قم تره يتيماً بأرض ضيعة فيها اليتامى
أقام على الشقاء بها غريباً ومر على القلوب فما أقاما

على الأمة أن تحذر ما يحاك لها من مؤامرات فى الظلام . فقد وقف المستر جلاستون رئيس وزراء
بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وقف فى مجلس العموم البريطانى وبيده كتاب الله ونادى
أعضاء المجلس وقال لهم : إننا لن نستطيع القضاء على الإسلام إلا إذا قضينا على ثلاثة أشياء هذا الكتاب ،
وصلاة الجمعة ، وعرفات . فهب أحد الأعضاء مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه ، فغضب رئيس
الوزراء وقال له : ما أحقك ، وما أردت تمزيق أوراقه ، إنما أردت تمزيق مبادئه من صدور المسلمين .
أعلمتم أيها المسلمون ماذا يراد بكم ؟
يا أخا الإسلام .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد	وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة	لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية	وفاح أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله ياخير مرسل	أبشك ما تدرى من الحشرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف فى عميق ثبات
بأيامهم نوران : ذكر وسنة	فما بالهم فى حالك الظلمات

إننى لا أخشى على الإسلام من أعدائه ، فقد شهد التاريخ وأثبتت الحقائق أنه انتصر على جميع أعدائه
فى كل المعارك والمواطن والمواقع ؛ انتصر على المشركين فى كل الغزوات ، وانتصر على الصليبيين فى مواقع مع
الروم ، وعلى رأسها موقعة اليرموك ، وانتصر على الفرس فى كل المواقع ، وعلى رأسها القادسية ونهاوند ، إنما
أخشى على الإسلام من أذعيائه الذين قال فيهم رب العزة : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره
الله انبعاثهم فنبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين ﴾ * لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم
يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء
الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة
بالكافرين ﴿ (١) . وليست الفتنة هنا مقصورة على فتنة النساء ، وإنما هى أعم وأشمل ؛ فإن منها فتنة المال ،
قال تعالى : فى شأن هؤلاء الأدعياء : ﴿ إن تصببك حسنة تسؤهم وإن تصببك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا

من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تريبصون بنا إلا إحدى الحسينين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿١﴾ قال ﷺ : (أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان) ﴿٢﴾ .

ولما أفحم هؤلاء الأعداء وألقموا الحجارة في أفواههم ، بقول الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وجه الخطاب إلى الأمة الإسلامية وأتباع مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى عدولا وخيارا ، فأنتم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وأنتم شهداء الله في الأرض ، وأنتم الشهداء على الأمم يوم القيامة ، والرسول الكريم هو الذى قال الله له : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ وهو الذى قال الله له : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ ﴿٣﴾ .

يا رسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . قال الرسول ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أأتانا من نذير ، وما أأتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال فنزل قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ . قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم . رواه البخارى .

وعن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (يجيئ النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا) . فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ قال : عدلا ، ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

وقال ﷺ : (أنا وأمتي يوم القيامة على كومة مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ؟! وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل) .

(٣) سورة النحل آية : ٨٩ .

(١) سورة التوبة الآيات : ٥٠ - ٥٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ط دار الفكر .

وعن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان . . . وأثنوا عليه خيراً ، فقال رسول الله ﷺ : أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسراثر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال النبي ﷺ : وجبت . ثم شهد جنازة في بني حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : يا رسول الله بشئ المرء كان ، إنه كان فظاً غليظاً ، فأنثوا عليه شراً . فقال رسول الله ﷺ لبعضهم : أنت بالذي تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسراثر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . ثم قال الحاكم : (هذا حديث صحيح الإسناد) .

وعن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها ، وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً فجلست إلى عمر بن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى عليها خير . فقال : وجبت . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر . فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة . قال فقلنا : وثلاثة ؟ . قال فقال : وثلاثة . قال فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن الواحد . وقال ﷺ : (يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم . قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيئ . أنتم شهداء الله في الأرض)^(١) .

ثم بين الله تبارك اسمه الحكمة من تحويل القبلة فقال : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ، أي وما أمرناك بالتوجه إلى الكعبة بعدما كنت تصلى إلى بيت المقدس ، ما فعلنا هذا إلا ليظهر مدلول علمنا وليعلم الناس مواقف العباد من الذي يتبع ومن الذي ينقلب ، فعلمنا قديم أزل . فالله جلت قدرته علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . فقلوه تعالى : ﴿ لنعلم ﴾ أي ليظهر مدلول علمنا ، فنعلم الناس الحكمة مما جعلنا . وشتان ثم شتان ، وهيئات هيئات بين الاتباع والانقلاب ؛ فالاتباع التزام وسمع وطاعة ، ولذلك لما وصل الخبر بتحويل القبلة إلى المصلين في مسجد قباء ، كانوا راكعين فتحولوا إلى الكعبة وهم راكعون التزاماً وسمعا وطاعة لأمر الله جل شأنه . أما الانقلاب على العقب ، فالعقب هو مؤخر القدم ، والانقلاب عليه هو الارتكاس والانتكاس . قوله جل شأنه : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ، أي لقد كان تحويل القبلة أمراً عظيماً وشاقاً على النفوس المؤمنة الواثقة التي امتلأت يقيناً ونوراً ، فإنها تقف من أوامر الله موقف التسليم والإذعان والرضا . وفي القرآن الكريم آيات تبين لنا مواقف الفريقين من أوامر الله تعالى ، قال عز وجل ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ط الشعب .

وهم كافرون ﴿١﴾ . وقال سبحانه : ﴿ فاما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ (٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (٣) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ (٤) . ولا بد من الاختبار حتى يمحس الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٥) . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٦) .

قوله جل شأنه : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، المراد بالإيمان هنا الصلاة ، لأنها أعظم الأركان ، وهى الفريضة التى فرضت على الرسول فى السموات العلى ؛ والمقصود : ما كان الله ليضيع صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة . وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ . وعن ابن عباس : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، أى بالقبلة الأولى (٧) ، وتصديقكم ببيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ، أى عظيم الرأفة ، كثير الرحمة بكم . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فالصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه . قالوا : لا يا رسول الله . قال : فوالله .. لله أرحم بعباده من هذه بولدها) (٨) .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ ..

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ يدفع الألم والضرر عنهم رحيم بهم ، يدفع عنهم البلاء ويحلب الإحسان .

الإذن بتحويل القبلة

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

(٥) سورة المنكيات الآيتان : ٢ ، ٣ . ط الشعب .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٤٢ .

(٧) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٨) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦ .

(٣) سورة الإسراء آية : ٨٢ .

(٤) سورة فصلت آية : ٤٤ .

الْحَرَامَ^١ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ^٢ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ^٣ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ^٤ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَاتَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ^٥ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ^٦ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ
يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ^٧ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ^٨ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^٩

المفردات : ﴿ تقلب وجهك في السماء ﴾ : ترده طلبا للوحي والتجاء إلى الله ، ﴿ فلنولينك ﴾ :
فلنوجهنك جهتها ، ﴿ فول وجهك ﴾ : فوجه وجهك ، ﴿ شطر المسجد الحرام ﴾ : يعنى جهته ،
﴿ الممترين ﴾ : الشاكين .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ
لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ،
فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ،
فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ ، إلى قوله ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ ، فارتابت من
ذلك اليهود وقالوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قل الله المشرق والمغرب ﴾ وقال : ﴿ فأينا
تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من
ينقلب على عقبيه ﴾ . وروى ابن مروان عن ابن عباس قال : كان النبی ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت
المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ إلى
الكعبة ، إلى الميزاب ، يؤم به جبرائيل عليه السلام^(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة
لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض إلى مشارقها ومغاربها من أمتي)^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، أى وجه وجهك جهته ، وهذا أمر موجه إلى
قائد الأمة ، ثم وجه الأمر بعد ذلك إلى أمته لما فى ذلك من الشأن العظيم فقال : ﴿ وحيثما كنتم فولوا
وجوهكم شطره ﴾ . واستقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة للمسلمين فى مشارق الأرض

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٥٤١ ح ١ الشعب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

ومغاربها ، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى صلاة النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال القتال والتحام الصفوف ، يصلى على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وهنا مسألة : استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : لقوله ﴿ قول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافى كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلى في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر في حالة قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة ، لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع . وقد ورد به الحديث ، وأما في حالة ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي موضع سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حالة قعوده إلى حجره .

قوله جل شأنه : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ . وهذا تسجيل عليهم لما أتوه من الفعال الشنيعة . لقد علموا علم اليقين أن تحويل القبلة أمر سيكون ، وذلك من كتبهم ، ولكنهم وهم يعلمون أنه حق ثابت لا مرأى فيه ، ارتابوا وشكوا وشككوا وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، أى ما الذى حرفهم عنها ، لذلك جاء ختام الآية تهديداً ووعيداً لما فعلوه من إنكار الحق وكتمانه ، والجدال بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا . ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

قوله جل شأنه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ . كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية اليهود ، لأنهم لو أسلموا لكان في إسلامهم خير كثير . فقد ذكرت أوصاف الرسول في كتابهم التوراة ، وثبتت رسالته عندهم من غير شك ، فأراد ربك سبحانه وتعالى أن يخفف عن نفس رسوله ما يعانیه في هذه السبيل ، فأخبره عما في قلوبهم ، والله به عليم بأن هؤلاء الناس جُبلوا على العناد وصارت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، فلو جشّتهم بكل آية سواء أكانت آيات كونية أم آيات قرآنية ، ما اتبعوا قبلتك ، لأنهم قد ملأ الكبر نفوسهم ، وهاج الحسد في قلوبهم ، وحيث إنك يا محمد على الحق المبين فلن تتبع قبلتهم أبداً ، بل إن بعض أهل الكتاب ليس بتابع قبلة البعض الآخر ، فلا اليهود يصلون إلى قبلة النصرارى ، ولا النصرارى يصلون إلى قبلة اليهود . قال تعالى : ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ . قوله جل شأنه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك لئن لمن الظالمين ﴾ . هذا خطاب موجه إلى الرسول ﷺ بصفته رئيس الأمة ، والمراد به أمته ، لأن الله تعالى عصمه عن التلبس بأى منى عنه . والأهواء جمع هوى ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، وهوداء قد أعيا الأطباء ؛ فمن يتبع أهواء الظالمين وقد جاءه العلم من قبل الله جلّت قدرته ، فهو منهم ، والله جل جلاله يبين الآيات ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

قوله جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿ . هذه حجة قاطعة دمج الله بها أهل الكتاب ، فإنهم يعرفون أن محمداً حق ، وأن الله قد أخبرهم بذلك في كتابهم ، بل إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم كتموا هذا الحق وأنكروه ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتوح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلاتعقلون ﴾ * أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿ ^(١) . والمراد الفريق في الآية الكريمة هم العلماء منهم وغير العلماء تبع لهم ، ويوم القيامة سيتبرأ كل منهم من الآخر ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ، كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴿ ^(٢) . قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنني لا أدري من ابني ما كان من أمه . قلت وقد يكون المراد ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه بين أبناء الناس كلهم . قوله تعالى : ﴿ الحق من ربك ﴾ ، هذا إخبار من الحق جل جلاله بالحق عن الحق ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ فثبت للرسول الكريم وأصحابه بأنهم الأمة الناجية والفرقة التي كتب الله لها في كتابه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ^(٣) .

مسائل تتعلق بالقبلة

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَإِنِّي لَهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ

(٢) سورة النور آية : ٥٥ .

(١) سورة البقرة الأيتان : ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) سورة البقرة الأيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ .

مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا إِلَيَّ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ فاستبقوا ﴾ : تسابقوا . ، ﴿ الحكمة ﴾ : العلم النافع مع العمل ، كل هذا تأييد للدعوى وبطلان لكلام المنكرين .

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالتوجه إلى البيت الحرام ، بين سبحانه أن لكل فرقة وجهة تتوجه إليها : فاليهود وجهة ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين ، وليست العبرة بأن يتشبه كل فريق بوجهته ، إنما العبرة باستباق الخيرات إلى الحق ، لأن القبلة إنما تأتي بإذن من الله ، فهي أمر توقيفي لا مجال للاجتهاد البشري فيه . فيامن وليتم وجوهكم قبل المشرق والمغرب من اليهود والنصارى أنسيتم أن البر ليس في أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ؟ وهل يتحقق إيمان بالله مع مخالفة أمره وعدم الامتثال لإذنه ؟ ليس هذا هو البر . واعلموا أنكم أينما توجهتم ، فإن الله تعالى محيط بكم أينما تكونوا ، وإن تفرقتم في شعاب الأرض وسرتم في مناكبها فإن الله قادر على أن يجمعكم في أقل من لمح البصر . فأى فائدة في أن تولوا وجوهكم قبله لم يأذن الله بها وأنتم تقرأون في كتبكم أن النبي حق وسوف يوجهه إلى قبلة الحق ؟ ثم ذكر تعالى بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى شطر المسجد الحرام مرة ثانية وثالثة . فقال : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . وقال بعد ذلك : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ .

ولسائل أن يقول : لماذا تكرر الأمر باستقبال الكعبة ؟ ونقول : ذلك لحكمة بالغة اقتضتها العناية الإلهية ، فهذا أول نسخ ورد بإزالة حكم بحكم آخر متأخر عنه . فقد نسخ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فاقضى ذلك التوقيت حتى لا تكون هناك فتنة أو تردد إلا عند الذين ظلموا . وثانياً : لأن كل آية من هذه الآيات لم تخل من فائدة ، مع الآية الأولى ، قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ ، وفي الآية الثانية قرن الله تعالى الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ . وفي الآية الثالثة قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله مبيناً الحكمة من ذلك : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ . ويرى بعض المفسرين أن التكرار جاء لفائدة عظيمة . فالآية الأولى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ خطاب لمن في المسجد ، والآية الثانية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ خطاب لمن هم خارج الحرم في مشارق الأرض ومغاربها . ومن هنا فقد أفاد التكرار فوائد جمّة . وسبحان من قال في كتابه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (١) . ونأخذ من الآية الحكمة من تحويل القبلة ، كما نصت

(١) سورة هود آية : ١ .

على ذلك الآية . فالحكمة الأولى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ . هذا قطع لمعاذير المبطلين . لقد علموا أن الحق في ما أمر الله به ورسوله وبأن لهم ذلك ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ (١) . فهؤلاء حجبتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . أما الظالمون فإنهم في طغيانهم يعمهون ، وفي غيهم سادرون ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٢) ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٣) . الحكمة الثانية قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ . . إنكم يا أمة محمد على حق ، وهم على الباطل ، وصاحب الحق لا يخشى أحداً إلا الله ، فالحق أبلج والباطل لجلج ؛ فأنتم كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وهم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . أنتم الذين تبلغون رسالات الله وتخشونه ولا تخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . الحكمة الثالثة قوله تعالى : ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾ ومن تمام النعمة أنه تعالى قد عرفكم كيف تتجهون في صلاتكم حتى توحدوا صفوفكم وتكونوا على قلب رجل واحد (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتوجهون في صلاتهم إلى الكعبة مهما بعدت مواقعهم .

ولست أدري سوى الإسلام لى وطناً الشام فيه ووادى النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله في بلد عدت أركانته من لب أوطاني

والحكمة الرابعة قوله تعالى : ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ ، وكلمة «لعل» هنا يراد بها «اللام» الدالة على الغاية ، أى ولتهدتوا ، لأن الترجى يفيد توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع يفيد الجهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ونعمة الهداية من أجل النعم ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ (٤) ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٥) ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) . قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ . «الكاف» هنا بمعنى لام التعليل كما في قوله تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ (٧) ، وكما في قوله جل شأنه : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ (٨) . ويكون المعنى على هذا : لتهدتوا بسبب إرسالنا فيكم رسولاً منكم ، وتلك نعمة كبرى جعلها الله منة منه على المؤمنين ، فهو الرسول المعظم والرئيس المقدم . ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٩) ، والمراد بالكتاب ، القرآن ، وبالحكمة السنة . ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١٠) . وهنا قال

(٦) سورة الحج آية : ٥٤ .

(٧) سورة الإسراء آية : ٢٤ .

(٨) سورة الأنعام آية : ١١٠ .

(٩) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(١٠) سورة الحشر آية : ٧ .

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٢٥ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .

(٥) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ . وكم علم الرسول وكم تخرج في مدرسته من مصلح عظيم كأبي بكر ، وزعيم ملهم كعمر ، وعادل كريم كعثمان ، وعبقري فذ كعلي ، وقائد جبار كخالد ، ومحدث جليل كأبي هريرة ، وزاهد صادق كأبي ذر ، وفيلسوف بارع كسلمان . إذا كان ذلك كذلك من إتمام نعمة وهداية وإرسال وتلاوة وتزكية وتعليم ، ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

ومن أجل النعم التي يشكر الله عليها . . محمد ﷺ ، ولذلك ذم الله من جحد هذه النعمة فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾^(١) . قال ابن عباس : المراد بنعمة الله هنا محمد ﷺ .

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : (تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني) .

قال بعض السلف : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره . وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . قيل لابن عمر : أرايت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله وقد قال الله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ . قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلغته حتى يسكت . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجب لكم على نفسي . وعن سعيد ابن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ؛ وفي رواية : برحمتي . . .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي^(٢)) وأتابعه^(٣) إذا ذكرني . فإن ذكرني في نفسه^(٤) ذكرته في نفسي^(٥) وإن ذكرني في ملأ^(٦) ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا ، تقرب إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقرب إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة^(٧) .

فالذكر هو استحضار عظمة الله تعالى في قلب العبد ، والشكر هو تسخير كل ما وهبك الله لطاعته جل في علاه . فالصحة والمال والحسب والسلطان إذا سخرتها في طاعة الله فأنت شاكر . قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

(٥) ذكرته في نفسي : أي أثبتته ورحمته .

(٦) ذكرني في ملأ : أي جماعة .

(٧) الترغيب والترهيب - ج ٢ ص ٢٧١ - وزارة الأوقاف .

(١) سورة إبراهيم آية : ٢٨ .

(٢) أنا عند ظن عبدي بي : أي أعامله حسب اعتقاده .

(٣) أتابعه : أي بالتوفيق والرحمة والنصر .

(٤) ذكرني في نفسه : أي ذكرني سرا .

توجيهات ربانية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : الصلاة في اللغة الدعاء ، وهي من الملائكة الاستغفار ومن الله الرحمة .
والصبر : هو مقاومة النفس للهوى لثلاث تنقاد للقباح .
لنبلونكم : لنمحضنكم والمراد نصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم : الخوف ؛ ضد الأمن
نقص من الأموال : ذهاب بعضها . نقص الأنفس : موت الأنفس .
نقص الثمرات : قتلها ، وقيل موت الأولاد .

خطاب إلهي كريم إلى الجماعة المؤمنة أن تطلب العون من الله على أذى المعاندين الجاحدين الذين ناصبوهم العدا . وقال السفهاء منهم : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ وكنتموا الحق ﷺ يعلمون أنه الحق ، وتشابهت قلوبهم . . فمواقف العدا واحدة وإن اختلفت مللها ونحلها من يهود ونصارى ومشركين . نعم أمر الله الجماعة المؤمنة أن تطلب العون بالصبر والصلاة . ففي الصبر النصر ، وفي الصلاة النجاة ، وفي كليهما الفوز المين . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه الأعم الأشمل ، فهو في العبادات روحها ، يسرى فيها سريان ماء الورد في الورد ، وهو في المعاملات جمالها ، يزينها بلباس التقوى ، وهو في العقائد سياجها الذي يحميها من عواذى المعتدين .

ويكفي الصابرين فخرا أن الله تعالى معهم قال جل شأنه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ومعية الله حفظ ورعاية وصيانة وعصمة من الناس . فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لما جمع الله تعالى بين يوسف وإخوته والتقوا بعد طول فراق ودخلوا عليه وهو مترجع على عرش مصر بعدما رفعه الله من غيابة الحب إلى غاية الحب ، قالوا له : ﴿ أثنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف ^(١) ﴾ وكأنه في نفوسهم سؤال حائر يطلب الجواب عليه ، وكان هذا السؤال : ما الذي رفعك إلى تلك المكانة العالية ؟ فكان الجواب : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ^(٢) ﴾ . وإنما قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولم

يقول « مع المصلين » مع أنه تعالى أمر بالصبر والصلاة ، لأن الصبر روح الصلاة وصلاة بلا صبر جسد بلا روح ، ومن ثم فمعية الله للصابرين يدخل فيها الذين عرفوا الله فصبروا عند البلاء ورضوا بالقضاء وشكروا في الرخاء .

عن صهيب الرومي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء ^(١) شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء ^(٢) صبر فكان خيرا له) ^(٣) .

وللصبر حقيقة ، وأقسام ، وفضل ؛ فما حقيقته ؟ : الصبر هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات لثلاث يتردى في القبائح . وقيل هو احتمال الكد وقيل هو حبس النفس على ما تكره ، وقيل هو مقاومة النفس الهوى لثلاث تنساق وراء الشهوات . وكل هذه التعريفات مجتمعة تكون حقيقة الصبر في أعلى معانيها وأكمل صورها . وللصبر فضل ، وللصابرين درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . قال تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ^(٤) . وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي في فضل الصبر كلاما جليلا جاء في كتاب الإحياء ، ونسوق بما ذكره الإمام الغزالي في هذا الباب بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدور حول بيان فضل الصبر والصابرين . قال رحمه الله تعالى : « وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ ^(٥) . وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ ^(٦) . وقال تعالى : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٧) . وقال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ^(٨) قال ﷺ في بيان عظم مكانة الصبر : (الصبر نصف الإيمان) وقال صلوات ربي وسلامه عليه : (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منها لم يبال بما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ؛ فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه) . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٩) . وروى جابر أن النبي ﷺ سئل عن الإيمان فقال : (الصبر والسماحة) . وقال أيضا : (الصبر كنز من كنوز الجنة) . وقال أيضا ﷺ : (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس) . وقيل : (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) . وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما ، والله يحب الصابرين) ^(١٠) .

(١) سراء : أى نعمة .

(٢) ضراء : أى شدة .

(٣) سورة النمل آية : ٩٦

(٤) سورة الزمر آية : ١٠

(٥) سورة النحل آية : ٩٦

(٦) سورة النحل آية : ٩٦

(٧) سورة النحل آية : ٩٦

(٨) سورة النحل آية : ٩٦

(٩) سورة النحل آية : ٩٦

(١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ ١٢ ص ٢١٧ ط الشعب

(١) سراء : أى نعمة .

(٢) ضراء : أى شدة .

(٣) الترغيب والترهيب ص ٤ ص ١٦٢ ط الشعب .

(٤) سورة هود آية : ١١

(٥) سورة السجدة آية : ٢٤

والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان . وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر .

وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وينقسم الصبر انقسامات عديدة باعتبار أحواله . ونحن هنا نختار ذلك التعريف الذى يقسم الصبر إلى قسمين : أحدهما بدنى : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل : كتعاطى الأعمال الشاقة (إما من العبادات أو من غيرها) ، وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو القسم الآخر ، وهو صبر النفس عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى : فإن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ؛ وإن كان على احتمال مكروه اختلقت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر : فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى البطر ؛ وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمي حلما ، ويضاده التذمر ؛ وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ؛ وإن كان فى إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ؛ وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، ويضاده الشره ؛ فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

وبعد هذا الطواف المبارك فى مجال الصبر ينتقل بنا النظم الكريم إلى مجال الشهادة وكأن بينهما تمام ارتباط ؛ فالصبر والجهاد قرينان متلازمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

هناك صبر على كيد الكائدين ، ولكن قد يكون العدو لثيما ينظر إلى صبر المؤمن على أنه ضعف فيستأسد عليه . هنا يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٢) ولكى يكون هناك انتصار لابد أن يكون هناك استشهاد ، فلا يفلى الحديد إلا الحديد .

قال جل شأنه : ﴿ إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

إن طريق الوصول إلى الحق مخوف بالصبر والجهد ، مزين بدماء الشهداء ؛ فإذا كان في الصبر حياة للنفوس ، فإن في الشهادة حياة كاملة لا يشوبها نقص ولا يطرأ عليها قدرة تغير من صفاتها وبهاثها وروائها وجمالها . ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ﴾ ، أى لا تقولوا هم أموات ﴿ بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ . ذلك لأن ما وراء البرزخ محيط أعنف من أن يخر عبابه سبحانه ماهر . وقد منح الله الشهداء من أوسمة الشرف ونياشين الزفة وسمو الدرجة ما يجعل الشهيد يسأل الله العودة إلى الدنيا حتى يقتل مرة أخرى . وما من أحد يطلب من الله هذا الطلب إلا الشهيد . ولما تمثلت روح الشهيد عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله ، قال له الله : تمنّ علىّ يا عبد الله . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا لأخبر إخواني بما أنا فيه من النعيم المقيم . قال له الله : لقد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فمن يخبر إخواني ؟ قال له الله : أنا الذي أخبرهم . فنزل الأمين جبريل بقوله جل شأنه : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ (١) .

إن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مكانه في الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها . جاء في صحيح مسلم أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ياربنا وأى شيء نبغى وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ؛ لما يرون من ثواب الشهادة . فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يبتليهم بأنواع من البلاء ليتبين الصابر من الجزع ، وليجزى الصابرين ويوفيه أجرهم بغير حساب . وقد تعدد ألوان البلاء من جوع وخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وما من شك في أن هذه الأنواع التي وردت في قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ . ما من شك أنها جاءت مخففة ، وذلك من لطف الله بعباده . وجاء التعبير في الآية ﴿ بشيء ﴾ ولم يقل ولنبلونكم بالخوف والجوع وإبادة الأموال والأنفس والثمرات . ذلك كله دليل على أن الله لطيف بعباده . وجاء التعقيب في آية البلاء مبشرا للصابرين . وهنا يعلم الله الصابرين ماذا يقولون عند حلول البلاء فيقول : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

قال عمر رضي الله عنه : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى أنها لم تكن في ديني . الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت . الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير . ثم تلا قوله تعالى :

﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين ، وهى زيادة فى الحمل ؛ فكذاك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا .

قال ﷺ : (إذا مات ولد لعبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)^(١) .

وقال على بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة - فيقولون : إلى أين يابنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾^(٢) وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول الله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به . قال : (لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها) ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أبغى إهابا لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف ، ففعد عليها فخطبني إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : (أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فأما عيالك عيالى) قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ . فتزوجها رسول الله ﷺ ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ^(٣) .

يروى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقبل لها : أما تجددين الوجع فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبى مرارة وجعه . . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٥ ط الشعب .

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٣١ ط دار الفكر .

(٢) سورة الزمر آية : ١٠

بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ^(٢)

قال ﷺ : (اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير) .

واعلم بأن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل :

الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

الصفة والمروة

* إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

بعدما أمر الله تعالى الجماعة المسلمة بالتوجه إلى المسجد الحرام بمكة ، ناسب ذلك أن يبين بعض أفضال هذا البلد الأمين ، فوجه الأنظار إلى بعض شعائر الحج . ولما كان الحج إلى البيت الحرام بمكة ، فإن السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج . في هذا البلد الذي أمر الله بالتوجه إليه في الصلوات ، ولكل مسلم مهما بعدت دياره ، فالقبة واحدة للأمة كلها في مشارق الأرض ومغاربها . ولناخذ في بيان المفردات الصفا والمروة : جبلان . شعائر الله : جمع شعيرة ، وهي العلامة . والمراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج .

حج البيت أو اعتمر : الحج في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد مكة لأداء النسك . والعمرة : الزيارة ، واعتمر : زار ، وفي عرف الشارع هي كالحج في الطواف والسعى ، لكن ليس فيها وقوف بعرفة ، وليس لها زمان محدود . فلا جناح : فلا إثم . تطوع . . فعل الطاعة فرضاً أو نفلاً .

وقد وردت أحاديث نبوية في سبب نزول هذه الآية نذكر بعضها لتتضح الصورة ويتبين القصد : روى الإمام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : « رأيت قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ »

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴿ قلت فوالله ما على أحد جناح أن يطوف بهما . فقالت عائشة : بشما قلت يا ابن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة . فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قالت عائشة ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » أخرجه الصحيحان .

وقال رجال من أهل العلم : يقولون إن الناس ، إلا من ذكرت عائشة ، كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفاء والمروة . فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : صح أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفاء وهو يقول : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال (أبدأ بما بدأ الله به) .

وكان رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفاء والمروة يقول للناس : (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي) (١) . ومن هذه الأحاديث رأى الشافعي ورواية عن أحمد والمشهور من مذهب مالك أن السعي بينهما ركن من أركان الحج . ورأى بعض الفقهاء أنه واجب ، فإن تركه لزمه دم . ورأى أبو حنيفة أنه مستحب ، والراجح الرأي الذي يرى أنه ركن ، وذلك لأن الأدلة تساعد .

ولقد سعى رسول الله ﷺ وقال : (لتأخذوا عني مناسككم) . وقد ورد عن ابن عباس أن أصل ذلك السعي مأخوذ من طواف هاجر وطلبها وتردادها بين الصفاء والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفذ ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فمازالت تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفاء والمروة متذللة خائفة وجلّة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها « طعام طعم وشفاء سقم » . فعلى الساعي بينهما أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يتجه إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام (٢) .

قوله تعالى : ﴿ من شعائر الله ﴾ أي مما شرع الله ، أما قوله جل شأنه : ﴿ من تطوع خيرا ﴾ ، فهذا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٧ ، و ٢٨٨ ط الشعب .

النص يشمل جميع العبادات ، أى فمن زاد عن الفريضة فى الصلوات والزكاة والصيام والحج ﴿ فإن الله شاكراً ﴾ يجزى الجزء الأوفى ، فيكافىء على الحسنة مكافأة كبيرة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (١) .
﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (٢) .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

وما من شك فى أن التطوع فى العبادات كلها له عند الله منزلة عليا . أخبر مولانا جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل : (ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) .

والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجمل عن عدد وعن وزن وعن مكيال

النهى عن كتمان العلم

٧
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ أُولَٰئِكَ
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المفردات ﴿ يكتُمون ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر . ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ : يمهلون .

العلم أمانة ، والأمانة واجبة الأداء ، فمن كتم العلم فقد خان الأمانة . وقد قال مولانا جل جلاله :
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (٣) والعالم الذى يؤدى الأمانة
ويبلغ العلم للناس يرفعه الله درجات ؛ قال النبى ﷺ : (بلغوا عني ولو آية) (٤) وقال : (نضر الله امرأ سمع
مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها . . فرب مبلغ أوعى من سامع) (٥) واعلم بأن الله تعالى وملائكته وحمة

(٤) الجامع الصغير ج١ ص ٤٨٨ ط دار الفكر .

(٥) المصدر السابق ج٢ ص ٦٧٤ ط دار الفكر .

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٢٧ .

عرشه ، حتى النملة في جحرها والحوت في البحر ، يصلون على معلم الناس الخير . هذا جانب مشرق مضيء ، يقابله على الجانب الآخر كتمان العلم ، وهو جانب مظلم معتم ؛ قال فيه النبي ﷺ (من سأل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) (١) .

وجاء في الصحيح عن أبي هريرة قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ... ﴾ (٢) .

وقد أخذ الله العهد على العلماء أن يبينوا ما في الكتاب ونهاهم عن كتمانهم ؛ قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ (٣) والذين كتموا أو يكتُمون ما أنزل الله من البينات والدلائل على صدق رسول الله ﷺ وإثبات نبوته وما أنزل الله من طرق الهدى والرشاد ، بعدما وضح الله كل ذلك في كتبه ، وظهر للناس واضحاً جلياً ، كان على العلماء أن يرشدوا ويبينوا ويبلغوا رسالات الله ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾ (٤) . وإثنان إن صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسد فسدت الأمة : العلماء والأمراء ؛ وقد رفع الله مكانة العلماء ، حيث جعلهم مع الذين شهدوا أنه لا إله إلا الله حيث قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٥) ، وقال فيهم رسول الله ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء) (٦) وجعلهم الله تعالى أهل خشيته فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٧) .

إذا كان هذا الفضل للعلماء العاملين المبلغين ، فإن الذين يكتُمون العلم استحقوا من الله أن يلعنوا ، واستحقوا أن يلعنهم كل شيء ، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، وليس اللعن أمراً سهلاً ، إنما هو طرد من رحمة الله ؛ ومع هذا كله فقد اقتضت سنة الله تعالى ألا يقنط الناس من رحمته ، ففتح باب التوبة ؛ وسبحانه وسعت رحمته كل شيء ، والذنب كالدواء ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به . . فما توبة هؤلاء الكاتمين للعلم ؟ .

قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ أى أقبل منهم توبتهم وأرضى عنهم ، وذلك شأن من شئون الله فإنه هو التواب الرحيم : أما الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فإنهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك مأواهم النار وما لهم من ناصرين . وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وجزاؤهم كذلك خلود في النار لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعثون ، أى لا يمهلون ، أى يدخلون النار عقب موتهم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون

(٥) سورة آل عمران آية : ١٨ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٩٠ ط الشعب .

(٧) سورة فاطر آية : ٢٨ .

(٨) سورة الأنفال الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٦٠٨ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٢ ط الشعب .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٩ .

بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴿١﴾ وقال تعالى في شأن قوم نوح : ﴿ بما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ ﴿٢﴾ .

وفي شأن آل فرعون قال تعالى : ﴿ وحق بال فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ﴿٣﴾ . فهل هناك إمهال لهؤلاء الظالمين ؟ إنهم يبدءون العذاب وهم في سكرات الموت .

﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ ﴿٤﴾ .

فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

التوحيد وأدلته

وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ وإلهكم ﴾ الإله : المعبود بحق أو باطل ، والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين (الفلك) ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع . وبث : فرق ونشر ومنه كالفرش المبتوث . ﴿ دابة ﴾ الدابة في اللغة : كل ما يذب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب ، وهو المشى رويداً ، وقد خصه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ﴾ ﴿٥﴾ ، فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان . ﴿ تصريف الرياح ﴾ : الرياح جمع ريح ، وهي نسيم الهواء ، وتصريفها : تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعقياً ﴿ المسخر ﴾ : من التشخير ، وهو التدليل والتيسير .

قضية التوحيد فطرية مركوزة في طباع الخلائق ، قال سبحانه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ ﴿٦﴾ . ولقد أقام القرآن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على هذه القضية الصادقة التي كانت الركن الأول من رسالات الأنبياء . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن

(١) سورة الأنعام آية : ٩٣ .

(٢) سورة نوح آية : ٢٥ .

(٣) سورة غافر آية : ٤٦ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٩٣ .

(٥) سورة النور آية : ٤٥ .

(٦) سورة الروم الآيةان : ٣٠ ، ٣١ .

أنذر قومك من قبل أن يأتِيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴿١﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ ﴿٣﴾ . ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ ﴿٤﴾ . وقال جل شأنه ، حكاية عن موسى وفرعون : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال إن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ ﴿٥﴾ . الخ .

وغنى عن البيان ما دار بين إبراهيم وقومه في قوله جل شأنه : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ . والآية الجامعة لرسالات الأنبياء نجدها واضحة الدلالة على أن التوحيد رائدهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ﴿٦﴾ . ولقد قال النبى ﷺ فى شأن كلمة التوحيد : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) ﴿٧﴾ ، وقال : (لقتوا موتاكم لا إله إلا الله) ﴿٨﴾ . وبين القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء كانت تقوم على التوحيد ، قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ﴿٩﴾ ، وقال جل قدرته : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ﴿١٠﴾ . ولعظم هذه الكلمة فإن الله أكد بها قضية التوحيد ، فبعد ما قال وإلهكم إله واحد ، أكدها بقوله لا إله إلا هو ، فهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، ومجير كل ملهوف ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد ، تنزه عن الشريك ذاته وتقدسست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ؛ بالبر معروف وبالإحسان موصوف ؛ أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ؛ ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزى ، ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون ؛ لا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان . قيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ قال : ومتى لم يكن ؟ هو الأول فلا شيء قبله ، الآخر فلا شيء بعده ، الظاهر فلا شيء فوقه ، الباطن فلا شيء دونه ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ له

(٦) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٧) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦٢٨ ط دار الفكر .

(٨) المصدر السابق .. ج ٢ ص ٤١٢ ..

(٩) سورة النمل آية : ٢ .

(١٠) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(١) سورة نوح الآيات : ١ - ٣ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٦٥ .

(٣) سورة هود آية : ٦١ .

(٤) سورة هود آية : ٨٤ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٢٣ - ٢٩ .

ملك السموات والأرض يحى ويميت وهو على شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم (١).

قيل للإمام الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وحدانية الله ؟ فقال : ورقة التوت : تأكلها الدودة فتخرجها حريراً ، ويأكلها الغزال فيخرجها مسكاً ، وتأكلها الشاة فتخرجها بعراً وتأكلها النحلة فتخرجها شهداً ، فمن الذى نوع الأشياء والأصل واحد ؟ .

والبر والبحر فيض من عطاياه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبرة والحيوت ناجاه	والوحش تجده والطير سبحة
والنحل يهتف حمداً فى خلاياه	والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى وربى ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

إننى ما زلت أذكر ، ونحن فى مراحل التعليم الأولى ، وكنا أطفالاً صغاراً ، هذه الأناشيد التى نرددها فى الصباح ، قبل استقبال الدراسة ، وكانت تفيض إيماناً وتوحيداً ونوراً وتشع جمالاً وجلالاً وكمالاً :

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى	يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

وانظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من الذى جهزه	بقدرة مفتكرة
ذاك هو الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

وانظر إلى الشمس التى	جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها	حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها	فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزائمه بأنجم كالدرر المنتثرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغلة وقدرة مقتدرة

إن هذه الآيات إنما ترشدنا إلى قاعدة أصيلة دارت حولها الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً ، وأنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، لا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ وهو السميع البصير ﴿^(١)﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴿^(٢)﴾ . إن هذا الدليل الذى عقد عليه المفكرون أدلتهم ، هو دلالة الأثر على المؤثر ، وتحت هذا القانون تندرج أدلة فرعية هى : دليل التكوين ودليل الارتباط ودليل الإتيان ودليل العناية ، ودليل الواجب الذى قال به الفلاسفة ، ودليل الشكل الذى قال به رينيه ديكارت ؛ وما أغنانا عن كل هذه الأدلة بجانب قوله جل شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿^(٣)﴾ هذه الآية جمعت فأوعت ودلت فصدقت وبينت فأحكمت ، ولا شك أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . إن الله جلت قدرته لما قرر أدلة التوحيد سبقها بصفتين كريمتين من صفاته ، فقال ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ أى أنه هو المالك المتصرف فى ملكه ، إلا أنه وصف نفسه بالرحمة ، فهو رحمن الدنيا الذى رحم الجميع وشملهم بلطفه وبره ، ورحيم الآخرة الذى اختصت رحمته بالمؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ﴿^(٤)﴾ ، فمن حق هذا الواحد الأحد أن يُعبد وحده وألا تقابل رحمته بالجحود والإنكار . ولنأخذ الآن فى بيان الأدلة :

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والأفلاك ومدارها ، والأرض واتساعها ، والبحار وأمواجها ؛ الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ، ويسبح بحمده ، ويعلمن بشكره ولا يغفل عن ذكره .

ولقد بدأت الأدلة فى تلك الآية بذكر الكونين : الكون المكانى والكون الزمانى ، فالكون المكانى جاء فى خلق السموات والأرض ، والكون الزمانى جاء فى اختلاف الليل والنهار ، واختلافها يدور حول الطول والقصر والحر والبرد والظلمة والضوء ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها

(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣

(١) سورة الشورى آية : ١١
(٢) سورة طه آية : ١١٠

أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴿١﴾ . ثم تنتقل بنا الآيات من الكون إلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس من البضائع والسلع والتجارة والصناعة وغير ذلك ، وإنها لسفن عظيمة تمخر عباب الماء طولاً وعرضاً ﴿٢﴾ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٣﴾ .

ونأتى بعد ذلك إلى عالم الماء والرياح والسحاب ، فنستمع إلى منطق العلم ولغة الحقائق تحدثنا عن هذه الآيات ؛ تقول الحقائق العلمية : فما هو السحاب ؟ هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العليا كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرها فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخر ، والثانى أن يكون الهواء محتويًا عدداً كبيراً من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريداً كافياً ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر . فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء ، وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولاً برودة الجوفى تلك المناطق ، وثانياً قلة الضغط فى المناطق الجوفية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدرج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع ؛ أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ، لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ؛ فالهواء إذا صعد يبرد مرتين : مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً ، حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة ، قاعدتها أفقية ، حيث ابتداء التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو ، وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل من تمددها ؛ هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق والارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الرياح الدافئة المحملة بالبخر إذا التقت برّيح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيراً ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى كثيراً ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينها عند احتكهما ويكون السحاب آنئذ متموجاً الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح فضل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه ، لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التي تصطدم بأعاليها ، لأن أعالي الجبال الشاخنة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشعب ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ويصبح الماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق ، والطريق الثاني طريق مجرى الرياح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية ، حيث يتكاثف بخارها سحاباً ، ويتكاثف سحابها مطراً على أعالي تلك الجبال . لكن التبريد إلى ما فوق التشعب لا يكفي وحده في تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغاً عظيماً ، بخلاف ما إذا كان في الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلاً عن درجة التشعب أو درجة (الندى) ، كما يسمونها ، وجسيمات الغبار الحفية والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء ، ولو كانت هي كل ما يمكن أن يصلح ندى لقطيرات الماء في الهواء فوق المشيع ، لعز تكوين السحاب ولاقتصر على المناطق التي يكثر في أجوائها العليا هذا الغبار . لكن الذي قدر الأشياء وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار في أعالي الجوائشياء أخرى غير الهواء ، هي الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات ، جمع الأويلب تصغير ألْب من الفعل ألْب بمعنى ساق وجمع واجتمع وأسرع كما في القاموس .

وعوامل أولين أو تأيين الهواء ، أى تكوين الأيونات أو الأويلبات ، فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار ، فيها غازات محملة بالنوعين ، الموجب والسالب . ومنها الضوء فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء آيئته أو أولبته ، فيتكون في مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجسيمية التي تخرج من العناصر الشعاعية الموجودة في القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر ؛ المعروفة بأشعة رنتجن ، ومنها احتكاك الماء في البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض ، وبالساحل أو بالصخور . فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك ، والبخار الذي يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء ، بعضها أو كلها ، إلى الطبقات العلوية ، وكل جزء من جزيئات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات ، يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار . فأن ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود في الطبقات العليا الجوية سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشعب ولو قليلاً بالتبريد .

إن هذه الآية الكريمة كأنها أسطول قرآني استعرض قطعه على أمواج بحر زاخر ، واشتمل هذا الأسطول على ست قطع كلها ترفع رايات التوحيد : خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الليل والنهار ، ثم الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، ثم وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، ثم تصريف الرياح ، ثم السحاب المسخرين السماء والأرض . ولقد تبين لنا مما قاله العلم الصلة الوثيقة بين السحاب والرياح ، ومعنى تصريفها ، أى تنوعها واختلافها ، ولندكر الآن عن المطر الذي ينزل من السماء .

إن تكوّن السحاب لا ينفع الناس شيئاً إذا لم يكن في الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطراً ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطراً إلا إذا نمت قطراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقاً للجاذبية ، فهي تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ، ولو كان ساكناً ، يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تؤدي مهمتها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية ، وهذا التحول قد يسر الله أسبابه في الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحيط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ لا يات لقوم يعقلون ﴾ ، الآيات هي البراهين والدلائل لمن كان له قلب يعقل به أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن لم يعقل هذه الآيات فقد فقد كل شيء : فقد القلب والعقل ، فقد الفكر والتدبر ، وهنا ينطبق عليه قوله جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) .

لا محل للمصادفة في هذا الكون

إن كوناً يقوم على العناية والقصد والإرادة الإلهية والإتقان ، لا يمكن أن يكون للمصادفة محل فيه ؛ ولقد وقع الماديون في خطأ جسيم عندما قالوا إن العالم نشأ مصادفة ، حيث تجمعت الجزيئات لتكون الذرة مصادفة ، وتجمعت الذرات على نسب وأوضاع مخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة ، ثم تلاقت العناصر الأصلية وتجمعت بنسب صالحة وفي مدد كافية وفي أجواء ملائمة ، فكان الإنسان وكل الحيوانات والنباتات وكل هذا حدث مصادفة .

وبأبسط الأدلة وأيسر الأمثلة . يتضح لنا بطلان ما نادى به الماديون الملحدون ، وقد ساق الأستاذ نديم الجسر في كتابه « قصة الإيمان بين العلم والفلسفة » أمثلة أبطل بها ما يقوله هؤلاء الذين صدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿ (٢) ، يقول الأستاذ نديم الجسر : لو أعطينا رجلاً عاقلاً مبصراً صندوقاً به مئات الآلاف من حروف الطباعة ، وطلبنا منه بعد إغلاقه أن يستمر في تحريكه لأي مدة شاء وليأت لنا في النهاية بقصيدة لا مرء القيس أو لعنترة ، فهل يمكن بالمصادفة أن يحدث ذلك ؟ إننا نقول لمن يجيب بنعم أن يبدأ بإجراء التجربة إلى نهاية عمره وليقل لنا ما هي النتيجة ؟ وإذا كانت المصادفة مع الأشياء المتزاحمة المحدودة مستحيلة فكيف يتصور عاقل حدوث هذا الكون بالمصادفة ؟

يقول « كريس موريسون » الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : « إن الأكسجين والهيدروجين وثاني أكسيد الكربون والكربون هي العناصر الرئيسية البيولوجية ، وهي عين الأساس الذي تقوم عليه

(٢) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ .

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها في وقت واحد ومن كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلماء إيضاح بهذه الحقائق ، وأما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية .

ويقول جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون : « عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه ، فإننا نجد أن عمر الأرض الذي يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر ، لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة .

ويقول سوارتزن عضو جمعية علم التربة بأمریکا بعد حديث طويل عن الكون والنظام فيه : « من الطبيعي أن يتساءل الإنسان بعد ذلك : لماذا وجدت هذه القوانين ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات ؟ تلك العلاقات العديدة التي تتسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين ، مما يؤدي إلى تحقيق النفع والفائدة . كيف نفسر كل ذلك الإبداع الذي يسود هذا الكون ؟ هنالك حالات : فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو مالا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، ومالا يتفق في الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلم ؛ وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر ، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق . وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره .

بطلان القول بالطبيعة

يقول صاحب كتاب « في العقيدة الإسلامية والأخلاق » : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادي في مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه . وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة . بينما هو في نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هي خالقة كل ما في الوجود ، أو هي التي تمنح الحياة لكل حي في الكون . فكيف يكون إله ذلك الذي يقهره الإنسان ، ومن ثم يعبدّه ؟ إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشري إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ، وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخر ، فأله الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسائل السماوية لتنير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما في الكون ؛ إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ، بل تطمح وتعشق العبودية ، ولهذا راحت في عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة تحت اسم الطبيعة وتدعى أنها هي الخالقة .

ولنا أن نسأل : ما هي الطبيعة ؟ أي الماء والنار والتراب والهواء ؟ أي الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أي القوانين التي يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أي الصفات والخصائص التي تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أي الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة ، فأيا كان الجواب ، فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟ والإجابة نعرفها جميعاً : إنه حيوان ناطق مريد . ولقد اقتضى النطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة ، واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ، ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ، فهل استطاع أن يخلق أى شىء ، وهو جزء من الطبيعة وأرقى ما فيها ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ .

والإنسان ، وهو السيد العاقل المدبر المخترع للمعلومات والمسخر لكل الآلات ، لم يخلقه لأنه مخلوق ، فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء - مع كل ما يحيط بها من قوانين - الإنسان العاقل ؟ .

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تعنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن لا سمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له .

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون النسبية وقانون التناقض . . فالأرض تخلق الأرض والشمس تخلق الشمس والنبات يخلق النبات والإنسان يخلق الإنسان وهكذا ، أو قل - إن شئت - إن صفات الإنسان تخلق الإنسان ، وصفات الأرض تخلق الأرض ، ويعنى هذا أن المعلوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظاهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم الجيولوجى بجامعة أمريكا : (الحق من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الإنسان إلا أن يجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديددها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ، ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ، فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ لا بد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى ، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً) .

ويرد سانتلاتا على من يقول بأن الطبيعة هي الخالقة قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين مواردها ؟ وكيف بقيت على تألفها ؟ وكيف تجددت على غط واحد المرة بعد المرة ؟ . هذا .. إذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ ، من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .. هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء ؟ .

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فمن باب أولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا فى درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم هاتاواى ، مصمم العقل الالكترونى للجمعية العلمية للدراسة الملاحية الجوية بمدينة لانجلى فيلد : (إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها .. إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ولا بد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته ، إنه هو الله اللطيف الخبير) .

صدقت يارب العالمين إذ قلت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (١) .

نشهد أنك أنت الواحد لا شريك لك وأنت القائل وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ (٢) وصدقت وقولك الحق : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . ولو أخذنا نعدد آلائك وكلماتك ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولما استطعنا أن نصل إلى شاطئ البحر الخضم .

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣) . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٤٣ - ٤٥ .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة لقمان .

(٣) سورة لقمان الآية : ٢٧ .

بمثله مددا * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴿١﴾ قال موسى : يارب علمنى شيئاً أدعوك وأذكرك به . قال له يا موسى قل : لا إله إلا الله قال موسى : يارب كل عبادك يقولونها . قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله .

المشركون وأهنتهم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

المفردات : ﴿ أندادا ﴾ : جمع ند وهو المماثل ، والمراد بها الأوثان والأصنام .
﴿ أسباب ﴾ : جمع سبب ، وأصله الحبل ، والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصدقة .

﴿ كرة ﴾ : الكرة الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها .
﴿ حسرات ﴾ : جمع حسرة ، وهي أشد الندم على شيء فائت ، وفي التنزيل : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ .

وبعد وضوح الأدلة وقوة البراهين على وحدانية الله ، يخبر تعالى أن هناك من الناس فريقاً أشرك معه غيره ، فاتخذ أندادا وأصناماً وأوثاناً أحبهم كحب الله وهم يعلمون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون . وإن تدعوهم فلن يسمعوا ولن يبصروا . قال جل جلاله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (٢) .

أما الذين آمنوا فهم أشد حباً لله ، فهو صاحب الإنعام والإكرام ، هو الرحمن الرحيم ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الباريء المصور . ولو أن هؤلاء الظالمين رأوا

(٢) سورة فاطر آية : ١٤ .

(١) سورة الكهف الآيات : ١٠٩ ، ١١٠ .

العذاب لعلموا أن القوة لله جميعاً ، فهو القوى المتين المتصف بصفات الكمال والجلال : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ * إنه هو يبدىء ويعيد ﴿ (١) ﴾ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ فالقوة له جميعاً وهو شديد العذاب : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴿ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ (٢) ﴾ .

أما حال هؤلاء في الآخرة فإنها حال تدعو إلى الأسى والألم ، فالأسياد منهم والمستكبرون يتبرأون من الأتباع المستضعفين : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ (٣) . وتقطعت الصلات بين الضعفاء والمستكبرين فتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا مرة أخرى ليتبرأوا من المتبوعين ، ولكن هيهات . . هيهات ؛ إنها الحسرة ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴿ (٤) ﴾ . نعم إن حكم الله عادل ، نعم إنها كلمة الله وما هم بخارجين من النار ﴿ وقال الذين في النار لخنزيرة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴿ (٥) ﴾ ، إنهم بعد ذلك يتوجهون إلى خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴿ (٦) ﴾ فيتوجهون بعد ذلك إلى الجبار جل جلاله و ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴾ * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ فاتخذتموهم سخرى حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾ * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿ (٧) ﴾ . وهكذا تنفصم العرى بين قوم اجتمعوا على ما يغضب الله فلا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون .

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴿ (٨) ﴾ .

فيا أيها العاقل الرشيد لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي ، واعلم بأن خير الأصحاب من إذا ذكر الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ؛ وشر الأصحاب من إذا ذكر الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك . فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم .

(١) سورة البروج الآيات : ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة . الفجر الآيات : ٢١ - ٢٦ .

(٣) سورة إبراهيم آية : ٢١ .

(٤) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) سورة غافر الآيات : ٤٩ - ٥٠ .

(٦) سورة الزخرف الآيات : ٧٧ - ٧٨ .

(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ - ١١١ .

(٨) سورة الزخرف الآيات : ٦٧ - ٦٩ .

إن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة فعودها القناعة .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركز إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾^(١) ، واعلم بأن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ؛ واسأل الله حسن الخاتمة ، وأكثر من قول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث يا ذا الجلال والإكرام ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء ﴾^(٢) .

توجيه وإرشاد

يَتَّبِعُهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿ خطوات الشيطان ﴾ : جمع خطوة ، وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي ، وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار . السوء : أصل السوء ما يسوء الإنسان ، أي يحزنه ، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً ، لأنها تسوء صاحبها ، أي تحزنه في الحال أو المآل . و ﴿ الفحشاء ﴾ : ما يستعظم ويستفحش من المعاصي ، فهي أقبح أنواع المعاصي . ﴿ ألفتنا ﴾ : وجدنا ، ومنه ﴿ وألفتنا سيدها ﴾^(٣) ، ﴿ إنهم ألقوا آباءهم ضالين ﴾^(٤) ، أي وجدوا . ﴿ ينعق ﴾ : يصيح . يقال : نعق الراعي بغنمه نعيقاً ، إذا صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانق بضأنك يا جرير فإنما متتك نفسك في الخلاء ضللاً

(٣) سورة يوسف آية : ٢٥ .

(٤) سورة الصافات آية : ٦٩ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

(٢) سورة النور آية : ٢١ .

بعد ما بين الله حال فريق من الناس اتخذ من دون الله أنداداً أحبهم كحب الله ؛ والأنداد قد يكونون بشراً أحلوا لأتباعهم أشياء وحرّموا عليهم أشياء ، وأطاعهم الأتباع فضلوا وأضلوا . قال تعالى : ﴿ وقال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴿ (١) .

وقد يكون الأنداد أوثاناً عبدوها واعتقدوا أنها تقرّبهم إلى الله زلفى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (٢) .

وكلا الفريقين ضال مضل ؛ فالحكم لله وحده ، والتحريم منه وحده : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً قل آذن لكم أم على الله تفترون ﴾ * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿ (٣) . أما الذين اتخذوا الأنداد وسائط وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإن الله تعالى يبطل حججهم ويدحض أدلتهم فيقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (٥) . هؤلاء المتبوعون والتابعون سيكونون أعداء يوم القيامة : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ (٦) ، وتكون العاقبة أن يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم كما سيكون المصير خلوداً في النار وبئس القرار .

ويتوجه النداء الربّاني بعد ذلك إلى الناس أمراً ونهيّاً : أما الأمر : ﴿ كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ ، وأما النهى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ . أما الحلال فهو ما أحله الله ، وهو طيب . قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ (٧) . وقد كانت الزوجة المسلمة توصى زوجها وهو ذاهب يستقبل يومه لكسب لقمة عيشه وتقول له : يا فلان اتق الله ولا تأكل حراماً ، فإننا نصبر على الجوع في الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

والحرام ضد الحلال ؛ وقد يكون الحرام محرماً لذاته أو لأمر عارض ، وسيأتى بيان المحرم لذاته في قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ (٨) ، وفي قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به ﴾ (٩) ، وقد يكون الحرام لأمر عارض كاستغلال النفوذ لأكل أموال الناس بالباطل ، وكما قال

(٦) سورة البقرة آية : ١٦٦ .

(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(٨) سورة النحل آية : ١١٥ .

(٩) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٢٥ .

(٣) سورة يونس الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

(٥) سورة ق آية : ١٦ .

تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾^(١) ، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً « الرشوة » ، قال ﷺ : (لعن الله الراشي والمرتشي والرائش)^(٢) .

قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾^(٣) . ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾^(٤) . وقال جلّت قدرته : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾^(٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون ﴾^(٦) . وكيف يتبع العقلاء آثار الشيطان وخطواته وقد حذرنا الله من عداوته البينة : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾^(٧) .

إن الذين يتبعون خطوات الشيطان قد ضلوا سواء السبيل ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾^(٨) . وإنما نهى الله عن اتباع الخطوات لأن الشيطان لكي يوقع ابن آدم في المعصية ، فإنه يتدرج به خطوة خطوة بعد ما يزين له سوء عمله فيراه حسناً . قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾^(٩) ، ومن ثم فإن للشيطان خطوات ومقدمات يمهّد بها الطريق أمام من يريد إغواءه ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرختي إني كُفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾^(١٠) . وقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنها في النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾^(١١) .

وهل نهانا الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان إلا لأن ذلك فيه نفعنا وصلاحنا ؟ ولأن اتباع خطواته فيه شقاؤنا وضلالنا ؟ ﴿ يريد الله ليبين لكم يهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم

(٧) سورة فاطر آية : ٦ .

(٨) سورة النور آية ٢١ .

(٩) سورة فاطر آية : ٨ .

(١٠) سورة إبراهيم آية : ٢٦ .

(١١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٨ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .

(٣) سورة المائدة آية : ١٠٣ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٣٩ .

(٥) سورة النحل الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

(٦) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿١﴾ .

قال تعالى مبيناً حكمة النهي عن اتباع الخطوات : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ، وكان سائلاً قال : بم يأمرنا هذا العدو المبين ؟ فين الله لنا الحكمة البالغة بأسلوب يفيد الحصر والقصر فقال : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ ، فكان أمره مقصور على السوء ، وهو كل ما يسيئك فعله من الذنوب ، والفحشاء : وهو كل ما فحش من الموبقات المهلكات بحيث أصبح شنيعاً . وقد تطلق الفحشاء ويراد بها البخل كما في قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ ﴿٢﴾ .

والفحشاء أشد جرمًا من السوء . قال تعالى في شأن يوسف الصديق لما راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ﴾ ﴿٣﴾ ، قال جل جلاله بعد ذلك : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ﴿٤﴾ .

ورأى بعض المفسرين أن السوء : هو الشروع في الذنب ، أى مقدماته ، والفحشاء هو الذنب نفسه ، وهذا قول يوضح الفرق بينهما . وكما يأمر الشيطان بالسوء والفحشاء ، كذلك يأمر أتباعه أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، أى يقولون على الله بالجهل : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ﴿٥﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ ﴿٦﴾ . وكما يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم في الشرائع ، كذلك يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم في العقائد ، بأن يقولوا إن الله تعالى صاحبة وولدا : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ ﴿٧﴾ ؛ كذلك يأمرهم الشيطان أن يقلدوا الآباء في الكفر ويسيروا على نهجهم في الشرك . وما يزيد الأمر سفهاً وقبحاً أنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ، أى أيتبعونهم ولو كان الآباء لا يعقلون أى شيء ولا يفقهون ولا يهتدون إلى سبيل الحق ؟ وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴿٨﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ ﴿٩﴾ . ولما كان تقليد هؤلاء القوم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، بين الله حالهم وصفتهم في مثل ضربه لهم ، والمثل نجاء به لبيان الحال ، حتى إنه يجعل من الأمور المعقولة كأنها أمور محسوسة لشدة وضوحها وبيانها ، قال تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى

(١) سورة النساء الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .

(٣) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٤) سورة يوسف آية : ٢٤ .

(٥) سورة الشورى آية : ٢١ .

(٦) سورة النحل آية : ١١٦ .

(٧) سورة التوبة آية : ٣٠ .

(٨) سورة الزخرف الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٩) سورة لقمان آية : ٢١ .

ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴿١﴾ ، أى مثلهم فى التقليد واتباع كل ناعق كمثل الراعى الذى يصيح بالعجماوات التى لا تعقل ، وإنما تسمع الدعاء والنداء فتقبل مرة وتدبر أخرى دونما تعقل أو تدبر أو فكر ؛ فهؤلاء الذين عطلوا حواسهم وعقولهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة فقلدوا الباطل ، هؤلاء صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، عمى لا يبصرون ؛ وفوق ذلك كله لا يعقلون . قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) .

نداء إلى المؤمنين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

المفردات : الإلهال : رفع الصوت ، وكانوا إذا ذبحوا لاهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها ، ويقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ؛ ثم قيل لكل ذابح (مُهل) وإن لم يجهر بالتسمية ، والباغى الطالب للشئ الراغب فيه ، والعاذ المتجاوز قدر الضرورة ، كما جاء فى التزويل : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ (٣) ، أى لا تتجاوز إلى غيرهم ، والإثم : الذنب والمعصية .

بعد ما أمر الله تعالى الناس أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، خص المؤمنين بالذكر ، وأمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، ذلك لأنهم أسرع الناس امتثالاً لأمر الله واجتناباً لنهيهِ ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ . وعظمة الإسلام تتجلى فى أنه دين الفطرة ، يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فهو دين الله الذى يعلم من خلق : ﴿ قل أنتم أعلم أم الله والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بإيجاز وجيز : لأنه لم يأمر بشئ وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شئ وقال العقل ليته ما نهى .

ولقد شرع الله لعباده من الطيبات ما يصلح به أبدانهم ونفوسهم ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى حرم على زبانيته ما أحل ، كالبخيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكما حرم على أتباعه أكل ما فيه روح أو ما اتخذ مما فيه روح ، ويسمون ذلك صياماً . الله تعالى يعلم أن الشياطين لهم شهوة وليس لهم عقل ، وأن

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

(١) سورة الحج آية : ٤٦ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

الملائكة جواهر مجردة من الشهوة ، فهم أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وأن الإنسان مزيج من الجسد والروح . فغذاء الروح من لطائف المعارف ، وفي رياض ذكر الله ، وغذاء البدن في الأكل والشرب من طيبات رزق الله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

ثم أمرهم تعالى بالشكر على نعمائه ، وهل الشكر إلا تسخير الإنسان كل عضو فيه في طاعة الله : فشكر العينين البكاء ، وشكر الأذنين الإصغاء ، وشكر اليدين العطاء ، وشكر اللسان الثناء ، وشكر الروح الخوف والرجاء ، وشكر القلب التسليم والرضاء . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرني ولا تنساني ، إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإن نسيتني كفرتني . . اقرءوا إن شئتم : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٢) . ولما للشكر من مكانة ، فقد جعله الله تعالى شرطاً في إخلاص العبادة له فقال : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . وهل العبادة إلا خضوع مصحوب بالتقديس والتعظيم ؟ ولا يكون ذلك إلا لله وحده .

ثم عدد الله بعد ذلك أنواعاً من المطعومات حرمها على عباده ، فقد حرم الميتة ، والميتة ما مات حتف أنفه ، أو ما لم يُدك ذكاة شرعية ، كما حرم الدم المسفوح . ومن أنواع الميتة : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . وقد أحل الله لنا ميتتين ودمين : السمك والجراد ، والكبد والطحال . كذلك حرم علينا لحم الخنزير لما فيه من الأضرار الصحية التي سببها فيما بعد . كذلك حرم علينا ما يتعلق بانحراف في العقيدة عند ذبحه ، كأن يذكر عليه اسم غير اسم الله .

وبعد ما بين الله هذه المحرمات من الأطعمة قال : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ ، أي دون بغى أو تجاوز للحدود ، بل كان مضطراً ألجأته الحاجة والضرورة التي بينها الله تعالى في قوله : ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ (٣) ، فمن اضطرته الحاجة في حال الضرورة إلى أكل شيء من هذه المطعومات ، فإن الله غفور لهذا العمل الذي أتاه المرء دون أن يكون منه بغى ولا عدوان ؛ فالضرورات تبيح المحظورات ، لكن يجب أن يُعلم أن الضرورة تقدر بقدرها بأن تكون بقدر الحاجة دون زيادة عليها ، والله تعالى رحيم بعباده ، لا يكلفهم بما لا يطيقون ، بل يشرع لهم من الدين ما اقتضته رحمته بهم ، وجعل اليسر من خصائص التشريع ، قال تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (٥) . وما حرم الله شيئاً إلا وفيه من وراء التحريم حكمة : ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ (٦) . ولنصغ إلى لسان العلم يحدثنا بتلك الحقائق ، فقد جاء في كتاب الغذاء والدواء في القرآن الكريم ما نصه : حرم القرآن الكريم لحكمة سامية أكل الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والذبح للأوثان . وورد

(١) سورة الأعراف آية : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٣) سورة المائدة آية : ٣ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٨٥ .

(٥) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٦) سورة الأنعام آية : ١٤٩ .

هذا التحريم في الآيات الآتية : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ ﴾ ^(١) ، ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فُسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وما حرم الله كل ذلك إلا لحكمة ما ولتجنب الإنسان الأضرار التي تنشأ عن أكلها ، وجميع أنواع اللحوم ما عدا لحم الخنزير حلال أكلها إذا ذبحت وذكيت بالطريقة المشروعة وذكر عليها اسم الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤) . وعلاوة على أن هذه أمور تعبدية ، يجب على المؤمن الحق أن يمثل لأوامر الله ونواهيه ويطيع جميع أوامره ، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك أسس ولبنات التغذية الصحية ، وكل هذه النواهي إنما كانت من المولى القدير لحكمة بالغة يدركها الإنسان كلما اتسعت مدارك علمه ، وأظهر له البحث والعلم ما في هذه الأمور من ضرر بالغ يتلف صحته ويودي بحياته ، فالله سبحانه وتعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث لصالح البشرية وسعادتها . ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ ﴾ ^(٥) . وقد يكون موت الحيوان نتيجة لشيخوخة أو مرض عضوي أو طفيل ، أو نتيجة لتسممه من مصدر خارجي ، ومن ثم يشتمل لحمه على مواد تؤذي من يأكله ، هذا فضلا عن أن الحيوان الذي يموت دون تذكية ينحسب فيه الدم ، وقد يمضي على موته وقت طويل لا يُستطاع تحديده فيتعرض جسمه للتحلل والفساد .

وعند موت الحيوانات بمرض ما ، يكون هذا المرض قد استنفد من الحيوان في مكافحة قواه الحيوية للتخلص منه ، ولما لم يستطع مات بعد أن اضطربت أعضاؤه بتأثير العوامل التي ولدت المرض ، كالجراثيم والسموم الناشئة من فساد أنسجة الحيوان أو قصور أجهزته الإفرازية كالكلبي للتخلص من السموم التي تتراكم بلحومها وأعضائها ، ولذلك كان هذا اللحم وتلك الأعضاء مصدرا للضرر بصحة آكليها ، وقد تكون الجراثيم مسببة المرض والوفاة في الميتة والتي تنتقل بدورها إلى الإنسان فتفتك به .

والدم : هو السائل الذي يتجول في جميع أجزاء الجسم ويقوم بوظائف فسيولوجية عديدة ، فيأخذ من أنسجة الجسم فضلاتها من سموم وغازات بعد أن يكون قد أوصل لهذه الأنسجة المواد الغذائية لتكوين الخلايا وبناء الجسم ، ويبدو الدم مفعما بالجراثيم في معظم أمراض الحيوان ، لأن الدم يعتبر مزرعة مناسبة لنمو كثير منها ، وبيئة صالحة لنمو الميكروبات ، وهو أسرع وسائل عدوى الأمراض ، ولذلك كان التغذي به يعرض الإنسان لانتقال الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان وهي عديدة ، وتنتقل عن طريق الدم

(٤) سورة الأنعام آية : ١٢١ .

(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(١) سورة المائدة آية : ٣ .

(٢) سورة النحل آية : ١١٥ .

(٣) سورة الأنعام آية : ١١٨ .

الموبوء والذي يعتبر مخزنا لعديد من الجراثيم الضارة . ويزيد من خطر استعمال الدم في الغذاء صعوبة اكتشاف أكثر الجراثيم والميكروبات التي تصيبه ، وهو بحكم عمله الحيوى يحمل فضلات السموم في الحيوانات المريضة ، ويحمل الدم بعض الإفرازات الداخلية لبعض الغدد ، وإذا زاد بعضها عن المعدل المناسب يسبب أعراضا سمية مختلفة .

• حيث إن الدم قد يخزن الميكروبات والسموم والإفرازات التي تجعل الدم خطيرا بنفسه ، كما تجعل اللحم عرضة للفساد والتعفن مما يؤثر في صحة آكله هذه اللحوم ؛ فقد كانت حكمة الله الرحيم بعباده أن حرّم أكله ، وأوجب التخلص منه بذبح الحيوان قبل استعمال لحومه للأكل ، لما في ذلك من محافظة على صحة الإنسان .

لحم الخنزير : الخنزير من الحيوانات التي تأكل القمامة والقاذورات والنفايات ، فهو جامع لمعان القبح والقذارة والرجس والنجاسة ، ويشتهر بطباع عارية من الحياء في تزاوجه ، بالإضافة إلى ما يتعرض له من إصابة بعدد كبير من الطفيليات التي تصيب الإنسان ، كذلك من الفيروسات مثل فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء والسببكتيات (اللبتوسيرا) الذي يسبب مرض « حمى العقل » ، وكذلك العديد من الحيوانات الأولية (البروتوزوا) مثل الزحار البلتيدي وبعض أنواع « التريبانوسوما » . والخنزير من العوامل الخازنة الإضافية لبعض الطفيليات . ويصاب الخنزير بأنواع عديدة من الديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس . وأهم هذه الطفيليات :

١ - الحيوان الأولي الهلبي المسمى « بالأنتيديوم كولاى » المسبب للزحار البلتيدي الذي يماثل الزحار الأميبي شدة وضراوة وضررا ، ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير ، ويكاد يكون مرضا مهينا لا يصيب سوى المشتغلين بتربية الخنزير وذبحها وبيع لحومها .

٢ - الوشائع الكبدية والمعوية في الشرق الأقصى وبخاصة وشيعة الأمعاء الكبيرة (فاسيولوس بوسكاى) الواسعة الانتشار في الصين ، ووشيعة الأمعاء الصغيرة (جاسترود سكويرس هينوفيس) التي تصيب أهالى البنغال وبورما ، ووشيعة الكبد الصينية (كلونوركس سينسز) المنتشرة في الصين واليابان وكوريا على الأخص . ويعتبر الخنزير العامل الخازن الرئيسى لهذه الطفيليات وبخاصة الدودتين الأوليين اللتين تنطلقان منه لتمضيا دورة حياتهما في عوائلهما الأخرى ، حتى تصيبا الإنسان ، ومن ثم فمقاومتها في الإنسان وحده لا تكفى ، حيث إن الخنزير (مخزن) رئيسى لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة في أنواع معينة من القواقع والأسماك ، وهى تسبب أعراضا شديدة والتهابا موضعيا ونزفا وتقرحا في جدران الأمعاء الدقيقة ، واضطرابات معوية وإسهالا مزمنا وأنيميا ، وقد تحدث الوفاة نتيجة للإجهاد العام وانحطاط شديد في القوى .

٣ - دودة لحم الخنزير الشريطية (شينياسوليوم) ، وهى تعيش في طورها البالغ في أمعاء الإنسان حيث قد يبلغ طولها أربعة أمتار أو أكثر من ذلك ، والدودة ذات رأس أصغر من رأس الدبوس ، وعنق

قصير ، تنمو منه قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعاً وتأخذ في النمو لتكون ذلك الشريط الطويل ، وكل أسلة كأنه حيوان قائم بذاته ، إذ توجد به أجهزة التناسل المذكورة والمؤنثة ، ولا تلبث عند تأنيث الشدفة الناضجة أن يمتلئ بآلاف البويضات حتى تصبح الشدفة مجرد كيس مثقل بذلك بيض كثير ينمو في كل واحدة منه جنين كروى ذو ست أشواك تشبه الخطاطيف ، ومن ثم تعرف البيضة بالكرات ذات الخطاطيف .

وتنفصل الشدف المثقلات عن الدودة وتخرج مع إبراز الإنسان المصاب ، وفي التربة الملوثة الرطبة تستطيع الشدفة أو ما فيها من بيض أن تبقى زمناً ليس بالقصير حتى يأتى خنزير رمام يأكل ما فى الأرض من نفايات ، فيبتلع معها شدفة أو بضع شدفات أو على الأقل بويضات ، فتعمل العصارات الهاضمة على أن تطلق الأجنة من محابسها ، فتشق طريقها بأشواكها مخترقة جدار القناة الهضمية حتى تصل إلى أوعية الدم أو اللمف ، فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر فى أنحاء شتى من جسم الخنزير حيث تنمو عضلاته ، وبخاصة اللسان والرقبة والكتف والبطن ، مكونة حويصلات أو مثانات كروية منتفخة معروفة باسم الديدان المثانية ، فى كل منها رأس يصلح لأن تنمو منه دودة شريطية كاملة ، ويحدث هذا عندما يأكل هذا اللحم المصاب طاعم غافل دون أن ينضجه نضجاً كافياً لقتل ما فيه من ديدان ، وعادة ما تنجح دودة واحدة فى سكنى أمعاء الشخص المصاب .

وفى هذه الدورة يقوم الخنزير بدور ما يسمى العائل الوسيط ، بينما يسمى الإنسان العائل النهائى ، وليس الخنزير هو العائل الوسيط الوحيد ، فقد تبتلع الكلاب والجمال والقردة بعض الديدان ، فتتم فى عضلاتها الحويصلات أو الديدان المثانية ، ولكن الخنزير يعتبر فى الواقع المصدر الوحيد ، أو يكاد ، لعدوى الإنسان . ويصاب الإنسان بدودة أخرى من نفس الجنس ، وهى دودة لحم البقر الشريطية (ساجيناتا) ، والعائل الوسيط لها ، كما هو ظاهر ، الأبقار والثيران . ولحم الخنزير المصاب يكون فى العادة أكثر إصابة من لحم البقر المصاب ، وقد يربو عددها على عشرة آلاف فى كيلو اللحم الواحد من الخنزير .

ودودة لحم البقر تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، وإن كانت أطول منها ، وعدد شدفاتها أكثر ، ودورة الحياة متشابهة فى الحالتين ؛ بيد أن الذى تنفرد به دودة لحم الخنزير دون دودة لحم البقر هو إمكان انعكاس الدورة انعكاساً جزئياً فيصبح الإنسان هو العائل الوسيط ، أى أنه يحل محل الخنزير فى هذه الدورة ، فيؤوى جسمه يرقات الدودة ، أى ديدانها المثانية ، وينشأ هنا الانعكاس الجزئى فى دورة حياة دودة لحم الخنزير من ابتلاع الإنسان بيض هذه الدودة إذا تلوث يده أو طعامه بشئ منها لسبب من الأسباب ، كما أن هذه العدوى قد تكون ذاتية ، أى أن يكون مصدر البيض المعوى هو الدودة التى يؤوىها الشخص نفسه فى أمعائه . وقد اتضح أن البيض الناضج أو الشدافات المثقلة بالبيض الناضج قد ترتد من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية إلى معدته ، وفى جميع هذه الأحوال يفسد البيض فى المعدة ، وتنطلق منه الأجنة ذوات الأشواك أو الخطاطيف الستة ، وتنطلق مع دورة الدم وتنتشر فى أجزاء الجسم لتستقر فى عضلاته مكونة ديدانا مثانية مثلما يحدث للخنزير مبتلع البيض . أما إذا وصل بيض دودة لحم البقر إلى معدة الإنسان فإنه لن

يترتب على ذلك شيء على الإطلاق ، من حيث إن الإنسان غير قابل لتكوين يرقاتها أو ديدانها المثانية في جسمه ، وهذا هو الفرق الرئيسى بين الدودتين ، وهو أس البلاء كله في الإصابة بدودة لحم الخنزير .

٤ - مرض الديدان المثانية : تبدأ الإصابة بهذا المرض بالبيض الذى تخرج منه الأجنة وتذهب إلى أى عضو من الجسم وبخاصة عضلات الأطراف واللسان والعنق ، وأحياناً الرئتين والقلب والعين أو النخاع الشوكى ، وتستقر وتولد ديداناً مثانية ، وعندما تستقر فى المخ تولد حالات من الصداع والشلل العضوى الجزئى واضطرابات بصرية ونفسية ، وأحياناً تتكلس الحويصلات متحولة إلى مادة حجرية .

٥ - الديدان الشعرية الحلزونية (تريكتيلا سبيراليس) : وأعراضها الخطيرة مترتبة على انتشار يرقاتها فى عضلات الجسم ، وأعراض الإصابة بها شديدة متنوعة ، منها الاضطرابات المعدية المعوية والحمى والآلام الروماتيزمية وصعوبة المضغ والتنفس وتحريك العينين والتهاب المخ والنخاع الشوكى والسجايى المحيطة بهما ، والأعراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك ، والتسمم والإجهاد العام والارتشاح والمضاعفات التنفسية ، وفى الإصابات القاتلة تحدث الوفاة بين الأسبوعين الرابع والسادس فى معظم الأحوال ، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الويل باستثناء المناطق القطبية . ومواطن انتشار المرض هى أوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . والمحاولات المضنية لتجنب هذا البلاء بترية الخنازير بطريقة صحية وفحص ذبائحها ومعالجة لحومها بوسائل باهظة التكاليف غير مجدية من الناحية العملية ، ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أمريكا بها ٣ أمثال عدد الإصابات فى العالم أجمع ، وأن متوسط نسب الإصابة فى ولاياتها المختلفة هو ١٦ ٪ ، مع الوثوق بأن هذا الرقم أقل كثيراً من الحقيقة ، وأن نسبة إصابة الخنازير تتراوح بين ٥ ، ٢٧ ٪ فى الولايات المختلفة .

٦ - مرض التريكتينا (تريكتينوسز) : كما هو الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعرية البالغة هى الخطيرة ، وإنما يرقاتها هى رأس البلاء ، حيث تخرج الديدان من حويصلاتها عندما يأكل الإنسان اللحم المصاب ، وتضع يرقاتها فى أى جزء من عضلات الجسم إلا عضلة القلب ، وتسبب أعراضاً مرضية شديدة تؤدى غالباً إلى الوفاة فى غضون أسابيع قليلة .

وبالإضافة إلى كل هذه الأمراض فإن دهن الخنزير مختلف اختلافاً تاماً فى درجة تشبعه عن الزيوت النباتية والدهون الحيوانية الأخرى ، ومن ثم فصلاحيته للغذاء موضع شك كبير بين العلماء ، بجانب أنه ليس سهل الهضم . وينصح الأستاذ دام أستاذ الكيمياء الحيوية الدنماركى ، والحاصل على جائزة نوبل ، بعدم المداومة على تناوله ، حيث إنه قد ثبت بالتجربة أنه من أهم أسباب تكوين حصى المرارة وانسداد قنواتها وتصلب الشرايين وبعض أمراض القلب الأخرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الفقهاء يعتبرون لفظ اللحم شاملاً للحم وللدهن جميعاً .

جزاء الذين يكتُمون الحق

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿الضلالة﴾ : هي العماية التي لا يمتد في الإنسان لمقصده ، والهدى : الشرائع التي أنزلها الله على لسان أنبيائه ، والشقاق : هو العداوة والتنازع ، وهو أثر الاختلاف ، وحقيقته أن يكون كل من الخصمين في شق ، أى جانب غير مافيه الآخر .

إن جنابة كتمان الحق جنابة لا تغفر ، وكاتم الحق كالساكت عنه شيطان أخرس ، وفي ما مضى من الآيات جاء الوعيد شديداً للذين يكتُمون ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (١) ، وهل اللعن إلا طرد من رحمة الله ؟ وهنا أضاف الله أحكاماً أخرى على الكائمين حيث قال سبحانه : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . ومن أشنع ما كتموه صفة النبي ﷺ التي ورد ذكرها في الكتب المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، فقد أنكروها وادعوا زوراً وبهتاناً عدم ورودها ، واشتروا الدنيا ومتاعها وزخارفها ثمناً لهذا الإنكار وإرضاء لرؤسائهم ، وباعوا الحق ، والدنيا مهما أقبلت فهي قليلة .

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الحياة كما شاهدها دول
من سره زمن ساءته أزمان

والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ؛ وكم من قبور تبني وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفع له علامات فلما علامات . الدنيا مهما أعطت فهي قليلة كما صورها النبي ﷺ في قوله : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء) (٢) ، والدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر .

هي الأيام لا تبقى عزيزا
وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم
وأشرق فارتقب يوماً أفوله

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر .

(١) سورة البقرة آية : ١٥٩ .

والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

فما من كاتب إلا ويفنى ويُبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴿^(١)﴾ . إن العلماء الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ابتغاء رضا الرؤساء مقابل رشوة خائنة ، هؤلاء مهملات أوتوا فإن الحق لا مساومة عليه ، ومهما أوتوا فإنه قليل ، وإن ما يأكلونه من الرشا إنما هو نار تُلظى في الدنيا ، لأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام دمر ؛ أما في الآخرة فإن الله عليهم غضبان لا يكلمهم ، لأنهم أعداؤه الألداء ، ولا يزيكهم ، أى لا يظهر نفوسهم ، لأن الشيطان عشش فيها ، وباض فيها الظلم ، وفرخ فيها السحت . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ * أى مؤلم موجه ؛ فأى خزي بعد هذا الخزي في الدنيا والآخرة : نار في البطون تسرى سريان النار في الخلفاء ، والسلم الزعاف في الأحشاء ، وغضب من الله يوم القيامة ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴿^(٢)﴾ . ما أقل عقل هؤلاء وما أشد غباءهم وما أخسر تجارتهم ، هؤلاء الذين اشتروا الضلالة العمياء والجهالة الجاهلاء وخبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء باعوا الهدى واشتروا الضلالة ، وباعوا المغفرة والرحمة والرضوان واشتروا العذاب ، فما أشد صبرهم على نار جهنم ، وما نارنا هذه بالنسبة لنار جهنم إلا جزء من سبعين جزءاً . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾^(٣)﴾ . فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر شوقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ؛ ولا تنظر للمعصية من حيث إنها معصية ، إنما انظر إليها نظرة ثاقبة وسل نفسك في حق من تعصى ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾^(٤)﴾ ، ﴿ فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾^(٥)﴾ ، ﴿ له دعوة الحق ﴾^(٦)﴾ ، ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾^(٧)﴾ ، ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾^(٨)﴾ ، ﴿ الحق من ربك ﴾^(٩)﴾ ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾^(١٠)﴾ ، ﴿ يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾^(١١)﴾ ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾^(١٢)﴾ ، ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾^(١٣)﴾ ، ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام

(١) سورة النساء الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

(٥) سورة يونس آية : ٣٢ .

(٦) سورة الرعد آية : ١٤ .

(٧) سورة سبأ آية : ٢٦ .

(٨) سورة الصافات آية : ٢٧ .

(٩) سورة البقرة آية : ١٤٧ .

(١٠) سورة الأنبياء آية : ١٨ .

(١١) سورة النور آية : ٢٥ .

(١٢) سورة الحج آية : ٦ ، وآية : ٦٢ ، وسورة لقمان آية : ٣٠ .

(١٣) سورة الأنعام آية : ٧٣ .

الغيوب ﴿١﴾ ، ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ ﴿٣﴾ .

فالذين اختلفوا في الكتاب ولم يردوا هذا الاختلاف إلى أصول الحق ، واختلفوا في عقائد الله وشرائعه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، والله تعالى يقول : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ﴿٤﴾ ، ويقول : ﴿ وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ ﴿٥﴾ ، ويقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾ ﴿٦﴾ ، ويقول : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ ﴿٧﴾ ؛ فقد أحلوا وحرموا واختلفوا فيما أنزل الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وغيروا وبدلوا بعدما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ؛ هؤلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وهم فى شقاق بعيد المدى ، وعداء ضارب فى الأعماق ، وخلاف ممتد الجذور ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متشعب المسالك يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الحمل . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

آية السبر

* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

المفردات : ﴿ البر ﴾ : لغة التوسع فى الخير ، وأصله من البر المقابل للبحر ، وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق . ﴿ قبل المشرق والمغرب ﴾ أى ناحيتهما ﴿ وآتى المال ﴾ أى أعطاه . والمسكين : هو الدائم السكون ، لأن الحاجة أسكنته والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه . ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أوبذى قرابة . والسائل من

(٥) سورة الشورى آية ١٠ .

(٦) سورة النحل آية : ٦٤ .

(٧) سورة النمل آية : ٧٦ .

(١) سورة سبأ آية : ٤٨ .

(٢) سورة سبأ آية : ٤٩ .

(٣) سورة النمل آية : ٧٩ .

(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .

أجلاته الحاجة إلى السؤال ، وتكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة يجب على السائل ألا يتعدها . ﴿ وفي الرقاب ﴾ أى فى تحرير الرقاب وعقها ، ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى أداها على أقوم وجه وأحسنه . والعهد : ما يلتزم به إنسان لآخر . و ﴿ البأساء ﴾ : من البؤس ، وهو الفقر والشدة ، ﴿ والضراء ﴾ : كل مايضر الإنسان من مرض أو فقد حبيب من أهل أو مال . ﴿ صدقوا ﴾ : أى فى دعوى الإيمان . ﴿ والتقوى ﴾ : هى الوقاية من سخط الله وغضبه بالبعد عن الآثام والذنوب .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية : اشتملت هذه الآية على جل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة ، كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ، قال : ثم سأله أيضاً فتلاها عليه ، ثم سأله فقال : (إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك) . وقال المسعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبى ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ حتى فرغ منها فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : (المؤمن إذا عمل حسنة سرتة ورجا ثوابها ، وإذا عمل سيئة أحرزته وخاف عقابها) . رواه ابن مردويه والله أعلم .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فانزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد هو طاعة الله عز وجل وامتنال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ، كما قال فى الأضاحى والهدايا : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ (١) ، وقال السيوطى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك ، وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله ، وقال مجاهد : ولكن البر ما ثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل . وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها . وقال الثورى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية . قال : هذه أنواع البر كلها ، وصدق ، رحمه الله ، من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة

الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ والكتاب ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعا : (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتحشى الفقر) . وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ، والثورى عن منصور عن زبيد عن عروة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتحشى الفقر . وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴿ ^(١) ، وقال تعالى : ﴿ لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ^(٣) . غط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له . وقوله : ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى الصدقة ، كما ثبت في الحديث : (الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك) . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز . ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات أبائهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن جوير عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي عن رسول الله ﷺ قال : (لا يتم بعد حلم) . ﴿ والمساكين ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلتهم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفظن له فيتصدق عليه) . ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً في طاعة ، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالوا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن بن الحسين بن علي قال قال رسول الله ﷺ : (للسائل حق وإن جاء على فرس) . ﴿ وفى الرقاب ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابهم ، وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى .

(١) سورة الإنسان الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٢ .

(٣) سورة الحشر الآية ٩ .

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبي حمزة عن الشعبي حدثني فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ : أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت : فتلا على ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ ، ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس ويحيى بن عبد الحميد كليهما عن شريك عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ : (فى المال حق سوى الزكاة) ثم قرأ : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ إلى قوله ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، وقوله : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمانينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضي . وقوله : ﴿ وآتى المال ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وقد خاب من دساها ﴿ ، وقول موسى لفرعون : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ وأهديك إلى ربك فتحشى ﴿ ، وقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم .

وقوله : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله : ﴿ الذين يوفون بعهدهم الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ، وعكس هذه الصفة النفاق ، كما صح فى الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) ، وفى الحديث الآخر : (وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) . وقوله : ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء ، ﴿ وحين البأس ﴾ أى فى حال القتال والتقاء الأعداء ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم . وإنما نصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم .

وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ ، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات^(١) .

كلمة فى عتق الرقاب

جاء فى كتابنا « رياض الجنة » تحت عنوان (الإسلام محرر البشرية) ما نصه : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٩ ط الشعب .

البشرية إليه . والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ، والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد وجعل منهم سادة أقوياء . لقد حاول أعداء الإسلام فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفاذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز ؛ ولو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

ويقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام قياساً على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفىل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم فى الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديماً وحديثاً ، وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال كفيفة بإقناع من يستمع إليها مسلماً كان أو غير مسلم ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، فلا امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير . إن الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخرهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ؛ وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإرسال عن الأسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة . لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإرسال بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن يحنث فى يمينه ومن يظهر من زوجته ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب ، ولم يبق

الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى أو ببذل التعويض الذى تعرضه الدول الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدول الإسلامية وهى تتولى صرف الزكاة ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق فهى المسئولة عن هذا التقصير وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الرقاب منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة لفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون . ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنعاً أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان ؟ إن صنع الإسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندرى كيف يكون ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن تستقر عليه . على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية ، كما تسميها ؛ فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح . إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدي الأرقاء ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غية المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت . وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى بعد طول التعثر لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ولكنها كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال ، والفارق الأكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذلك الفارق الذي تخصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الإسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكيين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزدوا في البلاد الإسلامية بعد ثلاثة عشر قرناً على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود في الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد من هذا الفارق في العدد : فارق المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الإسلامية والمعاملة التي لقيها إخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاماً من الأسود الذي يرفع هذه الحواجز بينه وبين ساداته البيض .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التي تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التي يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهي هذا البحث التحليلي للدعاية المغرضة التي يشنها سماسة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذي عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هي في الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذي عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذي أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق في هذه الدنيا كأنه بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبدها بحكمة معروفة فيه . . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادي الذي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعي ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه : (في الدين والأخلاق القومية) ما نصه : محمد محر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، وعن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار . وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربة العبودية ؟ وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله ؟

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ وأن تعجب لشيء فاعجب هؤلاء الذين يلصقون هذه التهم بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوا ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاعتصاب ؛ وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب . فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصدقه فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ﴿ . وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيع له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة والردائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج . كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبي الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتأكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تتدلج إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ريثما يتيسر لهم الخروج منها . . وسأفسر ذلك .

ويعضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

أما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة ، فذلك هو الدواء الوقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه

بعد أن كانوا مهتدين به من كل جانب ؛ فالיום لا الخطف ولا البيع والشراء ولا التغلب في المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسيرة ولا العجز عن وفاء الدين ولا السرقة ولا القتل ، لم يعد شيء من ذلك كله منذ ظهر الإسلام يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الإسلام بتحسين أحوال أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلاهم ذرية تستعيد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ في العلاج الشافي من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . غير أن هاهنا شبهة تجول في الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ، وهي التي يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذا الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟ والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية .

فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً وهو إطلاق سراحه ببذل أو بغير بدل ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ ، كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطيرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة (مجرمي الحرب) . يبقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كمنظرة إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير فإنما كان ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء الخطر وكسراً لشوكته وشوكة قومه ، إنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي وإنما يتخذة مؤقتاً وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ويلج في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرر الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحتها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه

الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يجرّض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴿ ، وقال عليه الصلاة والسلام : (من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار) .

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مكرراً في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث هو مفتاح : قانون الكفارات ، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ، كالحنث في اليمين والفطر في رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : كفارة الإساءة : التى تقع من السيد في حق العبد نفسه ، وفي ذلك يقول رسول الرحمة صلوات الله وسلامه عليه : (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه) .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن من حكمه عند أكثر الأئمة أن يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم . لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق بين هذين الطرفين ، نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة في فترة الانتظار .

نعم . . لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدمين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت إيديكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

صدقت يابى الرحمة صلوات الله وسلامه عليك .

هذا هو موقف الإسلام من الرق .

(١) منع لإنشائه وابتدائه .

(٢) عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

(٣) عطف سابغ عليه في أثناء محنته ويليته .

أما بعد .. فهل من منصف يقولها ، أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام .

وهكذا ينتهي هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .

وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق ومعه الحزم والعزم كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله ..

داويت مثدأ وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

أبعد كل هذه الوصايا البشرية وإحاطتها بالكرامة يجرو أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ماهومنه

براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وهذه المساواة العامة فى الإنسانية تتحطم معها فوارق الانحراف البشرى والجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرية والظلام الإنسانى ، فوارق الجاهلية الفتاكة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع ، وهو تميز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق فى قليل أو كثير من طبيعة الخلق والولادة والمآكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

القصاص فى الإسلام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ كتب ﴾ فرض ولزم عند مطالبة صاحب الحق به .

﴿ القصاص ﴾ : لغة يفيد العدل والمساواة ، ومنه سمي القصاص مقصاً لتعادل جانبيه ، والقصة قصة

لأن الحكاية تساوى المحكى ، وشرعا : أن يقتل القاتل لأنه مساو للمقتول في نظر الشارع :

﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ : أى فمطالبته للدية بالمعروف بلا تعسف .

﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ : أى أداء بلا ملاحظة ولا بخس حق .

﴿ اعتدى ﴾ : أى انتقم من القاتل بعد العفو .

﴿ الألباب ﴾ : واحدها لب ، وهو العقل .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين حيين من العرب دماء فى الجاهلية ، وكان لأحدهما طول (شرف) على الآخر ، فأقسموا ليقتلن الحر فيكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ فنزلت الآية وأمرهم أن يتبارعوا (يتساووا) .

وقد كان القصاص على القتل أمرا محتوماً عند اليهود ، كما فى الفصل التاسع عشر من سفر الخروج ، وكانت الدية أمراً مقضياً عند النصارى وكانت العرب تتحكم فى ذلك بحسب قوة القبائل وضعفها ، فكثيرا ما كانت القبيلة تأبى أن تقتص من القاتل ، بل تقتص من رئيس القبيلة وربما طلبوا بالواحد عشرة ، وبالأنتى ذكراً ، وبالعبد حراً فإن أجيبوا فيها ونعمت وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة ، وهذا ظلم عظيم وقسوة شديدة . وقتل القاتل فحسب وهو ما جاء فى التوراة إصلاح لهذا الظلم .

ولكن قد تقع أحيانا بعض جرائم يكون الحكم فيها قتل القاتل ضاراً ، وتركه لا مفسدة فيه ، كأن يقتل المرء أخاه أو أحد أقاربه لغضب فجائى اضطره إلى قتله ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت ، فإن قتل يفقدون بفقدته النصير والمعين ، بل قد يكون فى قتل القاتل مفسد ومضار ، وإن كان القاتل أجنبياً عن المقتول فيكون من الخير لوليه عدم قتله دفعا للضرر أو استفادة للدية ؛ ففى أمثال هذه الحالات يجوز لأولياء المقتول العفو مع أخذ الدية أو تركها . وإذا ارتفعت عاطفة الرحمة لدى شعب أو بلد صار يستنكر القتل ويرى أن العفو أفضل فالأمر موكل إليهم والشرعية ترغبهم فيه ، وهذا هو الإصلاح الكامل الذى جاء به الكتاب الكريم فى القصاص . ومن أحكام الشرعية الغراء أنه لا يقتل الوالد بولده ، لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الاستمرار فى مثل هذه الجناية ، والوالد بفطرته محمول على الشفقة على ولده حتى ليبدل ماله وروحه فى سبيله ، وقلما يقسو عليه ، ولكن كثيرا ما يقسو الولد على والده وللحاكم أن يعزر ولده بما يراه زاجراً لأمثاله ومريياً لهم .

إن جناية القتل من الجنايات الكبرى فى الإسلام ، وهى إحدى السبع الموبقات ، فهى فى سلك واحد مع الشرك والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

ولقد وقف الرسول ﷺ ذات يوم يقول للكعبة المشرفة : (ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفسى بيده إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك)^(١) ، وقد بين الهادى البشير حرمة المؤمن فقال : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله)^(٢) . وفى خطبة الوداع قال

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣١ ط وزارة الأوقاف . (٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

في كلمات موجزة : (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)^(١) .

إن الإسلام يأمر بالحفاظ على هذه الكليات الخمس : الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، فلا اعتداء على العقل بالمسكرات ولا اعتداء على العرض بما يحدشه ولو بكلمة ، ولا اعتداء على المال بالسرقة وما شابهها . قال النبي ﷺ : (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله) وحرمة الوفاء في الإسلام وصيانة النفوس حكمت الشريعة الغراء أن الجماعة تقتل في الواحد . قال عمر رضي الله عنه . في شأن ثمانية من الرجال قد اشتركوا في قتل واحد ، وكان من صنعاء اليمن ، قال كلمته المشهورة : (لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً) . لذلك اقتضت حكمة الله أن ينفي تلك الجناية عن عباد الرحمن ، وأن يترههم عنها . قال عز من قائل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾^(٢) . وجاء في بيان هذه الجناية ومدى الوعيد عليها قوله جل شأنه : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾^(٣) وقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾^(٤) أى لا يقتل أكثر من القاتل . وإذا جرى بالقاتل ليقص منه فلا يمثل به قبل القصاص ولا بعده ، لأن لفظ القصاص ينبيء بالمساواة . ولما كانت الشريعة الإسلامية تنزيلاً من حكيم حميد ، فقد شملت الخير كله ، فلم توجب القصاص إذا عفا أولياء القتيل عن القاتل . ففي الإسلام جانبان : جانب القصاص وجانب العفو ، قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾^(٥) ، وقال في آية أخرى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾^(٦) وقال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾^(٧) وقد ورد أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله : من كان أجره على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح .

فإذا ما عفا أولياء الدم عن القاتل ورضوا بالدية أو تصدقوا بها ، فقد سقط القصاص عن القاتل ، فإذا مارضوا بالدية فعليهم أن يتبعوا القاتل مطالبين بالدية المعروف دون تعسف أو مغالاة ، وعلى القاتل أن يؤديها بإحسان دون ماطلة أو تسويق .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه ﴾ فالأخوة في الإسلام أقوى رابطة تؤكد أواصر المحبة ووشائج المودة ، ذلك العفو تخفيف من ربكم ورحمة ، تخفيف عن القاتل ورحمة بأولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ، فقد يكونون في حاجة إلى المال ، فإذا عفوا من غير دية فإن رحمة الله تشملهم في الدنيا والآخرة :

(٥) سورة الاسراء آية : ٣٣ .

(٦) سورة الشورى آية : ٣٩ .

(٧) سورة الشورى آية : ٣٧ .

(٨) سورة الشورى الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

(١) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣٢ ط وزارة الأوقاف .

(٣) سورة الفرقان الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) سورة النساء آية : ٩٣ .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ : قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ : هذا خطاب موجه إلى أولياء الدم إذا اعتدوا على القاتل بعد العفو ، إذ أن كلمة الحردين عليه ، وما دام العفو قد حدث فإن الاعتداء بعد ذلك ظلم يوقع صاحبه في مسئولية خطيرة هي العذاب الأليم . ثم بين الله جلّت حكمته الحكمة من القصاص فقال : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ : أى ولكم يا أولى العقول فيما شرعت من القصاص حياة وأى حياة ، لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع ويتزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله ، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس . ﴿ لعلكم تتقون ﴾ : أى لعلكم تتزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه .

وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ باللغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم « القتل أنفى للقتل » ولكن لورود الحكمة في القرآن فضل من ناحية حسن البيان وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر ، فانظر إلى العبارتين ، فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص ، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل ، والمثل العربى جعل سبب الحياة القتل ومن القتل ما يكون ظلماً . فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً . والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي ، والمثل كرر فيه لفظ القتل ، ففيه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية . ومن الفروق الدقيقة بينها أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة ، والمثل جعل القتل سبباً لنفى القتل وهو لا يستلزم الحياة . . . الخ .

وقد عد العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية ، وقد ذكرها السيوطى في الإتقان ، فارجع إليه تجد فيه ما يشفى الغليل .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (١) .

الوصية عند الموت

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جُنْفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المفردات ﴿ كتب ﴾ : أى فرض . و ﴿ خيراً ﴾ : أى مالا كثيراً .
 ﴿ الوصية ﴾ : الإيصاء والتوصية ، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل .
 ﴿ بالمعروف ﴾ : مالا يستنكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرتة التى تضر الورثة ، وتقدر
 الكثرة باعتبار الصرف ، ففى القرى غيرها فى الأمصار ، فهى تقاس بحسب حال الشخص لدى الناس ،
 وإنما يكون ذلك بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين .
 ﴿ خاف ﴾ : أى علم . (والجنف) : الخطأ ، و(الإثم) تعمد الإجحاف والظلم .

أوجب الله تبارك وتعالى الوصية عندما تأتى الأمارات على دنو الأجل وقبل أن يدخل الإنسان فى مرحلة
 الغرغرة ، وذلك ليكون الختام طيباً « وإنما الأعمال بالخواتيم » . وهذه الوصية تكون للوالدين ، كما تكون
 للأقربين دون ظلم أو حيف ، بمعنى أن تكون قائمة على العدل والمساواة ، وألا تزيد على الثلث ، وهذا على
 رأى من قال بالوصية الواجبة ، وذلك بأن يموت الابن أو البنت فى حياة المورث ويتركان أولاداً ، فإن من قال
 بالوصية الواجبة من الفقهاء يرى أن الأولاد لهم الحق فى ميراث الجد الذى مات ابنه أو ابنته فى حياته عدلاً
 وقسطاً ، وذلك بافتراض الابن أو البنت حين يأخذ أولادهما نصيبهما ، بحيث لا يزيد عن الثلث . وقد
 جاء فى تفسير هذه الآيات مانصه للشيخ المراغى : (كان الكلام فى الآية السابقة فى القصاص فى القتل وهو
 ضرب من ضروب الموت ، مناسب أن يذكر ما يطلب ممن يحضره الموت من الوصية ؛ والخطاب عام موجه
 إلى الناس كلهم بأن يوصوا بشيء من الخير ولا سيما فى حال حضور أسباب الموت وظهور أماراته لتكون خاتمة
 أعمالهم خيراً . وقد تقدم أن قلنا إن الأمة متكافلة يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد ، وقيام الأفراد
 بحقوق الشريعة لا يتم إلا بالتعاون والتكافل والائتمار بأوامرها والتناهى عن نواهيها ، فإن لم يأتمر البعض
 وجب على الباقيين حمله على ذلك) .

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ : أى
 فرض عليكم معشر المؤمنين إذا حضرت أسباب الموت وعلمه والأمراض المخوفة ، وتركتكم مالا كثيراً
 لورثتكم ، أن توصوا للوالدين وذوى القربى بشيء من هذا الخير ، لا يعد فى نظر الناس قليلاً ولا كثيراً ،
 وقد قدره بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين وجمهرة العلماء وأئمة السلف وروى عن بعض الصحابة أن
 هذه الوصية إنما تكون لهم ما لم يكونوا وارثين ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله أعطى كل ذى حق
 حقه ألا لا وصية لوارث)^(١) ، وجوز بعض الأئمة للمورث بأن يخص بها بعض من يراه أحوج من الورثة ،
 كأن يكون بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً عاجزاً عن الكسب ، فمن الخير والمصلحة ألا يسوى بين الغنى والفقير
 والقادر على الكسب ومن يعجز عنه . وإذا أسلم الكافر وحضرته الوفاة والوالد كافران فله أن يوصى لهما بما
 يؤلف به قلوبهما ، وقد أوصى الله بحسن معاملتهما وإن كانا كافرين كما قال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه
 حسناً وإن جاهداك لتشرك بي مالميس لك به علم فلا تطعهما ﴾^(٢) .

﴿ حقا على المتقين ﴾ : أى أوجب ذلك حقا على المتقين إلى المؤمنين بكتابتهم .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٨ .

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ : أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى ، فإنما إثم التبديل على من بدل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه .

والتغيير إما بإنكار الوصية أو بالنقص فيها بعد أن علمها حق العلم .

﴿ إن الله سميع عليم ﴾ : أى إنه سميع لأقوال المبدلين والموصين ويعلم نياتهم ويجازيهم وفقها .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد للمبدلين والوعد بالخير للموصين .

وهذه الوصية واجبة عند بعض علماء السلف كما ترشد إلى ذلك هذه الآية والحديث : « ماحق امرئ مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يوصى إلا ووصيته عند رأسه ^(١) » . وعند جمهور العلماء مندوب ثم استثنى من إثم التبديل حالة ما إذا كان للإصلاح وإزالة التنازع ، فقال ﴿ فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ أى اذا خرج الموصى فى وصيته عن نهج الشرع والعدل خطأ أو عمداً فتنازع الموصى لهم فى المال أو تنازعوا مع الورثة فتوسط بينهم من يعلم بذلك وأصلح تبديل هذا الجحف والحيف فلا إثم عليه فى هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل بحق وإزالة مفسدة بمصلحة ، ولما يكون إصلاح إلا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يروونه حقاً لهم .

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ : أى فمن خالف وبدل للإصلاح ، فالله يغفر له ويثيبه على عمله . ا . هـ .

التركة وكيف تقسم :

لما كنا بصدد الحديث عن الموت كان لزاماً علينا أن نذكر هنا ما يفعل بتركة الميت ، وهاكم بيان ذلك كما وضحه الفقهاء :

تعريفها : التركة هى ما يتركه الميت من الأموال مطلقاً ، ويقرر هذا ابن حزم فيقول : إن الله أوجب الميراث فيما يخلفه الإنسان بعد موته من مال ، لا فيما ليس بمال ؛ وأما الحقوق فلا يورث منها إلا ما كان تابعاً للمال ، أوفى معنى المال ، مثل حقوق الارتفاق والتعل ، وحق البقاء فى الأرض المحتكرة للبناء ، والغرس ، وهى عند المالكية والشافعية والحنابلة تشمل جميع ما يتركه الميت من أموال وحقوق سواء أكانت الحقوق مالية أم غير مالية .

الحقوق المتعلقة بالتركة : وهى أربعة ، وكلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

(١) الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

(٢) الحق الثانى : قضاء ديونه ، فابن حزم والشافعية يقدمون ديون الله كالزكاة والكفارات على ديون العباد ، والحنفية يسقطون ديون الله بالموت ، فلا يلزم الورثة أدائها إلا إذا تبرعوا بها أو أوصى الميت بأدائها ، وفى حالة الإيصاء بها تصير كالوصية يخرجها الوارث أو الوصى من ثلث الفاضل بعد التجهيز وبعد

دين العباد ، هذا إذا كان له وارث ، فإذا لم يكن له وارث فتخرج من الكل ، والحنابلة يسوون بينها كما نجد أنهم جميعاً اتفقوا على أن ديون العباد العينية مقدمة على ديونهم المطلقة .

(٣) الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقي بعد قضاء الدين .

(٤) الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الوصية : ولما كانت الآية التي بين أيدينا هي آية الوصية فقد ناسب ذلك أن نذكر هنا ما قاله الفقهاء في كل شيء يتعلق بالوصية فنقول وبالله توفيق :

تعريفها : الوصية مأخوذة من وصيت الشيء أوصيه إذا أوصلته ، فالموصى وصل ما كان في حياته بعد

موته

وهي في الشرع : هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة ، على أن يملك الموصى له الهبة بعد الموصى . وعرفها بعضهم : بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع ، ومن هذا التعريف تبين الفرق بين الهبة والوصية ، فالتمليك المستفاد من الهبة يثبت في الحال ، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلا بعد الموت ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالهبة لا تكون إلا بالعين ، والوصية تكون بالعين وبالدين وبالمنفعة .

مشروعيتها : وهي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع .

ففي الكتاب يقول سبحانه : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾^(١) ويقول عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾^(٢) .

وجاء في السنة الأحاديث الآتية :

(١) روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده ﴾^(٣) ، قال ابن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصية . . ومعنى الحديث أن الحزم هو هذا فقد يفاجئه الموت .

قال الشافعى : ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده إذا كان له شيء يريد أن يوصى فيه لأنه لا يدري متى تأتبه منيته فتحول بينه وبين ما يريد من ذلك .

(٢) وروى أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليعمل المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار) ، ثم قرأ أبو

(١) سورة النساء آية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٦ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٦ ط وزارة الأوقاف .

هريرة : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾ (١) .

(٣) وروى ابن ماجه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له) (٢) .
وقد أجمعت الأمة على مشروعية الوصية .

وصية الصحابة : لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يوص لأنه لم يترك ما يوصى به .
وروى البخارى عن ابن أبى أوفى أنه ﷺ لم يوص . قال العلماء فى تعليل ذلك : لأنه لم يترك بعده مالاً ، وأما الأرض فقد كان سبلاًها ، وأما السلاح والبغلة فقد أخبر أنها لا تورث . ذكره النووى . أما الصحابة فقد كانوا يوصون ببعض أموالهم تقرباً إلى الله ، وكانت لهم وصية مكتوبة لمن بعدهم من الورثة .
أخرج عبد الرزاق بسند صحيح أن أنساً رضى الله عنه قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان بن فلان أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنه ويعقوب : ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) .

حكمها : جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تصدق عليكم بثلاث أموالكم زيادة فى أعمالكم فضعوها حيث شئتم أو حيث أحببتم) (٤) . أفاد هذا الحديث أن الوصية قرينة تقترب بها الإنسان إلى الله عز وجل فى آخر حياته كى تزداد حسناته أو يتدارك بها مافاتة ، ولما فيها من البر بالناس والمواساة لهم .

حكمها : أما حكمها ، أى وصفها الشرعى من حيث كونها مطلوبة الفعل أو الترك ، فقد اختلف العلماء فيه إلى عدة آراء نجم لها فيما يلى :-

الرأى الأول : يرى أن الوصية واجبة على كل من ترك مالاً ، سواء أكان المال قليلاً أم كثيراً . قاله الزهرى وأبو مجلز ، وهذا رأى ابن حزم ، وروى الوجوب عن ابن عمر وطلحة والزبير وعبد الله بن أبى أوفى وطلحة بن مطرف وطاوس والشعبى قال : وهو قول أبى سليمان وجميع أصحابنا ، واستدلوا بقول الله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

الرأى الثانى : يرى أنها تجب للوالدين والأقربين الذين لا يرثون الميت ، وهذا مذهب مسروق وإياس وقتادة وابن جرير والزهرى .

(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٢٦١ ط دار الفكر .

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .

الرأى الثالث : وهو قول الأئمة الأربعة والزيدية ، أنها ليست فرضاً على كل من ترك مالا كما فى الرأى الأول ، ولا فرضاً للوالدين والأقربين غير الوارثين كما هو الرأى الثانى ، وإنما يختلف حكمها باختلاف الأحوال ، فقد تكون واجبة أو مندوبة أو محرمة أو مكروهة أو مباحة .

وجوبها : فتجب فى حالة ما إذا كان على الإنسان حق شرعى يخشى أن يضيع إن لم يوص به كوديعة ودين لله أو لآدمى ، مثل أن يكون عليه زكاة لم يؤدها ، أو حج لم يقم به ، أو تكون عنده أمانة يجب عليه أن يخرج منها ، أو يكون عليه دين لا يعلمه غيره ، أو يكون عنده وديعة بغير إسهاد .

استحبها : وتندب فى القربات وللأقرباء وللصالحين من الناس .

حرمها : وتحرم إذا كان فيها إضرار لورثة ؛ وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل لعمل يعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل لعمل يعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة)^(١) .

روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح قال ابن عباس : (الإضرار فى الوصية من الكبائر) ثم تلا (وتلك حدود الله)^(٢) رواه النسائى . ومثل هذه الوصية التى يقصد بها الإضرار باطله ، ولو كانت دون الثلث ، وتحرم كذلك إذا أوصى بخمر أو بناء كنيسة أو دار للهو .

كراهيتها : وتكره إذا كان الموصى قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه . كما تكره لأهل الفسق متى علم أو غلب ظنه أنهم سيستعينون بها على الفسق والفجور ، فإذا علم الموصى ، أو غلب على ظنه ، أن الموصى له سيستعين بها على الطاعة ، فإنها تكون مندوبة .

إباحتها : وتباح إذا كانت لغنى سواء أكان الموصى له قريباً أم بعيداً .

ركنها : وركنها الإيجاب من الموصى . والإيجاب يكون بكل لفظ يصدر منه متى كان هذا اللفظ دالاً على التملك المضاف إلى ما بعد الموت بغير عوض مثل : أوصيت لفلان بكذا بعد موتى ، أو وهبت له ذلك أو ملكته بعدى .

وكما تنعقد الوصية بالعبارة تنعقد كذلك بالإشارة المفهمة متى كان الموصى عاجزاً عن النطق كما يصح عقدها بالكتابة .

ومتى كانت الوصية غير معينة بأن كانت للمساجد أو للملاجىء أو المدارس أو المستشفيات ، فإنها لا تحتاج إلى قبول ، بل تتم بالإيجاب وحده لأنها فى هذه الحال تكون صدقة .

أما إذا كانت الوصية لمعين بالشخص ، فإنها تفتقر إلى قبول الموصى له بعد الموت أو قبول وليه إن كان

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف . (٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

الموصى له غير رشيد ، فإن قبلها تمت وإن ردها بعد الموت بطلت الوصية وبقيت على ملك ورثة الموصى .
والوصية من العقود الجائزة التي يصح فيها أن يغيرها أو يرجع عما شاء منها أو يرجع عما أوصى به .
والرجوع يكون صراحة بالقول ، كأن يقول : رجعت عن الوصية ويكون دلاله بالفعل مثل تصرفه في الموصى به تصرفاً يخرج به عن ملكه ، مثل أن يبيعه .

متى تستحق الوصية : ولا تستحق الوصية للموصى له إلا بعد موت الموصى وبعد قضاء الديون ، فإذا استغرقت الديون التركة كلها فليس للموصى له شيء لقول الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ .

الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط : وتصح الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط ، أو المقترنة به ، متى كان الشرط صحيحاً ، والشرط الصحيح هو ما كان فيه مصلحة للموصى أو الموصى له أو لغيرهما ولم يكن منهيّاً عنه ولا منافياً لمقاصد الشريعة ، ومتى كان الشرط صحيحاً وجبت مراعاته ما دامت المصلحة منه قائمة ، فإن زالت المصلحة المقصودة منه أو كان غير صحيح لم تجب مراعاته .

شروطها : الوصية تقتضى موصياً وموصى له وموصى به ، ولكل شروط نذكرها فيما يلي :-

شروط الموصى : يشترط في الموصى أن يكون أهلاً للتبرع بأن يكون كامل الأهلية ، وكامل الأهلية بالعقل والبلوغ والحرية والاختيار وعدم الحجر لسفه أو غفلة .

فإن كان الموصى ناقص الأهلية بأن كان صغيراً أو مجنوناً أو عبداً أو مكرهاً أو محجوراً عليه ، فإن وصيته لا تصح .

ويستثنى من ذلك أمران :- (١) وصية الصغير المميز الخاصة بأمر تجهيزه ودفنه ، ما دامت في حدود المصلحة .

(٢) وصية المحجور عليه للسفه في وجه من وجوه الخير ، مثل تعليم القرآن وبناء المساجد وإقامة المستشفيات . ثم إن كان له وارث وأجازها الورثة نفذت من كل ماله ، وكذا إذا لم يكن له وارث أصلاً .
وأما إن كان له ورثة ولم يجيزوا هذه الوصية فإنها تنفذ من ثلث ماله فقط ، هذا مذهب الأحناف ، وخالف ذلك الإمام مالك فأجاز وصية ضعيف العقل والصغير الذي يعقل معنى التقرب إلى الله تعالى قال : (الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف في عقله والسفيه والمصاب الذي يفقد أحيانا ، تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به ، وكذلك الصبي الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول ، فوصيته جائزة ماضية) .

وقد أجاز القانون في مصر وصية السفيه وذوى الغفلة إذا أذنت بها الجهة القضائية المختصة .

شروط الموصى له : يشترط في الموصى له الشروط الآتية :-

(١) ألا يكون وارثاً للموصى . روى أصحاب المغازي أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح :

(لا وصية لوارث)^(١) . رواه احمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

وهذا الحديث وإن كان حديث آحاد ، فإن العلماء تلقته بالقبول وأجمعت العامة على القول به .

«وأما آية ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً ، الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقا على المتقين ﴾ . فقد قال الجمهور من العلماء بنسخها .

وقال الشافعى : إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية الموارث ، فاحتمل أن تكون آية الوصية باقية مع الميراث ، واحتمل أن تكون الموارث ناسخة للوصايا . وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين فوجدوه في سنة رسول الله ﷺ . فقد روى عنه أصحاب المغازى أنه قال عام الفتح : (لا وصية لوارث)^(١) . ا . هـ . واتفقوا على اعتبار كون الموصى له وارثاً يوم الموت حتى لو أوصى لأخيه الوارث ، حيث لا يكون للموصى ابن ثم ولد له ابن قبل موته صحت الوصية للأخ الذكر ، ولو أوصى لأخيه وله ابن فمات الابن قبل موت الموصى فهي وصية لوارث .

(٢) ومذهب الأحناف أن الموصى له إذا كان معيناً يشترط لصحة الوصية له : أن يكون موجوداً وقت الوصية تحقيقاً أو تقديرًا ، أى يكون موجوداً بالفعل وقت الوصية ، أو يكون مقدراً وجوده في أثنائها ، كما إذا أوصى لحمل فلانة وكان الحمل موجوداً وقت إيجاب الوصية .

أما إذا لم يكن الموصى له معيناً بالشخص ، فيشترط أن يكون موجوداً وقت موت الموصى تحقيقاً أو تقديرًا .

فإذا قال الموصى : أوصيت بدارى لأولاد فلان ، ولم يعين هؤلاء الأولاد ثم مات ولم يرجع عن الوصية ، فإن الدار تكون مملوكة للأولاد الموجودين وقت موت الموصى سواء منهم الموجود حقيقة أو تقديرًا ، كالحمل ، ولو لم يكونوا موجودين وقت إيجاب الوصية ويتحقق من وجود الحمل وقت الوصية أو وقت موت الموصى متى ولد لأقل من ستة أشهر من وقت الوصية ، أو من وقت موت الموصى . وقال الجمهور من العلماء : إن من أوصى أن يفرق ثلث ماله حيث أرى الله الوصى إنها تصح وصيته ، ويفرقه الوصى في سبيل الخير ولا يأكل منه شيئاً ولا يعطى منه وارثاً للميت .

وخالف في ذلك أبو ثور ، أفاده الشوكانى في نيل الأوطار .

(٣) ويشترط ألا يقتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً ، فإذا قتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً بطلت الوصية له ، لأن من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وهذا هو مذهب أبى يوسف .

وقال أبو حنيفة ومحمد : لا تبطل الوصية ، وتتوقف على إجازة الورثة .

شروط الموصى به : يشترط في الموصى به أن يكون بعد موت الموصى قابلاً للتملك بأى سبب من أسباب الملك ، فتصح الوصية بكل مال متقوم من الأعيان ، ومن المنافع وتصح الوصية بما يثمره شجره وبما

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

في بطن بقرته ، لأنه يملك بالإرث ، مما دام محققاً وقت موت الموصى استحققه الموصى له .

وهذا بخلاف ما إذا أوصى بمعدوم .

وتصح الوصية بالدين وبالمنافع كالسكنى والوصية بالخلو ، ولا تصح بما ليس بمال ، كالميتة ، وما ليس متقوماً في حق العاقدين كالخمر للمسلمين .

مقدار المال الذي تستحب الوصية فيه

قال ابن عبد البر : اختلف السلف في مقدار المال الذي تستحب فيه الوصية أو يجب عند من أوجبها ، فروى عن علي أنه قال ستمائة درهم أو سبعمائة درهم ليس بمال فيه وصية . وروى عنه ألف درهم قال فيه وصية .

وقال ابن عباس : لا وصية في ثمانمائة درهم .

وقالت عائشة في امرأة لها أربعة من الولد ولها ثلاثة آلاف درهم : « لا وصية في مالها » . وقال إبراهيم النخعي : ألف درهم إلى خمسمائة درهم .

وقال قتادة في قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ ألفاً فما فوقها . وعن علي : من ترك مالا يسيراً فليدعه لورثته فهو أفضل . وعن عائشة فيمن ترك ثمانمائة درهم : لم يترك خيراً فلا يوصى ﴿ اهـ .

الوصية بالثلث : وتجوز الوصية بالثلث ولا تجوز الزيادة عليه ، والأولى أن ينقص عنه ، وقد استقر الإجماع على ذلك .

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها ، قال : يرحم الله ابن عفراء . قلت يارسول الله أوصى بمالي كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر (النصف) ؟ قال : لا . قلت : -الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تدع (تترك) ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة (فقراء) يتكففون الناس « يبسطون للسؤال أكفهم » في أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى في (فم) امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك أناس ويضر بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة^(١) (كان هذا قبل أن يولد له الذكور . وقد ولد له بعد ذلك أربعة بنين ، ذكره الواقدي ، وقيل : أكثر من عشرة ومن البنات اثنتا عشرة بنتاً)

الثلث يحسب من جميع المال :

ذهب جمهور العلماء إلى أن الثلث يحسب من جميع المال الذي تركه الموصى . وقال مالك : يحسب الثلث مما علمه الموصى دون ما خفى عليه أو تجدد له ولم يعلم به .

وهل المعتبر الثلث حال الوصية أو عند الموت ؟ ذهب مالك والنخعي وعمر بن عبد العزيز إلى أن المعتبر ثلث التركة عند الوصية .

(١) صحيح البخاري ٤ ص ٦٧ ط الشعب

وذهب أبو حنيفة وأحمد والأصح من قولي الشافعية إلى اعتبار الثلث حال الموت . وهو قول على وبعض التابعين .

الوصية بأكثر من الثلث :

الموصى إما أن يكون له وارث أولا ، فإن كان له وارث فإنه لا تجوز له الوصية بأكثر من الثلث كما تقدم . فإن أوصى بالزيادة على الثلث فإن وصيته لا تنفذ إلا بإذن الورثة ، ويشترط لنفاذها شرطان : -

(١) أن تكون بعد موت الموصى ، لأنه قبل موته لم يثبت للمجيز حق ، فلا تعتبر إجازته ، وإذا أجازها بعد الحياة نفذت الوصية . وقال الزهري وربيعه : ليس له الرجوع مطلقا .

(٢) أن يكون المجيز وقت الإجازة كامل الأهلية غير محجور عليه لسفه أو غفلة .

وإن لم يكن له وارث فليس له أن يزيد على الثلث أيضا . وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب الأحناف وإسحاق وشريك وأحمد في رواية ، وهو قول على وابن مسعود ، إلى جواز الزيادة على الثلث ، لأن الموصى لا يترك في هذه الحال من يخشى عليه الفقر ، ولأن الوصية جاءت في الآية مطلقة ، وقيدتها السنة بمن له وارث ، فبقى من لا وارث له على إطلاقه .

بطلان الوصية :

وتبطل الوصية بفقد شرط من الشروط المتقدمة ، كما تبطل بما يأتي : -

١ - إذا جن الموصى جنونا مطبقا واتصل الجنون بالموت .

٢ - إذا مات الموصى له قبل موت الموصى .

٣ - إذا كان الموصى به معينا وهلك قبل الموصى له .

الوصية الواجبة :

صدر قانون الوصية الواجبة رقم ٧١ لسنة ١٣٦٥ هجرية سنة ١٩٤٦ وقد تضمن الأحكام الآتية :

١ - إذا لم يوص الميت لفرع ولده الذي مات في حياته أو مات معه ولو حكماً بمثل ما كان يستحق هذا الولد ميراثاً في تركته لو كان حياً عند موته - وجبت للفرع وصية في التركة بقدر هذا النصيب في حدود الثلث ، بشرط أن يكون غير وارث ، وألا يكون الميت قد أعطاه بغيره عوضاً من طريق تصرف آخر قدر ما يجب له ، وإن كان ما أعطاه له أقل منه وجبت له وصية بقدر ما يكمله . وتكون هذه الوصية لأهل الطبقة الأولى من أولاد البنات ولأولاد الأبناء من أولاد الظهور وإن نزلوا ، على أن يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره ، وأن يقسم نصيب كل أصل على فرعه وإن نزل قسمة الميراث كما لو كان أصله أو أصوله الذين يدلى بهم إلى الميت ماتوا بعده وكان موتهم مرتباً كترتيب الطبقات .

٢ - إذا أوصى الميت لمن وجبت له الوصية بأكثر من نصيبه كانت الزيادة وصية اختيارية ، وإن أوصى له بأقل من نصيبه وجب له ما يكمله ، وإن أوصى لبعض من وجبت لهم الوصية دون البعض الآخر وجب لمن لم يوص له قدر نصيبه ، ويؤخذ نصيب من لم يوص له ويوفى نصيب من أوصى له بأقل مما وجب من باقى الثلث ، فإن ضاق عن ذلك فمنه وما هو مشغول بالوصية الاختيارية .

٣ - الوصية الواجبة مقدمة على غيرها من الوصايا ، فإذا لم يوص الميت لمن وجبت لهم الوصية وأوصى لغيرهم استحق كل من وجبت له الوصية قدر نصيبه من باقى ثلث التركة إن وفى ، وإلا فمنه وما أوصى به لغيرهم .

طريقة حل المسائل التى تشتمل على الوصية الواجبة :

- ١ - يفرض الولد الذى مات فى حياة أحد أبويه حيا وارثا ، ويقدر نصيبه كما لو كان موجوداً .
- ٢ - يخرج من التركة نصيب المتوفى ويعطى نوعه المستحق للوصية الواجبة إن كان يساوى الثلث فأقل ، فإن زاد على الثلث يرد إلى الثلث ، ثم يقسم على الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٣ - يقسم باقى التركة بين الورثة الحقيقيين على حسب فرائضهم الشرعية .

الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

المفردات : الصيام فى اللغة : الإمساك والكف عن الشيء ، وفى الشرع الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب احتسابا لله ، وإعدادا للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بمراقبته فى السر والعلن . والإطاعة : القدرة على الشيء مع تحمل المشقة الشديدة . والفدية : هى طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهلهم بقدر كفايته أكلة واحدة عن كل يوم يفطرونه ، واليسر : السهولة والتخفيف ، وضده العسر .

الصيام فى الإسلام عبادة كريمة الشأن رفيعة المستوى ، إذ أنه يقوم بتهذيب الدوافع الفطرية من المأكول والمشرب والمباشرة الجنسية . ولعلنا نلاحظ دور الصيام فى تربية الضمير ، فهو أستاذ فى علم الأخلاق ، يغرس فى النفس قوة مراقبة الله للعبد . وهنا نسأل : لماذا كان الصيام بين الإيمان والتقوى فى قوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، ذلك لأن الإيمان

تصديق بالقلب ، وما استقر في القلب سر من أسرار الله لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى . والتقوى ، وهى مخافة الله محلها القلب أيضا ؛ فقد أشار النبي ﷺ إلى صدره الشريف وقال : التقوى ها هنا . وجاء الصيام بينهما كأنه واسطة العقد ، إذ الصيام عبادة سرية لا يطلع عليها إلا الله ، فهو إمساك عن المفطرات من شهوات البطن والفرج من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ، ولذا أضافه الله تعالى إلى ذاته الأقدس حيث قال في حديثه القدسي الجليل : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به)^(١)

فالإنسان فى صيامه تحت رقابة الله ، لا يطلع عليه غيره ، ومن هنا كانت المناسبة قوية بين الصيام والإيمان والتقوى ، وهل الضمير إلا شدة الرقابة من العبد فى أفعاله ؟ فأنت تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من المثلجات وتخرج لتشكو للناس شدة الحر والعطش فى نهار رمضان ، وأنت تعلم أنك تخدع نفسك .

الله يدري كل ما تضرع ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ولقد صدق الهادى البشير ﷺ وهو يقول لجبريل : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢) فهنا مقامان : مقام المشاهدة ، ومقام المراقبة ، وإذا كان فى القصاص حياة للنفس فإن الصيام حياة للأرواح ، فالشبع بحر تجرى فيه الشياطين ، والجوع نهر تسبح فيه الملائكة . وهكذا يتبين لنا أستاذية الصيام فى علم الأخلاق ؛ أما أستاذيته فى علم الاجتماع فإنها تتجلى فى قول الصادق المعصوم : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) . كما أن حكمته اجتماعية تتجلى فى صيام الحكام الذين إذا تربعوا على كراسى الحكم لا يكادون يشعرون بقوم يبيتون على الطوى ، يعبث الجوع بأمعانهم ، يستحلبون الصخور ، وقوم آخرون تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويشتهون أن يدوسوها بأقدامهم . كان نبي الله يوسف الصديق يصوم يوما ويفطر يوما ، فقليل له : لم تكثر من الصيام ، وقد جعل الله خزائن الأرض تحت يديك ؟ فقال كلمته الشهيرة : (أخشى أن أشبع فأنسى الجائع) ويرحم الله الفاروق عمر ، كان بطنه يحدث أصواتاً من كثرة ما أكل بالزيت ، فكان يقول لبطنه : قرقر أو لا تفرقر ، لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين .

إن جاع فى شدة قوم شركتهم	فى الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحانه موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهدت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشربها
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت	بعد النبوة أخلاق تحاكيها

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٣ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥١ ط وزارة الأوقاف .

والصيام أستاذ في السياسة والاقتصاد ، فهو عامل وحدة بين الأمة الإسلامية في رمضان مهما ترامت أطرافها واتسع مداها في مشارق الأرض ومغاربها ، إذ الكل عند مطلع الفجر في حالة إمساك عن المفطرات ، فإذا ما غربت الشمس علم الجميع أن الإذن قد ورد من رافع السماء بلا عمد بإباحة ما كان محرماً من قبل ، فقال كل منهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، الحمد لله ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . وكان واجبا على المسلمين أن يعلموا الحكمة من الصيام فيقتصدوا في الطعام والمشرب والإنفاق ، فقد كان إفطار الرسول ﷺ متواضعاً مقتصداً ، بعض ثمرات وبعض اللبن ، فإن لم يجد فعلى شيء من الماء . وما ملأ ابن آدم وعاءً قط شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فنثلاث لطعامه ونثلاث لشرابه ونثلاث لنفسه . وهنا يأتي دور الصيام طبيياً . قال أحد المجادلين لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلى من الطب . فقال له العالم المسلم : بل إن كتابنا جمع الطب كله في نصف آية ، قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . ولما أرسل المقوقس ، عظيم مصر ، هدية إلى سيد المرسلين قبلها الهادي البشير ، ولكنه رد الطبيب وقال له : لسنا في حاجة إليك ، ولما رجع الطبيب إلى المقوقس سأله : لماذا ردك محمد ؟ قال الطبيب : لقد أرسلتني إلى رجل جمع الطب كله في كلمتين : نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا ، وإذا أكلنا لا نشبع . فماذا يقول الطب عن الصيام ؟ قال الأطباء : إن من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب ، وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات ، لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته . لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى . وهو أهم علاج ، إن لم يكن العلاج الوحيد ، للوقاية من أمراض كثيرة ، فللعلاج يستعمل في :

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر ، وهذه الطريقة هي أنجح طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ - البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر في

الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج من هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

إن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض التي مر ذكرها .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى وزيادة الضغط الذاتى والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ، ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

والصيام شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ؛ فقد انتشرت في أوروبا أكثر . وفي مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جداً من الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، جاء في زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

وللصيام أفضال جاءت في أحاديث الرسول ، وعلى رأس هذه الأفضال قوله ﷺ : (لو تعلم أمتي ما في رمضان من الخير لتمنت أن تكون السنة كلها رمضان)^(١) .

وعنه ﷺ : (للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه)^(٢) .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الأعمال عند الله عز وجل سبع : عملان موجبان ، وعملان بأمثالهما ، وعمل بعشر أمثاله . وعمل بسبعمائة ، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل ، فأما الموجبان : فمن لقي الله يعبد مخلصاً لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة ، ومن لقي الله وقد

(٢) صحيح سلم ج ٣ ص ٢٠٨ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٧ ط وزارة الأوقاف .

أشرك به وجبت له النار . ومن عمل سيئة جزى بها ، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها جُزِيَ مثلها ، ومن عمل حسنة جزى عشرةا . ومن أنفق ماله في سبيل الله ضُغِفَتْ له نفقته ، الدرهم بسبعمائه ، والدينار بسبعمائه ، والصيام لله عز وجل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل (١) .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أسندت النبي ﷺ إلى صدرى فقال : (من قال : لا إله إلا الله ختم له بها دخل الجنة ، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة) (٢)

وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرني بعمل قال : (عليك بالصوم . فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرني بعمل ، قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرني بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له) (٣) .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من صام يوماً في سبيل الله بعدت منه النار مسيرة مائة عام) (٤) .

وقد ورد في صيام رمضان خاصة من الفضل ما هو به جدير ، فقد جاء فيه عن البشير النذير قوله : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) (٥) .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (احضروا المنبر فحضرننا ، فلما ارتقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين . فلما نزل قلنا : يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ؟ قال : إن جبريل عليه السلام عرض لى فقال : بُعد من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك . فقلت آمين . فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبير عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة قلت آمين) (٦) .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبي قبلى : أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة . وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها استعدي وتزيني لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦١٣ ط دار الفكر

(٥) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦٢٩ ط دار الفكر .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٦٠ ط وزارة الأوقاف .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٢ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٥ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٦ ط وزارة الأوقاف .

جميعا . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا . ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم (١) .

وقد كان ﷺ إذا جاء رمضان بشر أصحابه قائلاً : (أتاكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم) (٢) .

لقد جاءت آيات الصيام في شهر قرآني مشبع بالرحمات تهب عليه ، وتتخلله نسمات تحمل في ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الجنة . والصائم في هذا الجو ينساب في أخلاق أرق من النسيم وأندر من صفحة الروض الوسيم . إن الصيام لما كان تهدياً للدوافع الفطرية من مأكّل ومشرب ، فإن رحمت الله تبارك وتعالى قد أحاطت بالصائمين من كل مكان ، لذا جاءت آيات الصيام وفي ثناياها تخفيفات ربانية كريمة ، جاء التخفيف الأول في صيغة الخطاب للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وبالإيمان يصبح كل شيء ميسوراً . فالإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكناً . والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا . ومن ثم فإن المؤمن يسمع نداء الحق تبارك وتعالى ولسانه يلهج بالشئاء على الله ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وكأنه يقول :

رضاك خير من الدنيا وما فيها	يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها	سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى	خير إلى من الدنيا وما فيها

وكيف لا يستقبل المؤمن خطاب ربه بنفس مفعمة بالرضا جياشة بالطمأنينة ، وهو دائماً يقرأ قول الله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿ (٣) .

إن المؤمنين يأتون مما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ، أنهم إلى ربهم راجعون ، ولسان حال الواحد منهم يقول لربه :

لما علمت بأن قلبي فارغ	من سواك ملأته بهداك
وملأت كل منك حتى لم أدع	منى مكاناً خالياً لسواك

ويأتى التخفيف الثاني متمثلاً في قول البارئ جل شأنه : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ، فإدام الذى كتب

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ ط وزارة الأوقاف . (٣) سورة الأنفال الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٤ ط وزارة الأوقاف .

هذا هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، فلتستقبل النفوس الواقعة هذا المكتوب بكرم وسعادة ولسان الحال يقول : شعاع من رضاك يطفى غضب ملوك أهل الأرض . ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا .

ويأتى التخفيف الثالث متمثلاً في قوله جل شأنه : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ ، أى لقد كان هذا الصيام فرضاً على من سبقكم من الأمم فصاموه وامثلوا أمر الله ، فأنتم يا خير أمة أخرجت للناس أولى الناس امتثالاً لأمر الله ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴿ (١) .

ويأتى التخفيف الرابع متمثلاً في قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهل التقوى إلا جماع الخير كله . أتى الإمام على كرم الله وجهه المقابر ذات يوم فقال : يا أهل المقابر هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم . ثم أنصت قليلاً وقال لمن حوله : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى . فإذا كان الصيام يؤدى إلى أشرف غاية وهى التقوى لله . فما أعظم تلك الغاية وما أجل ما أدى إليها ، فالتقوى هى السلاح الأقوى . قيل للحسن البصرى رضى الله عنه : يا إمام عظمنا ، فقال : يا هذا صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان الله عاصيا

ويأتى التخفيف الخامس متمثلاً في قوله جل جلاله : ﴿ أياماً معدودات ﴾ أى ليس الصيام الدهر كله ، إنما هو أيام سرعان ما تمر مر السحاب ، ما تلبث أن تنقضى ويصبح رمضان كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر . وكثيراً ما أتمثل هذه الأبيات عندما تأتى الأيام الأخيرة من رمضان :

فيأشهر الصيام فدتك نفسى تهل بالرحيل والانتقال
فما أدري إذا ما الحول ولى وعدت بقابل في خير حال
فهذه سنة الدنيا دواما فراق بعد جمع واكتمال
وتلك طبيعة الأيام فينا تبدد نورها بعد الكمال

ويأتى التخفيف السادس متمثلاً في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . فقد اقتضت رحمة الله العلى الكريم أن يكلف عباده بما يستطيعون . ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (٢) .

ثم يأتى التخفيف السابع متمثلاً في قوله جل شأنه : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ،

(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

(١) سورة النور الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

وهذا في حق كبار السن الذين لا يستطيعون الصيام والمرضى بأمراض مزمنة عليهم أن يطعموا مسكيناً عن كل يوم أفطروه في رمضان .

مما تقدم نعرف أن الوعيد شديد لمن أفطر يوماً من رمضان بغير عذر . قال ﷺ : (من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه ^(١)) وقال ﷺ : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان ^(٢)) .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (بينما أنا نائم أتاني رجلان فأخذا بضبعي ، فأتيا بي جبلاً وعراً ، فقالا : اصعد : فقلت : إني لا أطيق ، فقلا : إنا سنسهله لك ، فصعدت حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالوا : هذا عواء أهل النار ، ثم انطلق بي ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشقة أشداقهم تسيل أشداقهم دماً ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم ^(٣)) .

وبعد فإن الله جلت قدرته يفتح أبواب المثوبة لكل راغب في رحمته فيقول : ﴿ فمن تطوع خيراً فهو خير له ﴾ ، أي فمن زاد في الإطعام على مسكين واحد فذلك خير وبركة ، لأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر .

قوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ خطاب للمسافرين والمرضى الذين يستطيعون الصيام ، لأن في الصيام تهذيباً للنفس وتصفية للروح فضلاً عن المثوبة العظمى عند الله .

روى أن أبا أمامة قال للنبي ﷺ : مرني بأمر آخذه عنك قال : (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

روى عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى ؛ أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان ، فصادفوا فيه الحر الشديد ، فحولوه إلى وقت لا يتغير ، ثم قالوا عند ذلك : نزيد فيه ، فزادوا عشراً ، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فنذر سبعا فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧١ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .

الثلاثة ؟ فآتمه خمسين يوما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ ^(١) .

أنزل الله تعالى فرض صيام رمضان على النبي وأمه في شهر شعبان من العام الثاني من الهجرة . وقد شرفه الله تعالى بأعظم شرف ، فقد أنزل أعظم ملك هو جبريل ، بأعظم كتاب هو القرآن ، وبأعظم لغة هي العربية ، في أعظم شهر هو رمضان ، في أعظم بلد هي مكة ، في أعظم ليلة هي ليلة القدر ، لأعظم أمة هي أمة الإسلام ، على أعظم نبي هو مبعوث الهداية الإلهية وشمس الهداية الربانية ؛ فهو الأُمِّي الذي علم المتعلمين ، اليتيم الذي بعث الأمل في قلوب البائسين ، القائد الموفق الذي قاد سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطئ الأمان ، إلى صراط الله رب العالمين . ثم بين سبحانه وظيفة هذا الكتاب ورسالته الخالدة فقال : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ، فهو الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ؛ من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ؛ لا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ؛ ومع الهدى بينات ودلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، من هذا الهدى والفرقان الذي يفرق به الله بين الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والكفر والإيمان . فيا أمة الإسلام ، يا من شرفكم الله بهذا القرآن : ﴿ من شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، أى من حضر هلاله ، وهو صحيح غير مريض ، مقيم غير مسافر ، مكلف ، فعليه بالصيام .

ثم يعيد سبحانه وتعالى الرخصة للمسافرين والمرضى مرة أخرى ، حتى لا يُظن أنه لعظم هذا الشهر قد رفع الرخص ، وأنه لا عذر لأحد في الإفطار ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . ثم يبين سبحانه وتعالى الروح الذي يسرى في التشريع سريان الماء في العود الأخضر ، وسريان نور القمر في الليل الساري ، فيقول سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ﴾ ، فصوموا هذا الشهر ، ومن أفطر فيه لعذر كالمسافر والمريض والشيخ الفاني والشيخة الفانية ، والحامل والمرضع ، إذا تعذر عليهما الصيام ، والحائض والنفساء ؛ كل هؤلاء عليهم أن يكملوا العدة بقضاء ما أفطروا ، وعلى الجميع أن يكبر الله تكبير شكر واعتراف بالجميل ، فلا أحد أكبر من الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولتشكروا هذا الإله المنعم المتفضل على ما أولاكم من نعم ، وأسبغها عليكم ظاهرة وباطنة ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ ^(٢) .

آية الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال رجل : يا رسول الله أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فترلت ﴿ وإذا سألك عبادى عني ... ﴾ . ونحن هنا نلاحظ أن الأسئلة التي كانت توجه للنبي ﷺ ، كان الله تبارك اسمه يلقنه إجابتها بلفظ قل . فمثلا : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ (١) ؛ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ (٢) ، ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ (٣) ، إلى غير ذلك من الأسئلة . أما في آية الدعاء فلم يوسط لفظ قل في الإجابة ، بل قال سبحانه مباشرة ﴿ فإني قريب ﴾ ، وذلك لسببين : أولهما : نفى الوسائط بين العبد وربّه . وثانيهما : الدلالة على عظم القرب الإلهي للعباد ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (٤) . ولذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) (٥) .

قال الإمام ابن تيمية : « وهو سبحانه فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ؛ فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله : ﴿ عبادى ﴾ بالإضافة إلى ضمير الذات الإلهية ، إضافة رحمة وشفقة وتشريف . قوله : ﴿ أجب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ، يفيد أن الله تعالى يجيب الدعوة وقت دعائها ، بدليل الظرف إذا ؛ ويجيب الدعوة على حسب ما يريد ويختاره سبحانه وتعالى ، فإن كان الخير في التعجيل عجل ، وإن كان الخير في التأجيل أجل ، وإلا فإن الدعاء عبادة تخفف البلاء النازل من السماء . ويستجيب الله من العبد الدعاء ما لم يقل : دعوت فلم يستجب لي . ولذا قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) (٦) . وقال : (أفضل العبادة انتظار الفرج) (٧) (إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تنفجر أنهار الجنة) (٨) ، وكان يأمرهم أن يسألوا الله العافية ويعلمهم أن يقولوا : (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) (٩) . قال تعالى : ﴿ فليستجيبوا لي ﴾ ، استجابة طاعة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي . وأول دلائل الاستجابة الإيمان . قال تعالى : ﴿ وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ . إذا فطريق الرشاد والسداد والتوفيق متوقف على الاستجابة والإيمان . وإنما جاءت آية الدعاء بين آيات الصيام لأن بين الصيام والدعاء تمام ارتباط ، فإن للصائم عند فطره دعوة لا ترد . وهناك ثلاثة لا ترد لهم دعوة : الإمام العادل ، ودعوة الصائم ، ودعوة المظلوم . وكان من الهدى النبوي دعوات الرسول ﷺ عند الإفطار : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت . الحمد لله . ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . والدعاء المطلوب هو الدعاء بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب ، ومن ثم سماه النبي ﷺ مخ العبادة .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣١٣ ط دار الفكر .
(٧) المصدر السابق ج ١ ص ١١٢ ط دار الفكر .
(٨) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٩٩ ط الشعب .
(٩) المصدر السابق ج ٨ ص ٤٧٢ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٤) سورة ق آية : ١٦ .
(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٣ ط الشعب .

عفو إلهي كريم

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

سبب النزول : قال العلامة ابن كثير في هذه الآية : هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ؛ فإنه كان إذا أفطر أحدهم ، إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة (١) .

المفردات : ﴿ ليلة الصيام ﴾ : هي الليلة التي يصبح منها المرء صائماً ، والرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن . قال الأزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . واللباس : الملابس والمخالطة . ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ : أى تخونون أنفسكم بعمل شيء تعدونه حراماً . ﴿ الخيط الأبيض ﴾ : أول ما يبدو من بياض النهار ، كالخيط الممدود رقيقاً ثم ينتشر . ﴿ الخيط الأسود ﴾ : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار . فالصبح إذا بدا في الأفق بدا كأنه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود في جنب خيط أبيض . والإتمام : الأداء على وجه التمام ، وحقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر : أى ظاهر جلده ، والمراد بها ما أريد بالرفث . والاعتكاف شرعاً : المكث في المسجد طاعة لله وتقرباً إليه ، والحدود : واحداً حد ، وهو في اللغة : الحاجز بين شيئين ، ثم سمي بها ما شرعه الله لعباده من الأحكام ، لأنها تجدد الأعمال ، وتبين أطرافها وغاياتها ، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة وكان عمله باطلاً .

والمراد بالآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام .

روى الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : إن الناس كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له قيس بن

صِرْمَةً (بكسر الصاد) صلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ، فأصبح مجهدا . وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأقى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، فأنزل الله ﴿ أحل لكم ليلة الصيام . . . ﴾ ، وهذا يدل على أنه حين فرض الصيام كان كل إنسان يذهب في فهمه مذهبا كما يؤديه إليه اجتهاده ، ويراه أحوط وأقرب للتقوى حتى نزلت هذه الآية (١) .

نعم إن رحمة الله وسعت كل شيء ؛ ومن آثار تلك الرحمة أن أباح للصائمين الأكل والشرب ومباشرة النساء ليلة الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، حتى يرفع عنهم العنت والمشقة . فإذا كان الصائم قد حظر عليه أن يأتي نساءه وهو صائم نهرا ، فقد أباح الله له ذلك ليلا . وعبر القرآن عن الجماع تعبيرا أدبيا رفيعا بكلمة ﴿ الرفث ﴾ ، كما عبر عنه في موضع آخر بقوله : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ فلما تغشاها حملت حملا خفيفا ﴾ (٢) وبين شدة الاتصال بين الرجل وزوجته بقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ، أى أن بينكم وبينهن تمام تداخل واتصال ، وقد علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، أى تخونونها بالتشديد عليها ، فتأب عليكم فيما حدث ، وعفا عنكم فيما وقع ؛ فالآن باشروا الزوجات ، واطلبوا ما كتب الله لكم من الولد الصالح . كذلك فقد أبيع لكم الأكل والشرب ليلا حتى يتبين الفجر ، كما يتبين الخيط الأبيض من الأسود . والمراد بالخيط الأبيض نور النهار ، وبالخيط الأسود ظلمة الليل . بعدها : ﴿ أتموا الصيام إلى الليل ﴾ ، وكما يفسد الصيام بالجماع ، كذلك يفسد الاعتكاف بالجماع ، قال تعالى : ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ .

ثم نهى سبحانه عن قرب حدوده خشية الوقوع في الحرام ، فالنهى عن القرب نهى عن الفعل من باب أولى . قال ﷺ : (إن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه) . قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ ، أى يتقون ما حرم الله . والمراد من الآيات الأحكام الشرعية .

النهى عن أكل أموال الناس بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : المراد بالأكل : الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أعم الحاجات التى ينفق فيها المال وأكثرها ، إذ الحاجة إليه أهم ، والباطل : من البطلان ، وهو الضياع والخسران . وأكله بالباطل : أخذه بدون مقابلة شيء حقيقى ، والشريعة حرمت أخذ المال بدون مقابلة يعتد بها ، وبدون رضا من يؤخذ منه ،

(٣) سورة الأعراف آية : ١٨٩ .

(١) المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٢) سورة النساء آية : ٢١ .

وإنفاقه في غير وجه حقيقى نافع . والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء ، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى . وقوله بها : أى بالأموال . والفريق من الشيء : الجملة والطائفة منه . والإثم : هو شهادة الزور ، أو اليمين الفاجرة أو نحو ذلك .

إنما جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات الصيام لما لها من وقع شديد في النفوس ؛ فإذا كنتم أيها الصائمون قد أمسكنكم في النهار عن أكل ما أحل الله ، فلا يحل لكم أن تأكلوا ما حرم الله ، إذ أنه رب صائم لا يناله من صومه إلا الجوع ، ورب قائم لا يناله من قيامه إلا السهر ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه . فهذا الخطاب بالنسبة للصائمين أشد وأوقع ، كأنه قيل : أتمسكون عن الطعام في الصيام ، وتأكلون أموال الناس بالباطل ، وإنما عبر هنا (بالأكل) دون غيره من الملبس والمركب ، لأن الإنسان أشد ما يكون إلى الطعام ، فكلما كثرت واشتدت حاجته إليه ، كان النهي أوقع .

وإنما جاء التعبير القرآنى : ولا تأكلوا أموالكم ولم يقل (ولا تأكلوا أموال غيركم) ، لأن المجتمع الإسلامى كله رجل واحد وجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . والباطل هو الخسران والضياع ، فأكل الربا باطل ، ودفع الرشوة باطل ، والسرقة والغصب كل هذا وجوه حرم الله ماها ؛ وللمال حرمة في الإسلام ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، ولا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفسه منه ، وما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، حتى لقد ذكروا أن الإمام أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، كان ينتظر أحد الناس وهو واقف في حر الشمس ، وأمامه بيت له ظل ظليل ، فقيل له : يا أبا حنيفة ما ضر لو وقفت في ظل البيت ؟ فقال : إن هذا البيت مرهون عندى ، واخشى إن وقفت في ظله أن يسألنى الله عن ذلك ، إذ لا يجوز الانتفاع بالشيء المرهون .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته	أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصماً	فإنه الركن إن خانتك أركان

قال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة . فقال له الصادق المعصوم : (يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفسى بيده إن الرجل ليقذف باللقمة من الحرام في جوفه فلا يقبل الله منه دعاءً ، أو لا يقبل منه عمل ، أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به) .

وأشد ما ابتلى به الإنسان دفع الرشوة وأكلها ومن الناس من يدلى ويلجأ إلى الحكام بدفع شيء من المال في سبيل أن يأكل مال غيره ، ونسى أو تناسى أنه يأكل في بطنه ناراً وسوف يصلى سعيراً ، ويأكل فريقاً من أموال الناس بالإثم والعدوان ، وهو يعلم أنه آثم خاطيء مذنب ، ويوم القيامة سيعض يديه ندماً ، ويقلب كفيه ألماً ، يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

الأهلة

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية : أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي صالح عن ابن عباس : (أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن غنيمة قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال ؟ فنزلت الآية) (١) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات الصيام ، لأن الأهلة كما كانت مواقيت للناس والحج ، كذلك هي مواقيت لشهر الصيام والإفطار ؛ قال ﷺ : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) (٢) ، فبينهما تمام ارتباط وتناسب .

لما سألوا رسول الله ﷺ عن الحكمة من منازل الهلال ، بين الله تعالى فائدة ذلك ، لأنه لمعرفة المواقيت الزمانية ، وما أشد حاجة الناس إلى تلك المواقيت : فبالمواقيت يزرعون ويحصدون ويصومون ويحجون ويجاهدون بها ، وتعتد المرأة وتعرف أيام حيضها ونفاسها إلى غير ذلك . قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٣) ، ثم صحح لهم أموراً كانوا يفعلونها في الحج ، فقال : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ .

وروى البخاري وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن جابر قال : كانت قريش تدعى الخمس (جمع أحس من الحماسة وهي الشدة والصلابة لتشددهم في دينهم) ، وكانوا يدخلون البيوت من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ، فقالوا يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، قال : إن رجل أحس ، قال له : فإن ديني دينك ، فأنزل الله الآية . . (٤) .

(١) أسباب النزول للنيسابوري ص ٣٦ ط دار زهران للنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

(٢) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ٢ ص ١٠٣ دار الفكر .

(٣) سورة يونس آية : ٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ط الشعب .

وبعد ما صحح الإسلام لهم ما انحرفوا عنه ، بين لهم حقيقة البر ، وأنه التقوى ، والتقوى خوف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل . والتقوى هي السلاح الأقوى ، والمتقون مفلحون ، يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وإتيان البيوت من ظهورها ليس من البر أو العقل ، ولا يفعله من اتقى الله ، إنما وضع الأمور في نصابها يكون بإتيان البيوت من أبوابها ، وحال المسلم يجب أن يكون سمعاً وطاعة لأوامر الله ، وأن يكون باطنه وظاهره على وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٢) ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ (٣) .

مشروعية القتال في الإسلام

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِن أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ سبيل الله ﴾ : دينه لأنه طريق إلى مرضاته . ﴿ يقاتلونكم ﴾ : أى يتوقع منهم قتالكم . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : أى لا تبدءوهم بالقتال . ومحبة الله لعباده : إرادة الخير والثواب لهم . والمعتدون : أى الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام . والثقف : الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً . وقد يستعمل في مطلق الإدراك . ﴿ من حيث أخرجوكم ﴾ : أى من مكة . والفتنة من قولهم فتن الصائغ الذهب ، إذا أذابه في النار ليستخرج منه الزغل ، ثم استعملت في كل اختبار شاق ، كالإخراج من الوطن المحبب من الطباع السليمة ، والفتنة في الدين ، ويكون الدين لله ، أى ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن بصدده عنه ولا يؤذى فيه ، ولا يحتاج إلى مداينة ومحابة أو استخفاء ومدارة .

بعد ما بين الله تعالى منافع الأهل وأنها مواقيت للناس والحج ، فإنها أيضا مواقيت للأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال ، والتي جاء ذكرها في قوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (١) ، وفي قوله جل شأنه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ (٢) ، وهذه الأشهر هي ذو العقدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

فإذا ما اعتدى على المسلمين في هذه الأشهر ، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله ، وقد جاء الإذن بالقتال في الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة ، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، وما زالت وستظل ، قال تعالى لنبيه ومصطفاه : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾ (٣) ، ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٤) .

ثم : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٥) ، ثم : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٦) ، ثم : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إذن ، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الأثمين ، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم من ديارهم مكة ، قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٧) ، ثم قال عز من قائل : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ ، والمقصود ، بالفتنة هنا فتنة الرجل في دينه حتى يرتد عنه ، فقد أذاقوا المسلمين ألوانا من العذاب ، لو صبت على الأيام صرن ليالي ، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وسمية وياسر وغيرهم من المستضعفين ، ما شأنهم ببعيد ، من ثم فإن الفتنة أشد من القتل ، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها ، ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده ، ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق ﴾ (٨) . ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته ، فإنه الأمن كله : طيرا ونباتا ووحشا ، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه ، إذ يقول : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ، أما إن نكثوا

(٥) سورة الشعراء آية : ٢١٤ .
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٧) سورة الحشر آية : ٨ .
(٨) سورة الشورى آية : ٤٢ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٤ .
(٢) سورة التوبة آية : ٣٦ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ : ٤ .
(٤) سورة النحل آية : ١٢٥ .

أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، فالظالم عدو الله ورسوله ، لا بد أن يقلم الإسلام أظفاره ، ويكسر أنيابه ، ويبحث مغالبه ، لأن وجوده في الأرض شر مستطير . فالؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا ، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

من هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا في وجه العدوان ، وضد القوى الطاغية ، التي وقفت حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس .

فالأصل في الإسلام السلام ، ولكنه سلام عزيز مسلح ، فالله هو السلام ، والجنة دار السلام ، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام ، وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام ، وتحية سبحانه لنبيه : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . فهذا هو الأصل في معاملات الإسلام الخارجية ، سلام مبني على العزة والكرامة ، أما السلام الذليل المستكين ، فالإسلام لا يعرفه ولا يقره ، قال تعالى : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ (١) .

واسألوا التاريخ : أي المعسكرين اعتدى على الآخر ، معسكر الشرك أم معسكر التوحيد ؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادئ بالعدوان ، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدي معسكر الشرك ؟ لا والله ، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما رفع الإسلام السيف إلا في وجه السيف ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ؟ .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالخرب أجدى على الدنيا من السلم
والخرب إن تلقها بالسلم ضقت بها	ذرعاً إن تلقها بالسيف تنحسم

قال رباعي بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه : ما الذي جاء بكم إلينا ؟ قال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحدة ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين : ما قامت دعوة الإسلام على السيف ، إنما قامت على الحجة والبرهان ، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد ، كان وحده ، ويوم انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم

بالسيف ، ويوم انضم إليهم عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف ، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب ، ولا سلطان للسيف على ما في القلب ، ونسبة البلاد التي فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر في المئة ، والباقي دخلوا الإسلام بطريق التجارة التي كان يتولاها تجار المسلمين في شرق البلاد وغربها . ثم اسألوا التاريخ : متى استعمل الإسلام السيف ؟ ضد القوى المادية الضاغطة التي وقفت كابوساً ضاغطاً يصد عن سبيل الله . ثم اسألوا التاريخ : كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا في غزوات الرسول كلها ؟ من الجانبين لا يتجاوزون ألفاً وثمانية عشر رجلاً ، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيداً والباقي من المشركين ، بينما سقط في الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليوناً ، وفي الحرب العالمية الثانية خمسون مليوناً ما بين قتيل وجريح ومعوق . ألا يأخذ هؤلاء الحياء ؟ ثم ألا يشعرون بالخزي وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفوا خيراتها تحت اسم الاستعمار ، وما هو الاستعمار وإنما استخرا ب . واسألوا التاريخ عن بلد المليون من الشهداء ؟ الجزائر التي وقفت وصمدت أمام الامبراطورية الفرنسية ، وزيادة في الإيضاح فإننا نذكر في قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب في كتابه (الرسول القائد) تحت عنوان (القتال في الإسلام) : معنى القتال في الإسلام : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في الإسلام .

متى شرع القتال في الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين في القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضرب ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويشبوا عقيدة ، ويقولوا في حرارة وصدق : ربنا الله . فلما اشتد عدااء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة . فهل وقف البغي وخفت حدة العداوة ؟ كلا . . . ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين في القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿ (١) . لقد خرج الرسول ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال فعلاً في الإسلام .

أهداف القتال في الإسلام

١ - حماية حرية نشر الدعوة :

ليس من أهداف الحرب في الإسلام نشر الدعوة ، بل حماية حرية نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٢) ، ولو كان القتال في

(١) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) البقرة آية : ٢٥٦ .

انتشار الإسلام بسيف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم ، ولكن هدف الحرب في الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح شرف ، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين ، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين .. الخ .

٢ - توطيد أركان السلام

تكون الأمة بغير جيش قوى عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها ؛ فإذا كان لها جيش قوى احترمت العدو إرادتها ، فلا تحدته نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذلك السلام ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴿^(١)﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾^(٢) .

إن الإسلام ، كما تدل عليه تسميته ، دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، ولا يجوز الحرب إلا في حالات محدودة بحيث تعتبر فيها عداها جريمة .

آداب القتال في الإسلام

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين ، لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

ولست الجزية عبواً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هي لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء .. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية في العقائد والأموال . وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف .

« إني عاهدتكم على الجزية والمنعة .. فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم » .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٨ .

(١) سورة الأنفال الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطروا المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن : « إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم ، فهذه هي أموالكم نردها إليكم » .

لقد كان فرض الجزية في الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع في أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : أعلاها ، وهو (٤٨) درهماً في السنة على الأغنياء (حوالي دينارين ونصف دينار عراقي أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً) ، وأوسطها ، وهو (٢٤) درهماً في السنة على المتوسطين من تجار وزراة . وأدناها : وهو (١٢) درهماً في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف في المائة ، القدر الشرعي لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبي والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعّد وذوي العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة في تحصيلها . وقد جاء في عهد خالد لصاحب قس الناطف : « إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله » . ليس ذلك فحسب ، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش ، والذمي الذي يقبل التطوع في الجيش الإسلامي تسقط عنه الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البديل النقدي للخدمة العسكرية في عصرنا الحاضر ؛ كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « وأيما شخص ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » .

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال ، ومعنى (صاغرون) في آية الجزية ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾^(١) ، هو الخضوع إذ من معاني الصغار في اللغة الخضوع ، ومنه أطلق « الصغير » على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حيثئذ ، الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون ، في دفع الجزية ومن الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

ولا توجد آية في القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ * إنما

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿١﴾

واقراً الآية الكريمة ، وهي من أواخر القرآن نزولاً ، فهي تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿٢﴾ .

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هي : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

أما عن تنظيم القتال في الإسلام فإنه يدور حول ما يلي :

١ - تقوية المعنويات :

يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين في سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون لإنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجيروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ * الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿٣﴾ .

واستأصل الإسلام جميع النواحي التي ينبعث من قلبها الجبن والخور ، وحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله والحق . . في سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التي يخشى كسادها ولا المساكن ، لا شيء من ذلك كله يصلح أن يحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ﴿٤﴾ .

بمثل هذا الأسلوب القوي حارب الإسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف ، وغرس في نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة في سبيل الحق ونصرتة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة الممتحنة الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

(٣) سورة النساء الآيات : ٧٤ - ٧٦ .

(٤) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٥) سورة الحجرات آية : ١٥ .

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية ، وقد كانت المعنويات العالية ، ولا تزال ، من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

٢ - إعداد القوة المادية :

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتتناول العدد والعدة ، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة منها لحمايتها .

يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو ، حتى لا تحدّثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل : ﴿ وَذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بالحديد ، بصورة خاصة ، للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

إن الجهاد في الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافعة عن الحق وحمايته .

٣ - التنظيم العملي للقتال :

(أ) الإعفاء من الجندية :

أسباب الإعفاء من الجندية في الإسلام محصورة في الضعف ، ويشمل الضعف : المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٣) .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدي ، ولا البنية لحاكم كبير ، مما عهدناه في عصور الانحلال ، بل كان العمل في عصر النبي ﷺ والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير في جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة في حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً في أن يستحر القتل فيهم .

(٣) سورة التوبة آية : ٩١ .

(١) سورة النساء آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٥ .

(ب) إعلان الحرب :

حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدرًا : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (١) .

تطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحاً .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان في القتال .

(ج) الدعوة للجهاد :

حذر الإسلام من التباطؤ في تلبية داعي الجهاد والثاقل عنه : ﴿ يأيا الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

(د) عقاب المتخلفين :

عاقب الإسلام المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله ، حتى زوجته ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ (٣) .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى .

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط ، ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث في القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته ، في بعض الأحيان ، بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف أو يناهضوا العقاب .

(هـ) تطهير الجيش :

يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومن الذين يختلفون عن أفرادهم بالعقيدة ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة ، يعمل لتحقيقها ، ويذل كل ما يملكه في سبيلها ، وبذلك يستطيع الفوز في الحرب : ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ (٤) .

(٣) سورة التوبة آية ١١٨

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٠ .

(١) سورة الأنفال آية : ٥٨ .

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

(و) أساليب القتال :

ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ، ويوزع وحداته على تلك المواضع ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾^(١) ، ويبتكر القتال بأسلوب الصف ، الذي لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ﴾^(٢) .

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان .

(ز) الضبط :

يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة ، والثبات في المواقف ، وتجنب أسباب الفشل ، والاعتصام بالله ، وباليقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾^(٣) .

كما حذر الإسلام من الفرار ، وبين سوء عاقبته : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾^(٤) .

(ح) الكتمان :

حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ؛ كما طلب من المسلمين أن يشتبوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾^(٥) .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾^(٦) .

(ط) الهدنة والصلح :

أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب ، إذا جنح إليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصديق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾^(٧) .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٦٠ .

(٦) سورة النساء آية : ٨٣ .

(٧) سورة الأنفال الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(١) سورة آل عمران آية : ١٢١ .

(٢) سورة الصف آية : ٤ .

(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) سورة الأنفال الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

(ي) الأسرى :

خير الإسلام القائد بين أن يمين عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشددوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (١) .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ، ولو لخوف ، فهو كالمسلم الأصلي ، يحرم دمه أيضاً .

(ك) حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق ، والوقية بالضعفاء : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ (٢) .

الحرمات قصاص

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المفردات : الحرمات : واحداً حرمة ، وهى ما يجب احترامه والمحافظة عليه . القصاص : المقاصة والمقابلة بالمثل . اتقاء الشيء : طرحه حيث تراه ، ثم استعمل فى كل ما يطرح ، ويلقى مطلقاً . سبيل الله : هى طريق الخير والبر المؤدى إلى إعزاز دينه ، كجهاد الأعداء ، وصلة الأرحام . والتهلكة : الهلاك ، المراد به هنا الإمساك عن النفقة فى الاستعداد للقتال وترك الجهاد .

لما قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، بين تعالى بعد ذلك أن هناك أشهراً حرماً يحرم فيها القتال ، فقال : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ ، أى قابلوا حرمة هذه الأشهر بحرمة من جهتكم ، إلا إذا اعتدى عليكم فيها ، فإن الحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فى هذه الأشهر فعليكم أن تردوا العدوان بمثله ، حتى تكون كلمة الله هى

(٢) سورة النحل الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

(١) سورة محمد آية : ٤ .

العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والمثلثة هنا بمثل ما اعتدى عليكم ، تفيد منتهى العدالة في رد الاعتداء ، وأن هذا الدين يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، لا يعرف الإكراه ؛ قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (١) ، وقال له : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ﴾ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴿ (٢) وقال له : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً ﴾ (٣) وقال له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿ (٤) .

قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ، وما يتجنى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف فقول يكذبه التاريخ ولا يؤيده ، من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهرياً . انتهى كلامه .

وقد جاء الإسلام للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، كان كالنسيم الهادي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحجارة الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، ثم طمأن القلوب الواثقة وثبت الجماعة المؤمنة عندما أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قيل للحسن البصري رضى الله عنه ، تقى عصره : ياتقى الدين أى الأيام عندك عيد ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

أى عدالة تلك ؟ بل أى خلق هذا حتى مع الأعداء ؟ قابلوا احترامهم للشهر الحرام باحترامكم له ، فإن اعتدوا عليكم فليكن ردكم للعدوان قصاصاً ، والقصاص ينبىء بالمساواة دون ما تجاوز للحد ، وليكن ردكم على عدوانهم مثلاً فى السلاح والأداء ، وعادلاً فى نفس الوقت : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٥) والتقوى هى السلاح الأقوى ، واعلموا أن الله مع المتقين ؛ وهل بعد معية الله من قوة تذكر ؟ كفى فخراً بأن تكون لى رباً ، وكفى عزاً أن تكون لك عبداً . فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد صحة فالله يعطيه ، ومن أراد غنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا ، فإن النار تكفيه .

(٤) سورة الغاشية : الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٥) سورة المائدة : آية ٨

(١) سورة يونس : آية ٩٩

(٢) سورة ق : آية ٤٥

(٣) سورة الفرقان : آية ٥٢

إن العز كل العز في طاعة الله والذل كل الذل في معصية الله ، ومعية الله هنا بمعنى الحماية والرعاية والصيانة ؛ ألم يقل السيد المعصوم لصاحبه في الغار : لا تحزن إن الله معنا ؟ ألم يقل موسى لبني إسرائيل عندما قالوا له إنا لمدركون ﴿١﴾ قال : كلا إن معنى ربى سيهدين ﴿٢﴾ ألم يقل الله تعالى للملائكة ، وقد أخذوا الأهباء للهبوط في الميدان يوم بدر : ﴿٣﴾ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴿٤﴾ ؟ ألم يتفضل مولانا ، جل ذكره ، على المتقين والمحسنين بقوله : ﴿٥﴾ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿٦﴾ ؟

جاء في سبب نزول هذه الآية مارواه عكرمة عن ابن عباس : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحسبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة ، وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿٧﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى فيغزو ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ ، وهو غيم بالحديبية ، أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسألة والمصالحة ، وكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ، وتحصن فاروهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة ، واعتمر من الجعرانة ، حيث قسم غنائم حنين ، وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً عام ثمان ، صلوات الله وسلامه عليه .

وبعدما أمرهم تعالى بالجهاد بالنفس في قوله : ﴿٨﴾ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴿٩﴾ ، أمرهم سبحانه أن يجاهدوا بالمال فقال : ﴿١٠﴾ وأنفقوا في سبيل الله ، كثيراً ما يقرن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال ، قال تعالى : ﴿١١﴾ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٢﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿١٣﴾ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿١٤﴾ ، وقال تبارك اسمه : ﴿١٥﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٦﴾ . وسبيل الله يشمل طرق الخير ، وعلى رأسها الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ثم نهاهم سبحانه عن الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة ، وإنما يكون الإلقاء إلى التهلكة بالإمساك عن النفقة وبالبخل ، كما جاء ذلك عن كثير من أهل العلم .

قال حذيفة : نزلت هذه الآية في النفقة . وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير

(٥) سورة التوبة آية : ٤١ ،

(٦) سورة التوبة آية : ١١١ .

(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(١) سورة الشعراء : آية ٦٢

(٢) سورة الأنفال : آية ١٢

(٣) سورة النحل : آية ١٢٨

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسري ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما ، فنزل فينا : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني ، أكنت ألقى بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا . قال الله لرسوله ﴿ فَقاتل في سبيل الله لَا تَكْفَلْ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ ^(١) ، وإنما هذه في النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه .

وقد ورد أن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى إلى التهلكة ولا يتوب .

فتحصل لنا من هذا أن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة إما أن يكون بالبخل كما قال تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ ^(٢) .

وقد تكون التهلكة بفعل الذنوب وترك التوبة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ ^(٣) . وبعد الأمر بالإِنْفَاق جاء الأمر بالإِحْسَان ، والإِحْسَان درجة عليا تفوق الإِنْفَاق ، فهي درجة الإِيثَار ، قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وَأَقِ الْمَالِ عَلَى حَبِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ ^(٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ^(٦) .

فالإِحْسَان هو الفضل ، والفضل بعد العدل ، وقد أمر الله به في قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ ^(٧) . وقد كتب الله الإِحْسَان في كل شيء ، حتى في القول عندما قال : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ ^(٨) ، والإِحْسَان بالوالدين ، فقال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(٩) . وكما أن الله مع

(٦) سورة الإنسان الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٩٠ .

(٨) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٩) سورة البقرة آية : ٨٣ .

(١) سورة النساء آية : ٨٤ .

(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٦ .

(٤) سورة الحشر آية : ٩ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

المتقين ، فهو يحب المحسنين ، فالتقوى والإحسان يؤديان إلى معية الله ومحبته ، ومحبة الله كامنة في رضاه ، وإذا رضى الله ، فماذا بعد الرضا ؟ .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك يأسؤلى ويأملئ خير إلى من الدنيا وما فيها

الحج والعمرة

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

المفردات : الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه ، والهدى : يطلق على الواحد والجمع ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليدبح ويفرق على الفقراء ، والمحل (بكسر الحاء) : مكان الحلول والنزول . حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

بعد ما ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالصيام من أول قوله جل شأنه : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ (١) وختمها بقوله تعالى : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ (٢) ، ثنى بعد ذلك بذكر الجهاد وما يتعلق به من حرمة للشهر الحرام ، ووجوب الإنفاق ، ذكر بعد ذلك الأمر بالإحسان ، فقال : ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ (٣) ، عطف بعد ذلك الأمر بإتمام الحج والعمرة على الأمر بالإحسان ، فالإحسان واجب في كل شيء ، وهو الإخلاص في العمل لله تعالى ، وأن يراد به وجهه وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ ، وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أى عام الحديبية ، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح

(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى ، وكان سبعين بدنة . ، وأن يخلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم ؛ فعند ذلك أمرهم ، عليه السلام ، بأن يخلقوا رءوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، انتظاراً للنسخ ، حتى خرج فخلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يخلق ، فلذلك قال ﷺ : (رحم الله المحلقين) ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؛ فقال في الثالثة و (المقصرين)^(١) . وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل بل كانوا على طرف الحرم . والله أعلم .

وفي هذه الآية بيان لأحكام الحج والعمرة وذكر لأحكام الإحصار ، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحل قبل بلوغ الهدى محله إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها ، فإنه يخلق ، وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين (الفرق بالتحريك مكيال بالمدينة وزن ستة عشر رطلاً) ، فإذا زال الخوف من العدو ، فمن أتم العمرة وتحلل وبقي متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم ، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات ، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده ، إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات .

﴿ وأتموا الحج والعمرة ﴾ ، أى وأتوا بالحج والعمرة تامين كاملين ، ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطناً بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة . والتجارة لا تنافي الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾^(٢) . الرياء والسمعة إذا كانا هما الباعث على الحج ، فالحج ذنب للمرائي لا طاعة ، وهكذا حكم من يحج ليقال له (الحاج فلان) ، أو ليحتفل بقدومه ، أو يقترض بالربا ، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحج ، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانها وإنما يقصد زيارة النبي ﷺ ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة . وقد كان الحج معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل وأقره الإسلام بعد أن أزال ما فيه من ضروب الشرك والمنكرات ، وزاد فيه مناسك وعبادات .

وهو فريضة لقوله تعالى : ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾^(٣) ، وللأحاديث الواردة في ذلك .

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بامرة أبي بكر رضى الله عنه ، وكانت تمهيداً لحجة النبي ﷺ سنة عشر ، وفيها أذن أبو بكر بالمشركون الذين حجوا : ألا يطوف بعد هذا العام مشرك ، ونزلت الآية : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾^(٤) .

﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فإن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما ، وأردتم أن تتحللوا ، فعليكم أن تذبحوا ما تيسر لكم من بدنة أو بقرة أو شاة ثم تحللوا .

(١) تفسير القرآن الكريم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٣٥ ط الشعب . (٢) سورة آل عمران آية : ٩٧ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

وذبحها يكون في موضع الإحصار ولو في الحل ، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل .

﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ ، قد جعل الشارع أمانة الدخول في الحج أو العمرة ، الإحرام بنية النسك عند الابتداء به بالتلبية ، ولبس غير المخيط من إزار ورداء ، وكشف الرأس للرجل ، ولبس النعلين ، وأمانة الخروج منها (ويعبر عنه بالإحلال والتحلل) بحلق الرأس أو التقصير . فالنهي عن الحلق نهى عن الإحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه ، وذلك حيث يحصر الحاج وإلا فالكعبة ، لقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ (١) .

﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ ، أى فمن كان منكم مريضاً يحتاج إلى الحلق ويؤذيه تركه ، أو به أذى من رأسه من جراح أو داء ، فعليه فدية إن حلق ، وهي إما صيام أو صدقة أو نسك .

وقد بين مقدارها فيما أخرجه البخارى من حديث كعب بن عجرة قال : (وقف على رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسى يتهافت قملاً ، فقال : يؤذيك هوامك ؟ قلت : نعم ، قال : فاحلق رأسك ، قال : فنزلت هذه الآية وذكرها فقال النبي ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر) (٢) .

﴿ فإذا أمتم من خوفكم من عدوكم ، أو برأتم من مرضكم الذى منعكم من حجكم أو عمرتكم .

﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج ، فعليه ما استيسر من الهدى ، أى فعليه دم نسك شكراً لله أن أتاح له الجمع بين النسكين ، ويأكل منه كالأضحية ، ويذبح يوم النحر .

﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت ﴾ ، أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده أو عدم المال الذى يشتري به ، فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج ، وتمتد إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى بلده ، أو شرع في الرجوع ، فيجزئ الصوم في الطريق .

﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ ، أى هذه الأيام الثلاثة والسبعة الأيام ، عشرة كاملة ، وهذا نتيجة لما تقدم مبين لجملة العدد الواجب بعد أن بينه تفصيلاً ، وفائدته إزالة وهم من قد يظن أن الواو للتخيير بمعنى أو كقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ (٣) . وفائدة وصفها بالكمال الإشارة إلى أن رعاية العدد من المهام التى لا يجوز إغفالها ، بل يجب المحافظة عليها دون نقص في عددها ، ولا تهاون في أدائها ، وإلى أن هذا البذل كامل في قيامه مقام المبدل منه ، وهما في الفضيلة سواء .

(١) سورة المائدة آية : ٩٥ .

(٣) سورة النساء آية : ٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٧ ط الشعب .

ثم بين سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج ، وما يتبعه من الأحكام ؛ خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم قال : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ ، أى إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ، ثم السفر إلى العمرة وحدها ، أما أهل الحرم فليسوا في حاجة إلى ذلك ، فلا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام .

﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، أى اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاز عن نواهيه ، واحذروا أن تعتدوا في ذلك ، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرمة وركب معاصيه .

الحج المبرور

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

المفردات : ﴿ فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه ، والرفث لغة : قول الفحش ، وشرعاً قربان النساء ، والفسوق لغة : التنازع بالألقاب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ بشئ الاسم الفسوق ، وشرعاً : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً في الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط ، والجidal : المراء والخصام ، ويكون عادة بين الرفقة والخدم في السفر ، لأنه مشقة تضيق بها الصدور ، والزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر ، والتقوى : هى ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتزهد عن المنكرات والمعاصي .

وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث شريفة بين فيها فضل الحج ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور) (١) . رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (٢) رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (٣) رواه البخارى ومسلم .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٠٩ ط الشعب .

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

وعن ابن شماسه رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : ابسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده فقبضت يدي فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لي . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟^(١) رواه ابن خزيمة ومسلم^(٢) .

وعن الحسن بن علي رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني جبان ، وإني ضعيف . فقال : (هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج)^(٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد فقال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)^(٤) . رواه البخارى وغيره .

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده بإتمام الحج والعمرة وبين حكم الإحصار والتمتع ، بين سبحانه بعد ذلك أن الحج عبادة موقوتة بأشهر معلومات ، وهى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، وإنما أطلق الأشهر على شهرين وعشرة أيام من باب التغليب ، أى تنزيل العشرة منزلة الشهر ، ومن ثم فإن بعض الفقهاء يرى أن الأشهر المعلومات ثلاثة : شوال وذو القعدة وذو الحجة . والحج لا يجوز في العام إلا مرة واحدة ، لأن الحج عرفة ، وعرفات في اليوم التاسع من ذى الحجة ، أما العمرة فإنها جائزة طوال العام ، وأفضل ما تكون في رمضان ، قال ﷺ : (عمرة في رمضان تعدل حجة معي)^(٥) ، والعمرة طواف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ، أما الحج فيزيد عليها الوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، والمبيت بمنى . قوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ، أى فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والنية فعليه أن يلتزم بهذه الآداب ، إذ الحج مدرسة أخلاقية عليا ، ومثل رفيعة من كريم السجايا ، فعلى من أوجب الحج على نفسه أن يجتنب الرفث ، وهو الجماع ودواغيه من القبلة واللمس والكلام بهذا الشأن مع النساء ، وعليه أن يجتنب الفسوق ، والمقصود به المعاصي ، ويشمل السباب كما في قوله ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، كما يشمل التنازب بالألقاب ، وهو أن تنادى أخاك باسم يكرهه ، وذلك أن تسميه بعاهة فيه كقولك له يا أعرج يا أعمش ، قال تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾^(٦) ، وهذا جانب عظيم من جوانب الأخلاق الإسلامية .

(١) يعنى أن الحج يسبب غفران الذنوب ويزيل الخطايا إلا حقوق الأدمى ، فإنها في الذمة حتى يجمع الله أصحاب الحقوق ليأخذ كل حقه ، ومن الجائز أن الله تعالى يتكرم فيرضى صاحب الحق بما أعد له من النعيم وحسن الجزاء فيسامح المدين تفضلاً وتكرماً ، ولا بد من أداء حقوق الأديين وحقوق الله مبنية على تسامح الكريم الغفور الرحيم .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ص ١١١ .

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٢٣ ط الشعب .

(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق
فإذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

قوله تعالى : ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ ، أى لا جدال في مناسكه بعدما بينها الله ، وذلك من الوقوف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، أو الوقوف بعرفة ، أو المبيت بمنى ، وقد يكون المراد بالجدال المراء والمخاصمة واللجاج ، وكلها تغضب الناس ، بل يجب على الحاج أن يكون سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى .

وإن كانت هذه الأخلاق واجبة على كل حال ، إلا أنها في الحج أكد ؛ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : (من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه) قال تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ ، والخير هنا يشمل وجوه البر من إغاثة الملهوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصلة الأرحام والقيام بالليل والناس نيام ، وتعلق علم الله تعالى بهذه الخيرات ، مع أنه سبحانه قد وسع كل شيء رحمة وعلما ، إلا أن تخصيص العلم فيه دلالة على عظم هذا الخير عند الله كما في قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ ^(١) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ ^(٢) ، ثم أمر الله تعالى بعد ذلك بالتزود ، أى أخذ الزاد من طعام ونفقة حتى يكف وجهه عن سؤال الناس ، وأن يكون ذلك من حلال ، لأن الحاج إذا قال : لبيك اللهم لبيك ، قال له الملك : لبيك وسعديك ، زادك من حلال ونفقتك من حلال وحجك مأجور غير مأزور . هذا هو الزاد للحج الذى قال الله فيه ﴿ وتزودوا ﴾ ، أما الزاد للآخرة فقد قال فيه تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ ، والتقوى كما فسرهما العلى الأعلى في مطلع سورة البقرة بقوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ ^(٣) ، فالتقى هو الذى آمن بالغيب وأقام الصلاة وأنفق مما آتاه الله وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء وأيقن بالبعث بعد الموت .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركز إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاق
أترضى أن تكون رقيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى ذوى العقول عامة فقال : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾ ، فما أجمل العقل إذا استعمله صاحبه في طاعة ربه ، وما أتعسه إذا استعمل في الشر والفساد ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ^(٤) .

(٣) سورة البقرة الآيات : ٢ - ٤ .

(٤) سورة الاعراف آية : ١٧٩ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٦ .

أحكام تتعلق بالحج

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

المفردات : الجناح : الحرج ، والإثم من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا ﴾ : أى تقصدوا وتطلبوا . و ﴿ فضلا ﴾ : أى عطاء ورزقا منه بالربح فى التجارة أيام الحج . والإفاضة من المكان : الدفع منه ، أى أفضتم أنفسكم ودفعتموها ، ويقال : أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق . و ﴿ عرفات ﴾ : موقف الحاج فى أداء النسك ، وسمى بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه ، وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه الحاج بعرفات وهو التاسع من ذى الحجة . والذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد ، والمشعر الحرام : هو جبل المزدلفة ، يقف عليه الإمام ، وسمى بهذا الاسم لأنه معلّم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته ، فلا يفعل فيه ما نهى عنه .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه البخارى ، رضى الله عنه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ فى موسم الحج^(١) . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يتقنون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر فأنزل الله : ﴿ ليس عليكم جناح ﴾^(٢) . وقد سئل ابن عمر عن الرجل يحج ومعه تجارة ، فقرأ ابن عمر : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ . وقد سئل ابن عمر فقيل له : إنا نكرى ، أى نستأجر ، فهل لنا من حج ؟ فقال : أستم تطوفون بالبيت وتأتون المعروف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ ، فدعاه النبى ﷺ فقال : (أنتم حجاج)^(٣) . قوله تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ . اعلم بأن الحج عرفة ، أى هو الركن الأعظم ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج . وعرفة هو موضع الوقوف ، كما أن عرفة محدد باليوم التاسع من ذى الحجة ، وقد ورد فى فضله ما يدل على عظم الأجر للواقفين فيه ، فخير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة ، وهو أكثر الأيام عتقا من النار ، وإن الله تعالى ليدنوكم يباهى الملائكة بأهل عرفة ويقول لهم : ما أراد هؤلاء ؟ ويقول : هؤلاء عبادى أتوني شعثا غبرا ضاحين يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم . أفيضوا عبادى مغفورا لكم ولمن شفعتم فيهم .

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٤٩ ط الشعب .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

قال ﷺ : (الحج عرفات) قالها ثلاثا ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ؛ وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : (لتأخذوا عني مناسككم)^(١) . وإنما سميت عرفة لأن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات .

عن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد ، وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد ، فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رعوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإننا ندفع بعد أن تغيب الشمس ، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت في رعوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإننا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك)^(٢) ، والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم .

ما حكم الوقوف بالمشعر الحرام ؟

قال الفقهاء : الوقوف بالمشعر الحرام ركن عند البعض ، لا يصح الحج إلا به ، ومن هؤلاء طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي . وقال البعض : هو واجب يلزم بتركه دم ، كما هو أحد قولي الشافعي . وقال الآخرون : هو مستحب لا يلزم بتركه شيء وهكذا تبين أن الحجاج بعد أن يفيضوا من عرفات يتوجهون إلى المزدلفة ليدكروا الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرا مطابقا لهدى الله تبارك وتعالى لهم . ولقد كانوا من قبل أن يهديهم الله يذكرون الله تعالى ذكرا يشوبه الشرك كقولهم : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك ملكته وما ملك . فعلمهم الله على لسان رسوله أن الذكر يجب أن يكون خالصا صافيا من كل شائبة ، فكانت التلبية لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . ومعنى لبيك أي أجيبك مسرعا مرة بعد مرة . قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ ، ﴿ إن ﴾ هنا مخففة من الثقيلة ، والتقدير : وإن كنتم من قبل تعليمه لكم وبيان الهدى من الضالين الغافلين .

وبعد ما بين الله تعالى الوقوف بعرفات ، وهو ركن الحج الأعظم ، والوقوف بالمزدلفة بعد ذلك . وقد رأى بعض الفقهاء ، كما ذكرنا سابقا ، أنه ركن لا يصح الحج إلا به ، ورأى البعض أنه واجب يلزم بتركه دم ، ورأى آخرون أنه مستحب لا يلزم بتركه شيء . وأمرهم تعالى بذكره بعد ذلك ذكرا خاليا من شوائب الشرك . أمرهم سبحانه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، والناس يفيضون من عرفات إلى المزدلفة . أما قریش فقد كانت تقف بالمزدلفة وتفيض منها إلى منى ولا تقف مع الناس بعرفات ، وكانوا يجدون في ذلك ميزة لهم وخاصية عن بقية الناس ، فأمرهم تعالى أن يقفوا بعرفات كما يقف بقية الناس ، وأن يفيضوا من عرفات

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٢ .

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

إلى المزدلفة كما يفيض بقية الناس . وقريش هم الخمس ، ومفرد الخمس أحمس ، وهو الشديد الصلب . ولما جاء الإسلام قضى على العصية وأعلنها صريحة مدوية (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) . لما كان ذلك كذلك فلا ميزة لأحد على أحد في المناسك : فعليكم يا قريش أن تلتزموا هذه التعليمات الإلهية . قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . . . روى الإمام البخارى رضى الله عنه بسنده عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يارسول الله علمنى دعاء أدعوه فى صلاتى فقال : (قل اللهم إني ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم) (٢) . وكثيرا ما يأمر الله بالاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا ، (٣) وفى الصحيحين أنه ندب الى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين وخبر : أما الأمر الأول فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ ، وقد روى الإمام البخارى فى معنى هذا الحكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الخمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها (٤) .

والأمر الثانى قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ . ولقد تبين أن الاستغفار من لازمه جعل الله له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل شدة مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وقد جاء رجل إلى الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فشكا له قلة المطر ، فأمره الحسن بالاستغفار . وجاء ثان فشكا له قلة المال ، فأمره بالاستغفار وجاء ثالث فشكا له قلة البنين فأمره بالاستغفار ، وجاء رابع فشكا له قلة النبات فأمره بالاستغفار ، وجاء خامس فشكا له قلة الأنهار فأمره بالاستغفار ؛ فعجب الجالسون وقالوا : أوكلما جاءك شك أمرته بالاستغفار ؟ فقال لهم : أوما قرأتم قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (٥) .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (٦) . وما أجمل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ مُجِيبَ الدُّعَاءِ ﴾ (٧) .

(٤) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

(٥) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .

(٦) سورة النساء آية : ٦٤ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

غفوراً رحيماً ﴿١﴾ . وما أكرم قوله جل شأنه : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ ﴿٢﴾ .

ومن فضل الله تعالى على المؤمنين أن الملائكة تستغفر لهم ويطلبون من الله المغفرة إكراماً وإنعاماً . قال جل شأنه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ ﴿٣﴾ . وما أجل قوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ ﴿٤﴾ . وما أكرم قوله جل شأنه على لسان نبيه هود : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ ﴿٥﴾ .

قال أبو بكر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ﴿٦﴾ ، فشاكلة العبد المعصية ، وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : وقرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ ﴿٧﴾ . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ﴿٨﴾ . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ﴿٩﴾ .

وهكذا تبين لنا الأمر بالإفاضة مقترناً بالأمر بالاستغفار ، وجاء الخبر مقترناً بالأمر بالاستغفار في قوله تعالى : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ، أى اطلبوا المغفرة من الله لأن من شأنه أن يغفر ويرحم ، وما أكثر اقتران المغفرة بالرحمة ، لأن رحمة الله بعد المغفرة تتجلى فى ستره للعبد . بل هناك ما هو أبعد من ذلك كرماً ، فإنه تعالى ينسى الحفظة الكاتبين ذنوب العبد الذى تاب وأناب واستغفر حتى لا يكون لأحد عليه كشف يترتب عليه الشماتة .

يامن له علم الغيوب ووصفه	ستر الذنوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى	كرماً فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم الفتاح

(٦) سورة الاسراء آية : ٨٤

(٧) سورة غافر آية : ٣

(٨) سورة الحجر آية : ٤٩

(٩) سورة الزمر آية : ٥٣

(١) سورة النساء آية ١١٠ .

(٢) سورة هود آية : ٣ .

(٣) سورة غافر آية : ٧ .

(٤) سورة الشورى آية : ٥ .

(٥) سورة هود آية : ٥٢ .

قضاء المناسك

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

المفردات : الخلاق : الحظ والنصيب ، وحسنة الدنيا هي العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة أو العلم والمعرفة ، وحسنة الآخرة هي الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة ، والأولى التعميم في كل هذا .

إن المقصود بالمناسك هنا أعمال الحج ، والمراد بقضائها ، أداؤها كما في قوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (١) . ولكل منسك من تلك المناسك أجر عظيم لمن أداه مخلصا لله وجهه . وفي حديث للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الأجر جليا يأخذ بالآل باب ويشد القلوب إلى هناك وما أدراك ما هناك : هناك الصفاء كله والسمو الرفيع والشفافية الروحية . وهذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة الناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف ، فسما ثم قالا : يا رسول الله جئنا نسألك ، فقال : إن شئكما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت ، وإن شئكما أن أمسك وتسألاني فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يا رسول الله ، فقال الثقفى للأنصارى : سل . فقال أخبرنا يا رسول الله . فقال : جئتنى تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه . مع الإفاضة . فقال : والذي بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك . قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ، ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة ، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول : عبادى جاءونى شعنا من كل فج عميق يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو

كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفورا لكم ، ولن شفعتم له ؛ وأما رميك الجمار فمذخور لك عند ربك ، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما تستقبل فقد عُفِرَ لك ماضى . (رواه الطبرانى فى الكبير والبرار) .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أن العرب فى الجاهلية كانوا يجتمعون بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم ، يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يُطعم ويحمل الحملات والديات ، ليس له ذكر غير فعال آبائه ، فأنزل الله هذه الآية . ويروى أنهم كانوا يقفون بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتناشدون ، فأمرهم الله أن يذكره بعد قضاء مناسك الحج ، كما كانوا يذكرون آباءهم فى الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم .

وقد جاء الأمر بالذكر يفوح طيبا ومسكا فى هذا الجو الذى تعانق فيه القلب واللسان فى تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وتهليله . نرى ذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ ^(١) ، كما نراه بعد قضاء المناسك فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْاسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ ، كما نراه فى أيام منى فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ . والذكر هو استحضر عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ولا بد أن يصحبه تفكير يوقظ القلب ويبعده عن الغفلة . فالذكر بلا تفكير غفلة ، والفكر بلا ذكر جفاء . لذلك وصف الله عباده الصالحين بقوله : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار ^(٢) ، فإذا كان الذكر بلا فكر غفلة ، فإن الفكر بلا ذكر جفاء . وإذا كان ذلك كذلك فإن الذكر مع الفكر وفاء . وأنت ترى أن اللسان وحده إذا كان بينه وبين القلب سور ، فإن ذكر اللسان لا يترك للذاكر أثرا من آثار النورانية المشرقة . ذهب بلال ليؤذن الفجر فى مسجد الهادى البشير صلى الله عليه وسلم فوجد النبى يبكى فسأله : مايبيك يارسول الله ؟ قال : يا بلال لقد أنزل على الليلة آية ، ويل لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه ثم قرأ : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ . فليعلم الذاكرون أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

ذكروا أن رجلا من الصالحين اسمه ثابت كان يمر ذات يوم فى إحدى طرقات الكوفة فوجد شجرة قد سقطت منها تفاحة خارج سور الحديقة فأخذها وأكل نصفها ثم تذكر أنه ما كان له أن يفعل ذلك ، فذهب إلى حارس الحديقة وقال له : ساعحنى فيما أكلت ودفع إليه نصفها الآخر ، فقال له الحارس : لا أملك السماح لأننى لا أملكها . قال له : فأين صاحبها ؟ فدلّه عليه فذهب إليه ثابت وأخبره الخبر ، فقال له

(٢) سورة آل عمران الآيةان : ١٩٠ ، ١٩١ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

صاحب البستان : لا أسأحك حتى تقبل شرطى عليك . قال وماذا ؟ قال : أن تقبل الزواج بابنتي وسأعرض عليك أوصافها : إنها عمياء بكماء صماء مقعدة . وهنا ذهب الرجل في موجات عاصفة من الفكر ، فقد هبت عليه رياح هوج تحمل قيظ الهواجر وكأن في نفسه سؤالا قد اعتمل : أمن أجل نصف تفاحة ألقى هذا الجزاء ؟ ولكن سرعان ما نزلت السكينة قلبه واستنار فؤاده بالرضى : ولماذا لا أتزوجها لأنال رضا الله فيها ؟ ومن الذى يتزوجها إن لم أتزوجها أنا ؟ . وقال لأبيها : لقد قبلت زواجها ياسيدى . وتم زواجها ولم يرها ، وذهب ليعد نفسه لاستقبالها ، ولكن أباهما قد هيا له المكان في بيته ، ودخلت الفتاة لتكون في استقبال زوجها ، وقال أبوها له : ادخل على زوجك بارك الله لكما في ليلتكما ، ودخل ثابت عليها وألقى السلام ، وقد أخبر من قبل أنها صماء ، ولكن الملائكة سترت ، فمن ألقى السلام في بيته على أهله كثر الخير في بيته وطردت منه الشياطين ، ولكن ما أن ألقى السلام عليها حتى نهضت واقفة وصافحته وردت عليه السلام ، قال الرجل : فنظرت إلى وجهها فكأنه قطعة قمر . وبعد أن استجمع أنفاسه سأها : لقد أخبرنى أبوك بأنك عمياء صماء بكماء مقعدة ! قالت له : نعم لقد صدق أبى فيما أخبر : إننى عمياء لا أرى ما حرم الله ، صماء لا أسمع ما يغضب الله ، بكماء لا أتكلم إلا بما يرضى الله ، مقعدة لا أمشى إلى ما يسخط الله . ودخل بها فرزقه الله منها إماما جليلا ملأ طباق الأرض علما وفقها ، انفرد بثلاثة أرباع العلم ، وشارك العلماء الباقيين في الربع الباقي ، إنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ (١) ، وصدق رسوله إذ يقول : (فاظفر بذات الدين تربت يداك) (٢) ، وإذ يقول : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) (٣) . وقد صدق بعض الصالحين إذ يقول : « لا تزوج بتك إلا لتقى ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لا يظلمها » . فهذا رجل من أجل نصف تفاحة ذكر الله فطلب السماح من صاحبها . فما أجمل استحضار عظمة الله في القلب ، وما أعظم أن يشيع ذكر الله في كيان الإنسان كله . قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأذكاهم عند مليككم وأرفعهم في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى . قال : ذكر الله) (٤) . والحجيج ، على وجه الخصوص ، مطالبون بالإكثار من ذكر الله ، من تهليل وتكبير وتلبية ، حتى إن الأصوات لتنبج من كثرة الذكر . لقد كانوا إذا فرغوا من أداء المناسك يذكرون أمجاد الآباء ويفخرون بهم ، فلما أظلمهم الإسلام بظلمة أمرهم أن يلهجوا بالذكر الله كما كانوا يلهجون بذكر الآباء ، بل أمرهم أن يكونوا أشد ذكرا ؛ ثم فرّع على ذلك مسألة من مسائل الذكر ، فقسّم الناس قسمين :

قسم يطلب من الله الدنيا ولا نصيب له في الآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ ، وهؤلاء قد أصيبوا بالغفلة ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . قال

(١) سورة الأعراف آية : ٥٨ .

(٢) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ٥١٧ ط دار الفكر .

(٣) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ٥٧ ط دار الفكر .

(٤) نفس المصدر

تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ (١) . والفريق الثاني جمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة ، وقد قال الله تعالى في وصف هذا الفريق : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ . وهكذا يعلمنا الله الأدب في الدعاء فاسأل الله أن يؤتيك الحسنة في الدنيا والآخرة ، ثم سلم إليه الأمر في تحديد تلك الحسنة ، فإن يد الله تعمل في الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وحسنة الدنيا تشمل الدار الواسعة ، والزوجة الطائعة التي إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك . كذلك تشمل المركب السريع ، والجار الطيب . وقد قالوا : إن من رزق لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد جمع بين حسنتي الدنيا والآخرة . والصنعة والمال وراحة البال والرضا بما قسم الله ، والعلم والمعرفة من حسنات الدنيا ؛ والجنة ورضوان الله والنجاة يوم الحشر من حسنات الآخرة . ولا تحسبن أن حسنة الدنيا مقصورة على صرف مرتبك من الصراف ، فإن الصراف إذا صرف لك فإن الله تعالى سيصرف عنك . الصراف يصرف راتباً والله يصرف عنك الهم والحزن والسقام والشقاء ويرزقك الرضا . وقد كان من دعاء الصالحين : اللهم رضا بقضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

لا تقترح على الله أن يرزقك المال أو الولد ، فقد يكثر المال وتكثر معه الهموم والأحزان ، وقد تأتى الأولاد وتأتى معها البأساء والضراء والشقاء . ولكن اسأله الحسنة وفوض له الأمر بعد سؤلها ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

كان بعض الصالحين ينام على الطوى وكانوا يقولون : نحن في سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف - لقد عاد النبي ﷺ مريضاً فوجد المرض قد برّح به حتى صار كالفرخ الضعيف ، فقال له الرسول (ص) : ألا تدعو الله ؟ قال : يا رسول الله أدعوه . قال : فماذا تقول في دعائك ؟ قال أقول : اللهم إن كنت معذبى بشيء في الآخرة فعجله لى في الدنيا . فقال له الهادى البشير : إنك لا تطيق ذلك ، هلاً قلت : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (٢) . وما أجمل أن يسأل العبد ربه الوقاية من عذاب النار ، وذلك بالبعد عن الأسباب المؤدية لغضب الله من الشبهات والشهوات . فاللهم إنا نسألك علماً نافعا ، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يُسمع .

وقد حكم الله لهذا الفريق الذى جمع في دعائه بين حسنتي الدنيا والآخرة بقوله : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ أى نصيب من خير الدنيا ، لأنهم سلكوا في تحصيل ذلك الأسباب التى شرعها الله وأحلها ، فأكلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، واجتنبوا خطرات الشيطان . ولهم نصيب مما كسبوا فى الآخرة لأنهم أخذوا الأسباب إلى رضوان الله ؛ وما أجمل تلك النصيحة التى وجهها القوم إلى قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٦ ط الشعب .

(١) سورة الشورى آية : ٢٠ .

إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ ، ذلك لأن الله لا يعوقه شيء ، فكل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ؛ من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . نعم إنه سريع الحساب ، ليس في حاجة إلى آلة حاسبة ولا مستشار ولا معين ولا قضاة ، فهو القائم بذاته ، الغنى عمن سواه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ (٢) ، إنه سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٣) . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٤) . ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٥) . وكيف لا يكون سريع الحساب وهو القائل : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ ، قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر من ذى الحجة . وقال عكرمة : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ يعنى التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر . الله أكبر .

قال رسول الله ﷺ : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) (٧) .

والمراد بأيام التشريق الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر ، قال تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ أى من رمى الجمار في يومين من أيام التشريق الثلاثة ثم رحل واكتفى بهذين اليومين فلا إثم عليه ولا جناح . ومن تأخر إلى اليوم الثالث ورمى الجمار فلا إثم عليه ، فكلا الأمرين جائز ، ولكن الأمر كله يدور على تقوى الله ، فمن تعجل متقيا مخلصا عمله الله فلا إثم عليه ، ومن تأخر ملتزما تقوى الله فلا إثم عليه . وقد ختم الله مشهد الحج عندما ينصرف الحجاج إلى بلادهم ويرجعون بعد أداء المناسك ، ختم الله هذا المشهد المهيب بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى لا ترجعوا بعد أداء الفريضة مشتغلين بالدنيا لاهين عن ذكر الله ، لأن المرجع إلى قبل الانصراف وبعده ، فقد وقفتكم في صعيد عرفات متجردين من المخيط والمحيط ، لا ألقاب ولا رتب ولا أوسمة ولا نياشين ، كذلك ستشرون يوم الحشر في صعيد القيامة . قال تعالى : ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ .

ولنأخذ الآن في بيان كيفية الحج ، كما تحدثت عن ذلك كتب الفقه :

- | | |
|------------------------------------|---|
| (١) سورة القصص الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ . | (٥) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ . |
| (٢) سورة لقمان آية : ٢٨ . | (٦) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ . |
| (٣) سورة الأنبياء آية : ٤٧ . | (٧) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٢٥٧ ط الشعب . |
| (٤) سورة ياسين آية : ٨٢ . | |

كيفية الحج

إذا قارب الحاج الميقات استُحبَّ له أن يأخذ من شاربه ويقص شعره وأظافره ويغتسل أو يتوضأ ويتطيب ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم - أي نوى الحج إن كان مفرداً ، أو العمرة إن كان متمتعاً أوهما معا إن كان قارناً ، وهذا الإحرام ركن لا يصح النسك بدونه . أما تعيين نوع النسك من أفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً ، ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفاً ، أو هبط وادياً ، أو لقي ركبا أو أحداً ، وفي الأذكار وفي دبر كل صلاة . وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ، ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لا فائدة فيه ، وألا يتزوج ولا يزوج غيره .

ويتجنب أيضاً لبس المحيط والمخيطة والحذاء الذي يستر ما فوق الكعبين ، ولا يستر رأسه ، ولا يمس طيباً ولا يخلق شعراً ولا يقص ظفراً ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ، ولا لشجر الحرم وحشيشه .

فإذا دخل مكة المكرمة استُحبَّ له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكرة أدعية دخول المسجد ومراعي آداب الدخول وملتزمًا الخشوع والتواضع والتلبية .

فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه فيسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب في ذلك ، ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود ، فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه . ثم يقف بحذاء الحجر . ملتزمًا الذكر المسنون ، والأدعية المأثورة ثم يشرع في الطواف .

ويستحب له أن يضطجع ويرمل في الأشواط الثلاثة الأولى ، ويمشي على هيئته في الأشواط الأربعة الباقية . ويُسنُّ له استلام الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود في كل شوط .

فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) . فيصلى ركعتي الطواف ثم يأتي « زمزم » فيشرب من مائها ويتصلع منه .

وبعد ذلك يأتي « الملتزم » فيدعو الله عزَّ وجلَّ بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة . ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ .
(الآية (٢))

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٨ .

(١) سورة البقرة آية ١٢٥ .

ويصعد ويتجه إلى الكعبة فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشي في السعى ذاكرًا داعيًا بما شاء . فإذا بلغ « مابين الميئين » يهرول ، ثم يعود ماشيًا على رسله حتى يبلغ المروة ، فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيًا ذاكرًا . وهذا هو الشوط الأول ، وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم . فإذا كان المحرم متمتعًا حلق رأسه أو قصر . وبهذا . تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظورًا من محرمات الإحرام حتى النساء . أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفي اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد ثمة ، واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام وإلا صلى جمعاً وقصراً حسب استطاعته .

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال ، فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها ، فإن هذا موضع وقوف النبي ﷺ .

والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم . ولا يُسن ولا ينبغي صعود جبل الرحمة . ويستقبل القبلة . ويأخذ في الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل .

فإذا دخل الليل أفاض إلى « المزدلفة » فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ويبت بها .

فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيراً حتى يُسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى « منى » .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه . ويحلق شعره أو يقصره . وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه . ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة . وهو طواف الركن - فيطوف كما طاف في طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضاً طواف الزيارة . وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارناً وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر . وبعد هذا الطواف يحل له كل شيء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها ، والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئا بالجمرة التى تلى « منى » ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى . داعيا ذاكرا . ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها .

وينبغى أن يرمى فى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك . ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة . ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة والمبيت بـ « منى » والذبح والحلق أو التقصير . هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

حجة رسول الله ﷺ

فى العام العاشر من الهجرة أذن المؤذن فى الناس أن رسول الله ﷺ قد عزم بمشيئة الله على أداء الحج ، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع ، لأن الرسول لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، وتسمى حجة الإسلام ، لأن الرسول ﷺ بلغ فيها وبين أصول الإسلام ، كذلك تسمى حجة البلاغ ، لأنه ﷺ بلغ فيها قواعد الدين وشعائر العبادات وأصول العقائد ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك . ولنذهب الآن إلى الصحابى الجليل جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، يحدثنا عن هذه الحجة المباركة ، وذلك فيما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلى ؟ فقلت : أنا محمد بن على بن حسن ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فترع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثدى ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يا بن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجة ملتحقا بها ، فلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ ، فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم

أذن في الناس في العاشرة : إن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : اغتسل واستغفر بثوب واحرمي [معنى الاستغفار : أن تشد في وسطها شيئا ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها لمنع سيلان الدم] . فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء [معنى القصواء اسم لناقة النبي ﷺ] ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مدبصري بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شيء عملنا به . فأهل [معناها من الإهلال] ، وهو رفع الصوت بالتلبية . فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذي يهلون به ، فلم يرُدُّ رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن ، فَرَمَلْ ثَلَاثًا ، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ في الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج إلى باب الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى ، سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال : « لو أتي استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل . ويجعلها عمرة .

فقام سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله العَمَامِنَا هذا أم لأبد ؟ فشَبَّكَ رسول الله ﷺ أصابعه ، واحدة في الأخرى ، وقال دخلت العمرة في الحج مرتين لا . بل لأبد أبد .

وقدم على من اليمن ببدن النبي ﷺ ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حَلَّ ، ولبست ثيابا صبغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . قال : فكان على يقول بالعراق ، فذهبت إلى

رسول الله ﷺ مُحَرَّشًا [التحريش : الإغراء . والمراد هنا أن يذكر له ما يقتضى عتابها] على فاطمة للذي صنعت ، مستفتيا رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها ، فقال : صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

قال : قلت : اللهم إني أهل بما أهل به رسولك ..

قال : فإن معي الهدى فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا ، إلا النبي ﷺ ، ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية [يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذي الحجة] ، توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج .

وتوجه رسول الله ﷺ ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة . فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفه فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فرحلت له . فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا ، دم ابن ربيعة بن الحارث [كان مسترضعا في بني سعد ، فقتله هزيل] ، وربما الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخترتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاثة مرات » .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فضلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شق [أى ضم وضيق] للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس . السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا . فرفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به طُعن [الطعن : جمع طعينة ، وهى البعير الذى عليه امرأة ، ثم سميت به المرأة مجازا لملاستها البعير] ، مرت به طُعن يجري ففطق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر فوضع يده على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر لئلا ينظر ، حتى أتى بطن مُحَسَّر ، فحرك قليلا . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف ، رمى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة : أى القطعة من اللحم فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : « انزعوا بنى عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس على سقائكم لتزعت معكم » . فناولوه دلوفا فشرب منه .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ، ونفائس من مهمات القواعد : قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه . قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى ، وعلى استئفار الحائض والنفساء ، وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ . فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوبا منك ومرغوبا إليك .

وأنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن - الحجر الأسود - قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى - والرمل أسرع المشى مع تقارب الخطأ ، وهو الخُتْب . وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين . ثم يمشى أربعاً على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين . ويقرأ فيهما فى الأولى - بعد الفاتحة - سورة (الكافرون) وفى الثانية - بعد الفاتحة - سورة (الإخلاص) . ودل الحديث أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن الاستلام سنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ، ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه ، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويرمل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له « بين الميلىن » ، وهو - أى الرمل - مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأولى كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .

وبتمام ذلك تتم عمرته . فإن حلق أو قصر صار حلالاً . وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارناً ، فإنه لا يحلق ولا يقصر ، ويبقى على إحرامه ثم في يوم التروية - وهو الثامن من ذي الحجة - يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى . والسنة أن يصلى بمبنى الصلوات الخمس ، وأن يبيت بها هذه الليلة - وهي ليلة التاسع من ذي الحجة . ومن السنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ «عرفات» فإنه ﷺ نزل بنمرة ، وليست من عرفات .

ولم يدخل - ﷺ - الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج .

والثانية : - أى من الخطب المسنونة - يوم السابع من ذي الحجة ، يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة : - أى من الخطب المسنونة - يوم النحر .

والرابعة : يوم النفر الأول . وفي الحديث سنن وآداب منها : أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين . وأن يقف - في عرفات - راكباً أفضل . وأن يقف عند الصخرات ، عند موقف النبي ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس ؛ ويكون في وقوفه داعياً لله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً . فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا في سببه ، فقيل : إنه نسك ، وقيل : لأنهم مسافرون - أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا في كونه - أى المبيت - واجباً أو سنة . ومن السنة ، أن يصلى الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك ، فيأتى المشعر الحرام فيقف به ، ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك . . ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً ، فيأتى بطن محسر فيسرع السير فيه ، لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل ، فلا ينبغي الأناة فيه ، ولا البقاء فيه .

فإذا أتى الجمرة - وهي جمرة العقبة - نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات ، كل حصاة كعبة الباقلاء - أى الفول - يكبر مع كل حصاة . ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر - إن كان عنده هدى - ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة - وهو الذى يقال له : طواف الزيارة .
ومن بعده يحلُّ له كل ما حُرِّمَ عليه بالإحرام ، حتى وطَّء النساء .
وأما إذا رمى جمره العقبة ، ولم يَطُفْ هذا الطواف ، فإنه يحلُّ له كل شيء ما عدا النساء .
هذا هو هدى رسول الله ﷺ في حجه ، والآتي به مُقتد به - ﷺ - وممثِّل لقوله : (خذوا عني مناسككم) . وحجه صحيح .

نماذج مختلفة من الناس

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

المفردات : يقال : أعجبه الشيء ، أى راقه واستحسنه ، ورآه عجباً ، أى طريفاً جديداً غير مبتذل ، وتقول العرب : الله يشهد أو الله يعلم ، أى أريد كذا ، تقصد بذلك الحلف واليمين ، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ (١) . واللدد : شدة الخصومة ، والخصام : الجدال ، وتولى : أى أدبر وانصرف عن مجلسك ، والسعى : السير السريع بالأقدام ، والمراد به هنا الجد في العمل والكسب ، ويهلك : أى يضيع ، والحراث : الزرع ، والنسل : ما تناسل من الحيوان ، والمراد من : هلاكهما الايذاء الشديد ، أخذته : أى لزمته ، والعزة في الأصل خلاف الذل ، والمراد بها هنا الانفة والحمية ، بالإثم : أى على الذنب الذى نهى عنه واسترسل في فعله ، حسبه : أى كفيه ، والمهاد : الفراش يأوى اليه المرء للراحة ، ويشري : يبيع ويذل ، ابتغاء : أى طلبا .

هذا المشهد القرآني بين الله فيه حال صنفين من الناس ، وقد جاء هذا المشهد عقب بيان صنفين سبق ذكرهما ، كان الصنف الأول يقول : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ﴾ (٢) . وكان الصنف الثاني يقول : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (٣) . وقد أمر الله بعد ذلك عباده بالتقوى ، فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ (٤) . ولما كانت التقوى محلها القلب ،

(١) سورة يس آية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٠٣ .

كما أشار بذلك النبي ﷺ في قوله : (التقوى ها هنا) ، مشيراً إلى صدره ، فإن هناك فريقاً من الناس يجند عباد الله ، فيضمر في قلبه مالا يظهر على لسانه ويظن بذلك أنه التقى النقي الطاهر الورع ؛ هذا الفريق يعجبك قوله في الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (١) . هذا الفريق يُشهد الله على ما في قلبه وهو يعلم أنه كاذب غادر أفاك أئيم . قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) . فإذا قلت لقد حلفوا وأقسموا في قولهم والله يعلم إنك لرسوله . وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ قال لك الله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، أى جعلوا من الحلف وقاية من الكذب أمام الناس ، لكن الله يعلم ما في قلوبهم . ذلك لأن علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . كان المسيح ابن مريم يقول : (يا بني إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن لبسوا ثياب الملوك وألبنوا قلوبكم بخشية الله) ، قال جل ذكره في الحديث القدسي الجليل : (لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبى يغترون ، أم على يجترئون) .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً إن الكذوب يشين حراً يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

★ ★ ★

كم من صاحب يلقاك عناقاً ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً

ملاك في مظهره شيطان في مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . هذا الفريق معسول الكلام ، كثير الحلف ، ألد في الجدال ، عنده المقدرة الكلامية في الجدال والإفحام بالباطل . ومن صفات هذا الفريق أنه إذا تولى وانطلق وراء نفسه المعتلة المليئة بالعقد والحقد سعى في الأرض بالإفساد ، وما أكثر وجوه الإفساد ، فالنميمة والغيبة والسحر وشهادة الزور والقتل وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والظلم ، وإهلاك الحرث ، أى إفساد الزرع بقطعه ، وإهلاك النسل ، بقتل الحيوان سما وإتلافه ، والله تعالى لا يحب الفساد ولا يرضى عن المفسدين .

وهذا الفريق من صفاته أنه لا يقبل الحق ولا يستجيب لنصح الناصحين ، إذا قيل له اتق الله لزمه الصلف وأحاطت به الحمية والأنفة بالباطل ، فما جزاؤه ؟ حسب جهنم ، أى يكفيه ما في جهنم من شديد العذاب وبئس الفراش الذى يأوى إليه في جهنم ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤) .

أما الفريق الثانى ففريق الإخلاص والوفاء لله ، فريق باع نفسه في سبيل الله : ﴿ ومن الناس من

(٣) سورة المنافقون آية : ٢

(٤) سورة الاعراف : آية ٤١

(١) سورة المنافقون آية : ٤

(٢) سورة المنافقون آية : ١

يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴿ لا من أجل عرض ولا مغنم ولا منصب ولا كرسي مزور ولا جاه يفنى ، إنما ابتغاء ما عند الله من مرضاته ، ورضوان من الله أكبر ، وكأنه يقول لرافع السماء بلا عمد :
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ يدفع عنهم البلاء ويرحمهم إذا حل القضاء ، وهو القائل : أنا أرأف بعبادى من الأم بولدها .

قيل لعمر رضى الله عنه : اتق الله . فوضع خده على الأرض تواضعا ، قال بعض الجالسین للقائل : أتأمر أمير المؤمنين بتقوى الله ؟ فقال لهم عمر : لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . وكان رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوى . ولقى رجل هارون الرشيد يطوف بالبيت فقال له : يا هارون اتق الله . قال هارون : أتناديني باسمى ؟ فقال له : نعم . . إذا كنت أنادى على الله باسمه فأقول يا الله ، فكيف لا أناديك باسمك ؟ . وكان لأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز مستشار خاص يسمى عمر بن مهاجر ، قال له أمير المؤمنين : يا عمر ، إذا رأيتنى بُعدت عن الحق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر ، فإنك ستموت . فما أجمل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (١) ، وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) ، وما أجمل قوله جل جلاله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ (٣) ، وما أكرم قوله جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (٩) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (١٠) .

(٦) سورة التوبة آية : ١١٩ .

(٧) سورة يوسف آية : ٩٠ .

(٨) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٩) سورة الطلاق آية : ٤ .

(١٠) سورة الطلاق آية : ٥ .

(١) سورة النساء آية : ١ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .

(٣) سورة الحج آية : ١ .

(٤) سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .

(٥) سورة الحشر آية : ١٨ .

توجيه رباني كريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

المفردات : أصل السلم : التسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الإسلام . والخطوات : واحدها خطوة (بالضم) ما بين قدمي من يخطو . والزلل في الأصل : عثره القدم ، ثم استعمل في الانحراف عن الحق ، والبيّنات : الحجج والأدلة التي ترشد إلى أن ما دُعيتُم إليه هو الحق : عقلية كانت أو نقلية . والعزیز : الغالب الذي لا يعجزه الانتقام . والحكيم : الذي يعاقب المسيء ويكافئ المحسن . ينظرون : أى ينتظرون . يأتِيهم الله : أى يأتِيهم عذابه . والظلل : واحدها ظلة (بالضم) وهى ما أظلك . والغمام : السحاب الأبيض الرقيق . وقضى الأمر : أى أتم أمر إهلاككم وفرغ منه .

بعد أن بين سبحانه فيما سلف من الآيات أن الناس في الصلاح والفساد فريقان : فريق يسعى في الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، وفريق يبغى بعمله رضوان الله وطاعته - أرشدنا إلى أن شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد ، لا التفريق والانقسام .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ كافة ، أى في أحكامه كلها التى أساسها الاستسلام والخضوع لله والإخلاص له ، ومن أصوله : الوفاق والمسالمة بين الناس ، وترك الحروب بين المهتدين بهديه ، والأمر بالدخول فيه ، أمر بالثبات والدوام ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ ﴾ (٢) . وهذه دعوة من الله إلى جماعة المسلمين أن يأخذوا الإسلام بكل شعبه عقيدة وشريعة ، فلم التفرقة ، ولم الشقاق والنزاع ؟ لقد أخبر الصادق المعصوم في دعوته إلى وحدة الصف فقال : (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) . وقد بين الصادق المعصوم أيضا أن الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة ، قالوا : يا رسول الله وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي . وقوله جل شأنه : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ كقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ (٣) ، ثم حذر سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه مفرق الجماعات ، ومبيد الأمم ، ومفسد العلاقات . قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، ثم بين الغاية والحكمة من ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ، أى ظاهر العداء والشقاق : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٣

(١) سورة الأحزاب آية : ١

(٢) سورة الحديد آية : ٢٨

إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١﴾ ، ثُمَّ حَذَرَ سُبْحَانَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الزَّلْزَلِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ وَمِنْهُجِهِ فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ، أَيْ حَدَّثْتُمْ وَابْتَعَدْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ وَضُوحِهِ وَقِيَامِ الْأَدْلَةِ ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غَالِبٌ وَحَكِيمٌ ، يَضَعُ الْأُمُورَ فِي نَصَابِهَا : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبُّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَصلِحُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٤﴾ فَاحْذَرُوا يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْفِرْقَةِ وَاتَّبَاعِ خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَالْوُقُوعِ فِي الزَّلْزَلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ يَهْلِكُ الْأُمَمَ بِذُنُوبِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ ﴾ . قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مهدياً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجاء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ ، وقال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتَىٰ رَبُّكَ أَوْ يَأْتَىٰ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاءوا إليه قال : (أنا لها أنا لها) ، فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتى لفصل القضاء بين العباد ، فيشفعه الله ، ويأتى في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : « سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبحان قدوس رب الملائكة والروح ، سبحان قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذا السلطان والعظمة ، سبحان سبحانه أبداً أبداً » . وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي) ﴿٦﴾ .

(٤) سورة القصص آية : ٥٩

(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ط الشعب

(١) سورة فاطر آية : ٦

(٢) سورة هود آية : ١٠٢

(٣) سورة هود آية : ١٠٧

قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾^(١) ، وكقوله جل شأنه : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾^(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾^(٣) ، وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾^(٤) وكقوله جل جلاله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾^(٥) .

مع بنى اسرائيل

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المفردات : الآية : المعجزة الظاهرة التي لا يخفى أنها من عند الله كالعصا واليد البيضاء . والتبديل : تغيير الشيء من حال إلى حال . ونعمة الله وهي آياته الباهرة التي آتاها أنبياءه وجعلها مصدر الهدى والنجاة . والعقاب : عذاب يعقب الذنب . وزين له الشيء : حسن له . وسخر منه : استهزأ به . والحساب : التقدير .

بعد ما أمر الله تعالى المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة وأن يأخذوا شعب الإسلام كلها ، حذرهم سبحانه وتعالى من الزلل والانحراف فقال : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ .

بعد ذلك ذكر الله لهم عبرة بالغة في شعب غير وبدل ، إنه الشعب المعروف بنى إسرائيل ، قال الله تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ ، أى أسألهم سؤال تقرير ، فقد أرسل الله إليهم من الأنبياء كثيراً وكثيراً نظراً لما جلبوا عليه من الفساد والإفساد والشر المستطير ، فكمن من آية نزلت على يد نبيهم موسى ، وكمن من غمام ظللهم ؟ وكمن من طعام شهى من المن والسلوى نزل عليهم ؟ وكمن من عيون فجرت في حجر ؟ ومن أعظم تلك الآيات أن جاوز الله بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون . وكمن من آيات ظهرت على أيدي المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، ومع ذلك كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا وفريقاً

(٤) سورة الانفطار آية : ١٩

(٥) سورة الشورى آية : ٥٣

(١) سورة الحج آية : ٤١

(٢) سورة هود آية : ١٢٣

(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٤

يقتلون . فيا أمة الإسلام : إن الطريق واضح ، وإن الحق لائح ، وإن المنادى صائح ، وقد جاءكم من الأنبياء ما فيه مزدجر . فاستقيموا على طريق الجادة وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، واعلموا أنه من يبدل نعمة الله كفراً فإن مصيره دار البوار جهنم : وقد تكون نعمة الله المقصود بها الإسلام ، فمن بدل دينه وتنكب طريق الحق من بعد ما صاح المنادى : يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ، فليعلم الذين يبدلونه من بعدما سمعوه أن الله شديد عقابه ، أليم عذابه ؛ ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿^(١)﴾ .

قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾^(٢) قوله تعالى : ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ لأن قلوبهم خاوية من الإيمان ، فأصبحت كالحرائب تنعق فيها البوم والغربان ، لقد أجمعوا أمرهم وذهبوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد إن كنت تريدنا فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، يقصدون فقراء المسلمين كابن مسعود وخباب وصهيب فماذا كانت النتيجة ؟ لقد هبط الأمين جبريل على ناشر الهدى وواسع الندى بقوله جل شأنه : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾^(٣) ، وكان النبي ﷺ ييسر رداءه لفقراء المسلمين ويجلسهم عليه ويقول لهم : مرحباً بمن أوصاني ربى بهم خيراً ، بل قال الله لهم ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ، بل لقد أمره جل جلاله أن يشرح لهم صدره ويفسح لهم في الترحاب فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾^(٤) ، بل لقد زلزلت الأرض زلزالها عندما سخر بعض المنافقين بأحد المسلمين الفقراء ، وقد دخل بحفنة من الشعير متبرعا بها لجيش المسلمين يوم تبوك ، فأنزل الله الأمين جبريل بقوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿^(٥)﴾ . بل لقد أنزل الله آيات بينات فيها ملاطفة رقيقة لمبعوث العناية الإلهية عندما شغله بعض صنديد القوم عن الحديث مع رجل فقير مسلم هو عبد الله بن أم مكتوم ، قال تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ أن جاءه الأعمى ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴿ أما من استغنى ﴾ فأنت له تصدى ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ وأما من جاءك يسعى ﴿ وهو يخشى ﴾ فأنت عنه تلهى ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾^(٦) بل لقد ضجت السموات العلا عندما قال قائلهم : ألم يجد الله إلّا يتيم أبى طالب ﴿ وقالوا لولا

(١) سورة الفجر الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٥٤ .

(٥) سورة التوبة الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .

(٦) سورة عبس الآيات : ١ - ١١ .

نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿١﴾ قال لهم رافع السماء بلا عمد : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿٢﴾ .

قوله تعالى ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ . نعم ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ * على الأرائك ينظرون ﴿٤﴾ وقال جل شأنه : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ * إلا أصحاب اليمين ﴾ * في جنات يتساءلون ﴾ * عن المجرمين ﴾ * ماسلككم في سقر ﴾ قالوا لم نك من المصلين ﴾ * ولم نك نطعم المسكين ﴾ * وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ * وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ * حتى أتانا اليقين ﴿٥﴾ ﴿وما أجل قوله تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ * الذين اتخذوا دينهم هوأً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يـحـدـون ﴿٦﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ كقوله تعالى : ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ (٧) ، وكقوله تبارك اسمه : ﴿ليجزينهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضلة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (٨) وكقوله جل جلاله : ﴿إنما يؤف الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (٩) أى بدون عد ولا حد ولا تقدير ، فالله تعالى يعطي كثيراً ، ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات .

بعثة الأنبياء بالتبشير والإنذار

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي

(٦) سورة الأعراف الآيات : ٥٠ ، ٥١ .
(٧) سورة غافر آية : ٤٠ .
(٨) سورة النور آية : ٣٨ .
(٩) سورة الزمر آية : ١٠ .

(١) سورة الزخرف آية : ٣١ .
(٢) سورة الزخرف الآيات : ٣٢ - ٣٥ .
(٣) سورة الإسراء آية : ١٩ .
(٤) سورة المطففين الآيات : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) سورة المدثر الآيات : ٣٨ - ٤٧ .

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى « أمة » جاء لعدة معان :

(١) الملة : أى العقائد وأصول الشرائع كما فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١) .

(٢) الجماعة : الذين تربطهم رابطة يعتبرونها وحدة تسوغ أن يطلق عليها اسم الأمة كما فى قوله : ﴿ ومن خلقا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (٢) .

(٣) الزمن كما فى قوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ (٤) .

(٤) للإمام الذى يقتدى به كما فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ (٥) .

(٥) إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (٦) .

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل الله معهم الكتاب والميزان بالحق ، فدعت الرسل إلى التوحيد الخالص ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ (٧) ولقد وقعت اختلافات بين الناس ، فكان الكتاب حكما بينهم فيما اختلفوا فيه . وقد تعجب عندما تعلم أن الذين اختلفوا هم الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، وما كان الدافع إلى اختلافهم إلا الحسد والبغى الذى استشرى فى نفوسهم ، ومن بعد ما جاءتهم البينات الواضحات والآيات الباهرات ، وهنا تجلت نعمة الله على المؤمنين ، قال جل شأنه : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك . عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغدا لليهود وبعد غد للنصارى) (٨) .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٢ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٨١ .

(٣) سورة هود آية : ٨ .

(٤) سورة يوسف آية : ٤٥ .

(٥) سورة النحل آية : ١٢٠ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٨) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥ ط الشعب .

الجمعة ؛ واختلفوا في القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس ، فهدى الله أمة محمد للقبلة ؛ واختلفوا في الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلي وهو يتكلم ، ومنهم من يصلي وهو يمشي ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في الصيام ، فمنهم من يصوم بعض النهار ، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت النصارى : كان نصرانياً ، وجعله الله حنيفاً مسلماً ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في عيسى عليه السلام ، فكذبت به اليهود وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً ، وجعلته النصارى الهاً وولداً ، وجعله الله روحاً منه وكلمته ألقاها إلى مريم ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) .

جاء في صحيح البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنى لما اختلف فيه من الحق يا ذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢) .

وفي الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، فلا تجعله ملتبساً فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً .

الثبات والنصر

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣١﴾

المفردات : المثل : الوصف العظيم والحال التي لها شأن بحيث يضرب بها المثل . والبأساء : الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة . والضراء : ما يصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض . والزلال : الاضطراب في الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه كما قال تعالى في المؤمنين يوم الأحزاب : ﴿ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٣) .

روى أن هذه الآية نزلت في غزوة الأحزاب حين اجتمع المشركون مع أهل الكتاب وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين ، وأصاب المؤمنين يومئذ جهد وشدة وجوع وضروب من الأذى ، وأبدى المنافقون صفحة

(١) سورة الزخرف آية : ٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٦٦ ط الشعب .

(٣) سورة الأحزاب آية : ١١ .

العداوة والبغضاء للمؤمنين الصادقين ، وقالوا كما قال الذين في قلوبهم مرض : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾^(١) ، وقال صادقوا الإيمان على قلتهم وضعفهم وجوعهم وعريهم : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾^(٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾^(٣) ، بين الله تعالى أن هناك فريقين بينهما صراع ، فريق أوتوا الكتاب فاختلفوا وتنازعوا في الحق حسداً من عند أنفسهم على أهل الإيمان ، وفريق هداه الله إلى الحق بإذنه ، فلا بد لأهل الحق أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا . وفي هذه الآية : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ بيان لما يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة ؛ فالصراع بين الحق والباطل دائم ومستمر من يوم هبط آدم إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكأن هذا الصراع سلسلة متصلة الحلقات يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثاني إسرافيل نافخ الصور ، فلتوطنوا أنفسكم يا أهل الحق على الجهاد والتمرس بالشدائد ، فلستم بدعاً من الأمم ؛ لقد سبق لما كان قبلكم الإيذاء والابتلاء ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾^(٤) . ﴿ إن يحسبكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿^(٥)

يا أمة الإسلام لقد كان من قبلكم أمم نشر فيها الموحدون بالمناسير ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ؛ ولقد قتل الأنبياء ونالوا بذلك شرف الجهاد ، وقد كان المؤمنون يحرقون بالنار كما حدث لأصحاب الأخدود : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴿^(٦) . فاعلموا أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الضيق ، وأن اليسر مع العسر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾^(٧) . فهل يضيع جهاد هؤلاء عند الله ؟ لا والله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾^(٨) . فاصبروا على كل الشدائد من البأساء والضراء ولا تستبطثوا نصر الله فإن نصر الله قريب ، ولكنكم تستعجلون . . إن يد الله تعمل في الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ .

(٦) سورة البروج الآيتين : ٨ - ٩ .

(٧) سورة يوسف آية : ١١٠ .

(٨) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(١) سورة الأحزاب آية : ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٣ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٣٤ .

ماذا ينفقون

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

الخير هنا هو المال وسمى به لأن حقه أن ينفق في وجوهه . والأقربون : هم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة .

جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أن ابن الجموح - وكان شيخاً كبيراً وله مال عظيم - سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من نفق ؟ فنزلت الآية .

وروى أحمد والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (تصدقوا ، فقال رجل : عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر به) (١) .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ أى شىء يتصدقون به من أصناف أموالهم ؟ ﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ أى قل لهم : على المنفق أن يقدم الوالدين لأنها قد ربياه صغيراً وتعبا في تنشئته ، ثم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة ، لأنهم أولى الناس بعطفه ورعايته ، ولأنه إذا تركهم يحتاجون إلى غيره كان في ذلك عاراً وشناراً عليه ، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الكسب لصغر سنهم ، ثم المساكين وأبناء السبيل للتكافل العام بين المسلمين ، فهم أعضاء أسرة واحدة ، فيجب أن يتعاونوا في السراء والضراء . وقد جاءت الآية في بيان نفقة التطوع لا في الزكاة المفروضة ، لأنها لم تعين مقدار المنفق والزكاة الشرعية معينة المقدار بالاجماع ، ولم يذكر سبحانه السائلين والرقاب لذكرهما في مواضع أخرى . ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أى وما تنفقوه في وجوه البر والطاعة في أى زمان وأى مكان على الأصناف المذكورة أو غيرها فالله عليم به لا يغيب عنه شىء ، فلا ينسى المثوبة والجزاء عليه ، بل يضاعف عليه الجزاء

القتال والشهر الحرام

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٤ ط الشعب .

شَيْعًا وَهُوَ شَرُّ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ۚ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فِمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المفردات : ﴿ كتب عليكم ﴾ : أى فرض عليكم . والصد : المنع . والفتنة : أى فتنة المسلمين في دينهم بإلقاء الشبهات في قلوبهم أو بتعذيبهم . ﴿ يرتدد ﴾ : أى يرجع . وحبط العمل : بطل وفسد . ﴿ آمنوا ﴾ : أى ثبتوا على إيمانهم . ﴿ هاجروا ﴾ : أى فارقوا الأهل والوطن . ﴿ واجاهدوا ﴾ : من الجهد وهو المشقة . ﴿ يرجون ﴾ : أى يتوقعون المنفعة بعمل الأسباب التى سنّها الله . ﴿ رحمة الله ﴾ : أى ثوابه .

جاء في تفسير المراغى : أنه كان الكلام فيما مضى في الإنفاق وبذل المال في سبيل الله على أصناف من المؤمنين في احتياج إلى مد يد المعونة والمساعدة لهم بإيجاداً لروح التعاون بين الإخوة في الإيمان وتثبيتاً لمبدأ التكافل العام في الأسرة الإسلامية لتصلح جميع أعضائها ، وتكون كالبدن السليم لا يشتكى منه عضو من الأعضاء ، فيؤدى كل عضو وظيفته في الحياة ويعمل العمل الذى هيم له بمقتضى النظام العام . قفى ذلك بذكر القتال وبذل النفس لإعلاء دين الله وجعل كلمته العليا وكلمة الكفر هى السفلى ، ونشر النور الإسلامى فى أرجاء المعمورة لهدى الخلق ومعرفتهم للحق .

ومن البين أن المال أخو الروح ، فالصلة بينها وثيقة ، فناسب ذكر آيات القتال بعد ذكر أحكام الصدقة على النحو الذى عرفت .

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ، أى فرض عليكم قتال الكفار فرض كفاية ، إذا قام به جماعة كفى ولم يلزم الباقين ، إلا إذا دخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين .

وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ ، أى شاق عليكم ، تتضرر منه الطباع لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ، وهذه الكراهة الطبيعية لا تنافى الرضا بما يكلف به الإنسان ، كالمرضى يشرب الدواء المر البشع الذى تعافه نفسه لما يرى فيه من منافع فى العاقبة ؛ وهذه أول آية فرض فيها القتال ، وكان ذلك فى السنة

الثانية للهجرة ، وقد كان القتال محظوراً على النبي ﷺ مدة إقامته في مكة ، فلما هاجر إلى المدينة أذن له في قتال من يقاتله من المشركين بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ ^(١) ، ثم أذن له في قتال المشركين عامة ، ثم فرض الجهاد .

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ، أى إن من الأشياء المستلذة طبعاً ما يفعله الإنسان لما يرجو فيه من نفع وخير فيما بعد ، فقد يتحمل الإنسان أخطار الأسفار لتحصيل الربح في التجارة ، ويتحمل المتاعب في طلب العلم للفوز بالسعادة في الدنيا والعقبى ، كذلك من الأشياء المكروهة طبعاً ما يتوقع فاعلها الضرر والأذى في نفسه أو من جهة منازعة الناس له فيه ؛ وهكذا الحال في ترك الجهاد ، فإنه يصون النفس عن خطر القتل ، ويصون المال عن الانفاق حالاً ، لكن فيه مفسد ومضار مآلاً ، كتسليط الكفار على بلاد المسلمين وأموالهم واستباحة حريمهم ، وقد يكون في ذلك القضاء عليهم ، وكفى بذلك خسراناً مبيناً .

إلا أن في الجهاد الظفر بالغنائم والفرح بالاستيلاء على بلاد العدو وحفظ بيضة الإسلام وترغيب الناس في الدخول فيه وإعلاء كلمة الحق والثواب في الآخرة ورضاة الله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ ^(٢) .

﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، أى إذا تصورتهم قصور علمكم وكمال علم ربكم ، علمتم أنه تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة لكم ، فعليكم أن تمتثلوا وإن كرهت نفوسكم ، فاشتغلوا بطاعة الله ولا تلتفتوا إلى مقتضى طباعكم وما تهواه قلوبكم .

وقال بعض المفسرين : المراد بذلك أن المسلمين رأوا أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به ، فخافوا أن يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا ويضيع الحق الذى هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعوة إليه ، فأبان لهم سبحانه أن سنته قد جرت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأهله ، فاستمسكوا به وادعوا إليه ودافعوا عنه ، وإن القعود عن المدافعة ضعف في الحق يغرى به أعداءه ويطمعهم بالتكليل بحزبه والتأليب عليه للإيقاع به .

وقد سبق في علم الله أنه لا بد أن يظهر دينه وينصر أهله على قتلهم ويخذل أهل الباطل على كثرتهم كما قال : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ^(٣) ، وقد علم الله هذا ، فأنتم لا تعلمون ما خبا لكم في غيبه وستجدون صدق هذا في امتثال أمره والعمل بما يرشدكم إليه في كتابه .

وبعد أن ذكر أن القتال كتب على هذه الأمة ، بين مسألة سألوا عنها ، وهى القتال في الشهر الحرام ، فقال : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ، أى يسألونك عن القتال في الشهر الحرام إذ اختلج في صدورهم أن الأمر به في غير الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فسألوا النبي ﷺ : أيجل لهم القتال في هذا

(٣) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

(١) سورة الحج آية : ٣٩ .

(٢) سورة التوبة آية : ٧٣ .

الزمان وهذا المكان أم لا ؟ ويؤيده ما روى أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش ، وهو ابن عمته ، في ثمانية من المهاجرين في جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين ، ليرصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين ، واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، وهو الشهر الذى يأمن فيه الخائف ويسعى الناس فيه إلى معاشهم .

ولما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ولم يأخذ منها شيئاً ولما قال لهم رسول الله ﷺ ذلك : ندموا على ما فعلوا وظنوا أن قد هلكوا فنزلت الآية ، فأخذ النبي ﷺ العير وعزل منها الخمس وقسم الباقي بين أصحاب السرية وفدى الأسيرين^(١) .

﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ ، أى إن أى قتال فيه ، وإن كان صغيراً في نفسه أو كبيراً ، مستنكر ، الوقوع ، لعظم حرمة ، وأن ما فعله عبد الله بن جحش وما يفعله المسلمون فيما بعد من القتال فيه مبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إذا لم يكن من أحدهما بد ، فالقتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، ولكنه ارتكب لإزالة ما هو أعظم منه ، وذلك ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ . أى إن منع المشركين للمؤمنين عن الطريق الذى يوصل إلى الله تعالى ، وهو الاسلام ، باضطهادهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم بقتالهم من يسلم تارة وإيذائه في نفسه وأهله وماله ومنعه من الهجرة إلى النبي ﷺ تارة أخرى ، ومنعهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة وإخراجهم أهله منه ، وهم النبي ﷺ والمهاجرون ، وكفرهم بالله تعالى - كل جريمة من هذه الجرائم التى يرتكبها المشركون أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . فما بالك بها وقد اجتمعت معاً ؟

ثم ذكر عز اسمه السبب الذى من أجله شرع القتال وهى فتنة المؤمنين عن دينهم فقال : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ ، أى فتنة المسلمين في دينهم بإلقاء الشبهات في قلوبهم أو بتعذيبهم كما فعلوا بعمار بن ياسر وبلال وخباب بن الأرت وغيرهم ، فقد عذبوا عماراً بالكي بالنار ليرجع عن دينه ، وعذب أبوه وأمه ، فمر بهم النبي ﷺ فقال : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٢) ومات ياسر من العذاب ، وطعنت أمه بحربة في موضع عفتها فماتت . وكان أمية بن خلف يعذب بلالاً بالجوع والعطش ليلة ويوماً ، ثم يطرحه على ظهره في الرمضاء (الرمل المحمى بحرارة الشمس) ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فبأى بلال ، وتهون عليه نفسه في سبيل الحفاظ على دينه . وما امتنع منهم إلا من له عصبية من قومه ، على أنه لم يسلم من أذاهم ذوو العصبيات ، فقد آذوا رسول الله ﷺ فوضعوا سلا الجزور (الكرش المملوءة بالفرت) على ظهره وهو يصلى حتى نحتت عنه فاطمة رضى الله عنها ، وتعرضوا له بضروب أخرى من الإيذاء وقاه الله شرها ، كما قال تعالى : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾^(٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ بتصرف ط الشعب

(٢) سبل الهدى والرضا في سيرة خير العباد للصالحى ج ٢ ص ٤٨٢ تحقيق مصطفى محمد ط ١ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٣) سورة الحج الآية : ٩٥ .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وكثر عددهم صاروا يقاتلونهم في مهجرهم لفتنتهم في الدين إن استطاعوا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ، أى إن هؤلاء لا هم لهم إلا منع الإسلام عن الانتشار في الأرض لاستحكام عداوتهم وحرصهم على فتنكم ، فانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع في غير مطمع ، والقتال في الشهر الحرام أهون من الفتنة — عن الإسلام إذا كان وحده ، فكيف إذا اقترن به غيره من الآثام كالصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام والكفر بالله والاعتداء بالقتال ؟ .

وفى قوله : ﴿ إن استطاعوا ﴾ استبعاد لاستطاعتهم وشك في حصولها وتنبية إلى سخف عقولهم وكون فعلهم هذا عبثاً لا يوصل إلى غرض ، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لا يرجع عنه إلى الكفر . وهكذا حال الكافرين في كل عصر ومصر ، يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا .

ثم بينت الآية عاقبة من يتأثر بهذه الفتنة فيرتد عن دينه فقال : ﴿ ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ؛ أى ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر ويمت على هذه الحال ، بطلت أعماله ، حتى كأنه لم يعمل صالحاً قط ، لأن قلبه قد أظلم ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ويخسر الدنيا والآخرة . أما خسارة الدنيا فلما يفوته من فوائد الإسلام العاجلة ، إذ يقتل عند الظفر به ، ولا يستحق موالاة المسلمين ولا نصرتهم ، وتبين منه زوجته ، ويحرم الميراث ؛ وأما خسارة الآخرة فيكفى بيانها في قوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

والردة تارة تحصل بالقول ، كإنكار شيء مما علم من الدين قطعاً ، وأخرى بالفعل الذى يوجب استهزاء صريحاً بالدين ، كالسجود للشمس والصنم والاستهانة بالمصحف ونحو ذلك . وظاهر الآية يدل على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت صاحبها على الكفر ، وبه أخذ الشافعى ، ورأى أبو حنيفة أن الردة تحبط العمل حتى ولورجع صاحبها إلى الإسلام تمسكاً بعموم قوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ (٢) .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين بين جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ، أى إن المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم والذين هاجروا مع رسول الله ﷺ أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ، والذين بذلوا جهدهم في مقاومة الكفار وتقوية المؤمنين ، هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه ، وهم جديرون بأن يعطوا ذلك ، لأنهم استنفدوا ما في وسعهم وبذلوا غاية جهدهم ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا فعلوها ، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة .

(١) سورة الأنعام آية : ٨٨ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

وقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فراراً بنفسه وقومه من أذى قريش وفتنتهم في دينهم بعد أن عاهد أهل المدينة على أن يمنعوهم عما يمنعون منه أنفسهم ، وتبعه المؤمنون في هجرته ليعتزلوا الإسلام بأهله ويقدروا على الدفاع عن أنفسهم إذا هم اجتمعوا واستمروا على ذلك ، حتى فتح مكة ، وخذل الله المشركين وجعل كلمتهم السفلى وكلمة الله هي العليا .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، أى والله واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين ، يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طوله . قال قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، قد جعلهم الله أهل رجاء ، ومن رجا طلب ، ومن خاف هرب .

الخمر والميسر ومسائل أخرى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلِخَوْنِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

المفردات : ﴿ الخمر ﴾ مأخوذ من خمر الشيء إذا ستره وغطاه سميت بها لأنها تستر العقل وتغطيه .

﴿ الميسر ﴾ : القمار من اليسر ، وهو السهولة ، لأنه كسب بلا مشقة ولا كد . والإثم : الذنب ، ولا ذنب إلا فيما كان ضالاً من قول أو فعل ، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، والعفو : الفضل والزيادة على الحاجة .

والعنت : المشقة وما يصعب احتماله ، يقال عنت العظم عنتاً إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر .

جاءت هذه الآيات في سلك الأحكام الشرعية التي تتعلق بالسلوك ؛ ففي سابقتها سألوا عن القتال في الشهر الحرام ، فجاءت الإجابة الربانية ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ وفي هذه الآية يسألون عن الخمر والميسر ، فجاءت الإجابة الربانية : ﴿ قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنها فنزلت الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا ، إنما قال : إثم كبير . وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلى رجل من المهاجرين وأمّ الناس في المغرب فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ

منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾^(١) . ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله : ﴿فهل أنتم متهون﴾^(٢) ، قالوا : انتهينا ربنا .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يعالج مسألة الخمر علاجاً رتبياً وحكيمياً ؛ فكان كالنسيم الذي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

ولننصت الآن إلى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في النساء ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿فهل أنتم متهون ؟﴾ قال عمر انتهينا انتهينا^(٣) وبين أيدينا ثلاث آيات نزلت في مسألة الخمر ، وكل آية منها تفيد التحريم لمن تأمل معناها ، فأية البقرة : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ ذكر فيها مولانا جلّت قدرته أن فيهما الإثم الكبير . وما دام الإثم كبيراً فإن هذا يعتبر أصلاً من أصول تحريم المحكوم عليه ، فإذا ما انتقلنا إلى آية النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾^(٤) رأيناها أيضاً تفيد تحريم الخمر ، ذلك لأن أوقات الصلاة متقاربة . والسكر يطول بصاحبه ، فتأتيه الصلاة عقب الصلاة وهو ما زال سكران تعبت الخمر بعقله ، فكيف يجتنب ما نهى الله في قوله : ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ ؟ فالآية في حقيقتها تفيد النهي عن شرب الخمر ، لأنها تؤدي إلى السكر ، والسكر قد يطول ، وأوقات الصلاة متقاربة فإذا ما انتقلنا إلى آية المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾^(٥) ، علمنا أن الآية غنية كل الغنى في بيان التحريم . ولأول وهلة يدرك قارئها أن في قوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ ما يفيد التحريم البعيد المدى ، أى خذوا جانباً غير الجانب الذي فيه الخمر . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . ومن ثم فقد جاء الأمر بالاجتناب في أكبر الذنوب والآثام ، بل جاء التعبير به في ذنب لا يغفره الله ، وهو الشرك ، قال تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾^(٧) أبعد هذا يقول غافل عن ذكر الله أو جاهل بأحكام الله أو مجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أو مكابر عن قبول الحق ، يقول : إن تحريم الخمر لم

(٥) سورة المائدة آية : ٩٠ .

(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٧) سورة النجم آية : ٣٢ .

(١) سورة النساء آية : ٤٣ .

(٢) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ ط الشعب .

(٤) سورة النساء آية : ٤٣ .

يجيء صريحاً في القرآن . وأى حرمة أكبر من التعبير ﴿ اجتنبوه ﴾ ؟ لكأنى أتصور أن هذا الأمر يفيد حرمة المشى أمام خمار ، لأن الاجتناب يفيد أخذ جانب غير الجانب الذى فيه الخمر ؛ فمن أراد التصريح بالحرمة فليعلم أن الله حكم على الخمر بأنها رجس ، كما فى آية المائدة ، وحكم على الرجس بأنه حرام كما جاء ذلك فى سورة الأنعام فى قوله جل شأنه :

﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ (١) . فأنت ترى هنا أن الله تعالى حكم على الرجس بأنه حرام بصريح العبارة ، والخمر رجس . إذن هى بصريح العبارة حرام . وهل غفل هؤلاء المجادلون المكابرون عما جاء فى أحاديث الرسول ﷺ من النصوص الصحيحة فى تحريم الخمر كقوله : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام) (٢) .

(وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر - ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته) (٣) .

(وعن أنس أن رسول الله ﷺ لعن فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقها وبائعها وآكل ثمنها ، والمشتري لها والمشتري له) (٤) .

(عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) (٥) .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن الله حرّم الخمر وثمرتها وحرّم الميتة وثمرتها وحرّم الخنزير وثمرته) .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادماً فقالت له : إنا ندعوك لشهادة فدخل فطفقت كلما يدخل باباً أغلقته دونه حتى إذا أفضى إلى امرأة وضئته جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت : إنا لم ندعك لشهادة ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام أو تقع على أو تشرب كأساً من الخمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك . قال : فلما رأى أن لا بد له من ذلك قال : اسقيني كأساً من الخمر ، فسقته كأساً من الخمر فقال : زيدينى ، فلم تزل حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر فى صدر رجل أبداً وليوشكن أحدهما يخرج صاحبه (٦) .

(١) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

(١) رواه أبو داود فى سننه فى باب الأشربة ج ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٦٣٧ ط دار الفكر .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ص ٢ ج ٤٠٥ ط دار الفكر .

ما الخمر؟

قال الإمام الشافعي : كلمة الخمر يقصد بها كل شرب مسكر . وساق على ذلك الحجج الآتية :

(١) أن الصحابة ، وهم صميمو العرب ، فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ، ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره .

(٢) ما رواه أبو داود والترمذي من قوله (ﷺ) : (كل مسكر خمر^(١)) .

(٣) ما رواه النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من العنب خمرا ، وإن من التمر خمرا ، وإن من العسل خمرا ، وإن من البر خمرا ، وإن من الشعير خمرا) .

(٤) ما أخرجه البخاري عن أنس قال : حُرمت الخمر حين حرمت ، وما يتخذ من خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرا من البر والتمر^(٢) .

قال بعض العلماء : وقد جرى ذكر هذه الأشياء لكونها معهودة في ذلك العصر ، فكل ما في معناها من ذرة أو عصارة شجر أو تفاح أو بصل أو نحو ذلك مما يستخرج منه الخمر الآن ، فحكمه حكم هذه الأصناف .

وكما أن الخمر محرمة في الإسلام فهي محرمة في المسيحية كذلك وقد استفتت جماعة منع المسكرات رؤساء الديانة المسيحية بالوجه القبل بجمهورية مصر فأفتوا بما خلاصته : أن الكتب الإلهية جميعها قضت على الإنسان أن يبتعد عن المسكرات ، كذلك استدل رئيس كنيسة السوريين الأرثوذكس على تحريم المسكرات بنصوص الكتاب المقدس . ثم قال : « وخلاصة القول : أن المسكرات إجمالا محرمة في كل كتاب سواء أكانت من العنب أم من سائر المواد كالشعير والتمر والعسل والتفاح وغيرها »^(٣) .

ومن شواهد العهد الجديد في ذلك قول بولس في رسالته إلى أهل إفسس (٥ : ٨) : « ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة » ونبيه عن مخالطة السكير ﴿ إكوة ١١ ﴾ وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات ﴿ غلاه : ٢١ ﴾ ﴿ إكوة ٦ : ٩ : ١٠ ﴾ .

ما أضرارها ؟

جاء في كتاب « الغذاء والدواء في القرآن الكريم » وفي كتاب القرآن والطب : إن ضررها على أجزاء الجسم وأعضائه كبير ووخيم ، يتمثل في الحقائق العلمية الآتية :

١ - التأثير على الجهاز الهضمي

تهيج الخمر الغشاء المخاطي للمعدة ، وتغير طبيعة العصير المعدي وتذكر كتب علم المادة الطبية في تأثير الكحول على المعدة : أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعالة ، ولكنه يساعد على إفراز

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٣ ط الشعب .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٤٠ .

كمية أكبر قليلاً من الحامض لا غير ، ويشل الإفراز المعدى ، ويحدث ضموراً في الغدد المعدية ، والخمر تؤثر على الزلاليات في المعدة (كاللحم) فيجمدها ، وكذلك يفعل مع البسبين في العصارة المعدية . وتنصح كتب علم المادة الطبية ، بل تأمر ، بعدم استعمال الخمر في حالات التهاب المعدة . والخمر بجانب ذلك يبلغ تأثيرها إلى مدى يحف معه الفم ، وتعوق إفراز اللعاب . وهكذا نرى كيف تحدث الخمر سوء الهضم ، وتسبب القيء والتهوع ، وتصيب المعدة بالتمدد وتغير طعم الفم إلى غير ذلك من المضار .

٢ - التأثير على الجهاز الدورى الدموى والتنفسى :

يظن كثير من الجهلاء أن الدليل على فائدة الخمر للصحة ما يشاهدونه من تورد خدود شاربى الخمر واحمرارها وامتلأها بالدم !! ألا فليعلم هؤلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلا مرض وحادث غير طبيعى فى بدنهم ، لأن الخمر تحدث تمداً كبيراً فى الأوعية الدموية التى على سطح الجسم فيندفع إليها الدم ، ويقل الدم الموجود فى الأوعية التى فى الداخل بانكماشها ، وهكذا تختل الدورة الدموية كما تسبب الخمر ارتفاعاً فى ضغط الدم وسرعة فى النبض وفى ضربات القلب . ويضعف القلب نتيجة لتوالى تأثير الخمر عليه وعلى الضغط الدموى الذى يرتفع ثم يهبط . كما تحدث فى الجهاز التنفسى تأثيرات وأعراض عديدة ، من بينها الالتهابات الشديدة المتواصلة فى القصبة الهوائية والرئتين ، مما يسبب ضعفها واحتمال تعرضها للأمراض الصدرية . وقد يسبب الكحول تسكين آلام الذبحة الصدرية ، ولكن هذا التأثير المسكن راجع إلى تخدير مركزى وليس إلى توسيع الأوعية .

٣ - التأثير على الكلى :

يتبع تناول الخمر إفراز كمية كبيرة من البول شديد الحموضة ، ويرجع ذلك إلى تشييط الأعصاب المركزية وليس إلى تأثيرها على الكلى ، ولذلك لا يعتبر مدرراً للبول ، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، ويرجع ذلك إلى إضعاف إفرازات الغدة الكظرية . إن تناول الخمر لما فيها من الكحول يزيد فى إفراز كمية البول وزيادة حجمه . إلا أنه يكون شديد الحموضة قليل الملوحة ، فهو يزيد فى إفراز الماء فى البول ويقلل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، حيث إنه يقلل من إفرازات الكظر (الغدة فوق العكوة) التى تعمل إفرازاتها على تنظيم وتنسيق إفراز الأملاح فى البول .

٤ - التأثير على الكبد :

تسبب الخمر تأثيراً ساماً مباشراً على الكبد ، وقد يحدث التأثير السام فى غضون أربع ساعات من تعاطيها وتهبط كمية الجليكوجين فى الكبد ، وتزيد الدهون ، وتهبط كفاءة تمثيل الجلاكتوز ، مما يدل على فساد فى وظائف الكبد ويعقب ذلك تضخمه وتشحمة وقلة إفرازه ، ثم تليف الكبد وعدم قدرته على القيام بوظائفه الحيوية .

٥ - التأثير على الجهاز العصبى المركزى

من أخطر مضار الخمر سواء ما كان منها كحولياً أو مخدراً ، كالأفيون والحشيش ، أنها تؤثر على الجهاز

العصبى وتضعف مراكز المخ العليا الراقية التي تميز الإنسان عن الحيوان . وأما الشعور الكاذب بالمرح والسعادة الذي يحدث لشارب الخمر ، فهو شعور كاذب عارض حيث لا يلبث الحال أن ينعكس فيحدث الخمول في هذه الأعصاب وينتهى الأمر بتخديرها وتعطيل عملها ، ومن ثم تفسد أجهزة الجسم فتصاب المعدة بالآلام والقرحات وتضعف خلايا الكبد والكلية ، وتؤدي إلى أمراض الكبد والكلية وتليفها ، ويحدث التهاب الأعصاب وتدهور القوة العقلية ويضطرب الإحساس وقد يعقبه الموت .

والخمر تبعد شاربها عن كل القيم الإنسانية التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان ، وللخمر آثار وبيلة على المجتمع : فمنها مثلاً الضعف البدني والفساد الخلقي وكثرة الإصابة بالأمراض ، خاصة الأمراض العصبية والعيوب الخلقية وتدفع إلى الإجرام ، كما أن لها أثراً سيئاً في العلاقات العائلية ، لأن الزوج السكير زوج غير صالح وأب غير سليم ، فيرث نسله منه غيه وضعفه ووهنه ، وقد وجد أن كثيراً من حوادث المرور سببها شرب الخمر .

كما أن الانحرافات النفسية والاضطرابات العقلية وفقد القدرة على العمل والتعرض لالتهابات الرئوية ، وكذلك ما تؤدي إليه الخمر من جمود العاطفة ، وعدم التبصر في العواقب ، ومن الإحصائيات وجد أن ١٧٪ من المحكوم عليهم بالإعدام كان إجرامهم من الخمر و ٤٩٪ من حوادث السرقات و ١٥٪ من المشاحنات والعراك سببها الخمر .

ما حد شارب الخمر ؟

الفقهاء متفقون على وجوب حد شارب الخمر ، وعلى أن حده الجلد ، ولكنهم يختلفون في مقداره : فذهب الأحناف ومالك إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الشافعي إلى أنه أربعون . روى أن عمر استشار الناس في حد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف « جعله كأخف الحدود ثمانين » ، فضرب عمر ثمانين ؛ وكتب به إلى خالد وأبي عبيدة بالشام .

بم يثبت الحد ؟

يثبت هذا الحد بأحد أمرين :

- ١ - الإقرار : أى اعتراف الشارب بأنه شرب الخمر
- ٢ - شهادة شاهدين عدلين .

شروط إقامة الحد :

يشترط في إقامة حد الخمر الشروط الآتية :

- ١ - العقل : لأنه مناط التكليف ، فلا يجد المجنون بشرب الخمر ويلحق به المجهتوه .
- ٢ - البلوغ : فإذا شرب الصبي فإنه لا يقام عليه الحد لأنه غير مكلف .

٣ - الاختيار : فإن شربها مكرها فلا حد عليه ، سواء أكان هذا الإكراه بالتهديد بالقتل ، أم بالضرب المبرح أم بإتلاف المال كله ، لأن الإكراه يرفع عنه الإثم . يقول الرسول ﷺ : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)^(١) ، وإذا كان الإثم مرفوعا فلا حد عليه لأن الحد من أجل الإثم والمعصية .
تحريم الميسر :

وكما حرم الله تعالى الخمر حرم الميسر ، لأنه ضرب من ضروب أكل أموال الناس بالباطل ، وفيه وفي الخمر مجال فسيح لإيقاع العداوة والبغضاء كما فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإنما سمي ميسرا لأنه يؤدي إلى الحصول على المال ببسر ودون عناء . وقد تختلف أدواته فقد يكون بالمرهانات ، كما يكون بلعب الورق والنرد « أى الطاولة » وغير ذلك من الألوان التي اخترعها إخوان الشياطين في سبيل أن يملأوا جيوبهم مالا ، وهم بذلك غافلون عن قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾^(٢) . وإذا كان في الخمر والميسر بعض المنافع عن طريق الحصول على المال ، فإن الله تعالى لما حرمهما نزع المنافع منهما ، فلا خير في شيء يلهمي عن ذكر الله ؛ حتى التداوى بالخمر ، قال عنه النبي ﷺ : (ما جعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليها)^(٣) . فدخل الخمر من البيع والشراء ودخل الميسر ، كذلك حرام ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . قال ﷺ (إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : يا أمعاء اتسعى يا بركة ارتفعي يا عين لا تشبعي)^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . المقصود بالعفو ما زاد عن حاجة المالك ، والحاجة تقدر حسب كل شخص وتختلف باختلاف أحوال العباد ، ففي المال زكاة واجبة وفيه صدقات تطوع . أما إذا جاع أحد المسلمين فلا مال لأحد . وأما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله . . قال ﷺ (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم)^(٥) .

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام تشريع رباني شاف كاف واف : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمى والسهَر)^(٦) بل إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن ثلاثة أشياء : يقول له : عبدى : مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول الله مرض عبدى فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ . عبدى . استطعمتك فلم تطعمني ، فيقول العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟ . فيقول : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ . عبدى : استسقيتك فلم تسقني ، فيقول العبد : وكيف أسقيك وأنت الله ؟ فيقول الله تعالى : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندي^(٧) ؟

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٣ ص ٢٨٣

(٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٣٢ ط الشعب

(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٤ ص ١٩٠

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٩ ط الشعب .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٠ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى .

فما أعظم الإسلام في رحمته ، وما أجله في تكافله . والله لو حكمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا شريعته لرفعت راية الإسلام في كل بلد . ولو عملنا بمنهج الإسلام ما رأيت في الطريق سائلا ولا في البيوت عاطلا ولا في السجون قاتلا . إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي . عبدى أنفق أنفق عليك . الأغنياء وكلائي والفقراء عيالى فإذا بخل وكلائي على عيالى أخذتهم ولا أبالى . . . ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ولا طمأنت الجنوب في المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحون نور الصباح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ . المقصود بالآيات هنا الأحكام الشرعية والتفكير هو إعمال النظر في جزئيات الأمور للوصول بها إلى القضايا الكلية . والإسلام جعل من الدنيا مزرعة للآخرة ، وقد شملت أحكامه الدارين ، وقد بعث النبي ﷺ بأصول العقائد ، فوحد العقائد ولم يفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ؛ جاء بكتاب كالشمس في ضحاها ، وبسنة كالقمر إذا تلاها ؛ فمن عمل بها سار في ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنها تخبط في ظلمات الليل إذا يغشاها . لقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ (١) . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ . اليتيم هو الصغير الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم يكرم . وقد أشار النبي ﷺ بإصبعين قائلاً : (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة) (٣) . وقد جاء أول حكم في سورة النساء ، بعد الأمر بتقوى الله ، متعلقاً باليتامى ، قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ (٤) . والإصلاح لليتامى يكون بحسن تربيتهم والرعاية لأموالهم وصيانة حقوقهم ومراقبة الله فيما يتعلق بشئونهم . وقد كانوا في الجاهلية يتأذون من مخالطة اليتامى ومؤاكلتهم ، أنفة وحمية ، فرغبهم الله في مخالطتهم وحسن الإرعاء لهم ، فقال : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ ، والأخوة في الله أقوى من أخوة النسب والدم ، قال تعالى : ﴿ فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (٥) وقال جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٦) ، ثم حذر من العبث بمال اليتامى فقال : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٧) . فاحذروا عقاب الله ، وارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية حيث كلفكم من الأحكام ما فيه صلاحكم وسعادتكم وعزكم . وأراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر ، ولو شاء الله بكم العنت والمشقة

(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣

(٦) سورة الحجرات آية : ١٠

(٧) سورة النور آية : ٦٣

(١) سورة الجن آية : ١٤

(٢) سورة آل عمران آية : ٨٥

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٤١٦ ط دار الفكر

(٤) سورة النساء آية : ٢

لشدد عليكم في الأحكام ، فإنه عزيز لا يُغلب ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حكيم لا يعث . بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف . معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

أحكام تتعلق بالزواج

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبَدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية مارواه الواحدى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من قبيلة غنى يقال له مرثد بن أبى مرثد ، وكان حليفاً لبني هاشم ، إلى مكة ، ليخرج جماعة من المسلمين أسارى بها ، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق ، وكانت خلية له في الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها ، فأنته وقالت : ويحك يا مرثد ألا تحلو ؟ فقال لها : إن الإسلام قد حال بينى وبينك وحرمة علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك ، فقالت : نعم . فقال : إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك ثم تزوجتك . فقالت له : وأبى ، تتبرم ؟ ثم استعانت عليه فضربه ضرباً وجيعاً ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها ، فقال يا رسول الله : أتعمل لى أن أتزوجها ؟ فنزلت الآية (١) .

هذه الآيات وما بعدها بين الله فيها الأحكام التى تتعلق ببناء الأسرة . فقد عنى الإسلام عناية عظمية ببناء الأسرة عن طريق بناء الفرد ، فقد يكون من السهل بناء المصانع وإنشاء ناطحات السحاب ، ولكن بناء النفوس أهم وأجدى من إنشاء القلاع الصناعية ، لأن النفوس لو هدمت وهزمت من داخلها فلن تقوم في الدنيا حضارة لقوم أظلمت نفوسهم وأجدبت من الخير فأمست لا غناء فيها . وكان الإسلام ينادى بأعلى صوته على أهل الأرض ويقول لهم ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (٢) .

فالنفس البشرية كالزجاجة ، إن لم يملأها شيء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، ومن ثم فقد كانت رسالات الأنبياء تركّز على بناء النفوس ، ذلك لأن الإسلام يؤمن بالواحد ، فقد كان الصديق المعصوم ﷺ بين الناس رجلاً ، وكان بين الرجال بطلاً ، وكان بين الأبطال مثلاً ﴿إن إبراهيم كان أمةً ، قانتا لله حنيفاً﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج﴾ (٤) . فهذا رجل واحد أشرق الحق في قلبه ، فقال لموسى : ﴿إن لك من الناصحين﴾ (٤) . وهذا

(٣) سورة النحل آية : ١٢٠ .

(٤) سورة القصص آية : ٢٠ .

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٥١ ط الأنوار المحمدية .

(٢) سورة النساء آية : ١ .

آخر يسمى مؤمن يس يقول فيه جل شأنه : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾^(١) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أنقتلون رجلاً أن يقول رب الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾^(٢)

فهؤلاء رجال ورجال قليل ، فليست العبرة بالكثرة ، إنما العبرة بالرجولة ، وهي عملة نادرة . لقد وقف عمر رضى الله عنه يسأل أصحاب الرسول ماذا يتمنى كل منهم ؟ قال أحدهم : أتمنى ملء المدينة خيلاً أغزوها في سبيل الله ، وقال آخر : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعنتهم في سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى مثل أحد ذهباً أنفقته ابتغاء مرضاة الله ، وتمنى آخر وآخر وآخر ، وفي النهاية سألوها عمر : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال الفاروق المحدث الملهم الذى أجرى الله الحق على قلبه ولسانه ؟ لقد قال فضلاً ، وحكم عدلاً ، قال : وأنا أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبى بكر . يرحمك الله يا أبا حفص ، لقد أصبت كبد الحقيقة .

يارافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبتها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها

في الوقت الذى ربي فيه الإسلام أبنائه على العقيدة الراسخة والمعنويات العالية والوازع الدينى وتربية الرقابة فى نفس المؤمن ، قامت الحضارة الغربية على التفسخ الأخلاقى والانحلال الاجتماعى وانكار شرائع الله ، حتى قال ماركس : إن الأخلاق قيد لامعنى له ، وقالت سيمون دى بفرار : إن الزواج مبدأ فاضح ، حتى وقف الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون واعترف بتلك الحقيقة فقال : إن الولايات المتحدة لا تعاني أزمة فى السلع إنما تعاني أزمة فى الروح ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ولكننا فقراء فى الروح . فما أعظم نبي الإسلام وما أكرمه ، وما أحلمه وما أعقله حيث أوجز رسالته فى كلمات فقال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وفى هذه الآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ حكم باختيار الزوجة المؤمنة ، ولو كانت أمة فهى عند الله خير من مشركة تعبد صنماً ، أو جاحدة تنكر خالق الوجود ؛ قال ﷺ : (لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى أن يطغيهن ، ولكن تزوجوهن لدينهن ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل)^(٣) .

قال ﷺ : (الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة)^(٤) . ثم يبين صلوات الله وسلامه عليه مواصفات تلك الزوجة فقال : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خير من زوجة صالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك)^(٥) . ثم يقول : (إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة ادخلى الجنة من أى أبوابها الثمانية شئت)^(٦) .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١١١ ط دار الفكر .

(١) سورة ياسين آية : ٢٠ .

(٢) سورة غافر آية : ٢٨ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٤ ط وزارة الأوقاف .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : (فاظفر بذات الدين تربت يداك)^(١) . وكان نبي الله داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول : (اللهم إني أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعينني على أمر ديني ودنياي ، وأعوذ بك من مآل يكون وبالا على ويتمتع به غيري ، ومن ولد يكون على سيّدا ، ومن جار سوء إن لاقى مني خيرا كتمه وإن رأى مني شرا أذاعه ، ومن زوجة تشيبنني قبل المشيب) وكما نهى الله المسلمين أن يتزوجوا المشركات فقد نهاهم سبحانه أن يزوجوا المسلمات للمشركين فقال : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ ؛ قال تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾^(٢) . وكما ذكر سبحانه : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ قال هنا : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم ﴾ أى ولو أعجبتكم منصبه أو جاهه أو حسبه أو ماله . ثم بين الخط الفاصل بين الإيمان والشرك فقال : ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ ؛ والحياة الزوجية إن بنيت على الإيمان أنبتت الأبناء نباتا حسنا ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، فإن قامت على غير ذلك خبث نباتها . قال تعالى : ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾^(٣) . وقال سبحانه ﴿ أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ فكيف يسول الشيطان لنا أن نرجح العرض الفاني من الجمال والمال والحسب ونغفل عن حقيقة الإيمان والسمو الروحي ؟ ما من شك أن الفرق شاسع والفرق بعيد ، فستان بين الثرى والثريا ، وهيئات هيهات بين السحاب والتراب ، ثم يمن سبحانه على عباده بما بين لهم من النعم في الأحكام الشرعية فقال : ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ، فداء الإنسان النسيان ولو تذكر ما خاب سعيه ولا ضل سؤله ولا زلت قدماءه .

وقبل أن تنتقل إلى آية المحيض ، نود هنا أن نذكر بعض الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، فقد جاء في كتاب « ذخيرة الواعظ » للعالم الجليل الشيخ إبراهيم عبد الباقي تحت عنوان (السعادة الزوجية) :
نظم الله تعالى بالشريعة الإسلامية حياة الناس جميعاً ، وجعلها صالحة لمعاشهم ومعادهم إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ إلى قوله : ﴿ أشد وأبقى ﴾ .

وإن تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الزاحف لم يكن إلا من عدم تمسكهم بأمور دينهم وتقاعدهم عن العمل ، ولا أدل على ذلك مما يحدثنا به التاريخ من أن النهضة العلمية التي يفخر بها أبناء الجيل الحاضر قد وضع أساسها الإسلام بتعاليمه الرشيدة ، فكان شعار المسلمين في العصور الأولى للإسلام . « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ، لهذا اتسعت أرضها وفخم أمرها وهيب سلطانها ودان لها أعداؤها ، ولم يقم على أرض الله ملك فخم ، ولا سلطان أعظم منها ؛ هذا ولئن أصاب المسلمين نكسة في الأيام الأخيرة ، فقد أخذوا الآن والحمد لله ، يردون اعتبارهم ويتداركون ما فاتهم . نعم لقد قامت فيهم

(٣) سورة الأعراف آية : ٥٨

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٣ ط. وزارة الأوقاف .

(٢) سورة الممتحنة آية : ١٠ .

يقظة جديرة بالإعجاب ، فتخلصوا من ذل الاستعمار وصاروا أحراراً في بلادهم كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، إلا بقية لا تكاد تذكر ، وعماً قليل ستحرر من ربة الاحتلال .

فهل هؤلاء الذين يفخرون بعلومهم أن يخبرونا عما أصاب الإنسانية من تدهور الأخلاق وانتشار الفساد وطغيان المادة وإهمال القيم الروحية والحروب القاهرة التي عمت الكرة الأرضية حتى صارت رجوماً من نار ؟

تعالوا بنا لنريكم حكم الشريعة الإسلامية في الزواج ، لتعلموا علم اليقين أن الفوضى التي ترونها في المحاكم وغيرها لم تكن إلا من الانحراف عن تعاليم الإسلام . ولنذكر قولاً مجملًا فيما يجب في الزواج من تعاليمه . أمر الله بالزواج ليتعاون الاثنان في تربية الأولاد ، وهذا ضروري في الأجناس البشرية ، لأن حضانة الأولاد تحتاج لمدة طويلة ومطالب عدة ، أما في الحيوان ففصائله لا تحتاج إلا إلى أمها في البدء لهذا استغنت عن أبيها بخلاف الأجناس البشرية .

فالزواج من أجل نعم الله على الإنسان فيه دنيا ودين ، وهو سكن للزوج وحرث له ، والزوجة أم أولاده ومهوى فؤاده وموضع سره وحرث له : قال رسول الله ﷺ : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله)^(١) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)^(٢) رواه البخارى وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)^(٣) رواه مسلم وفي رواية : (إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة) .

أول الأعمال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، وإن وافقوا يرسل امرأة أمينة لتتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها ، ثم ينظرها بحضور محارمها : إلى الوجه والكفين فقط ، ثم بعد هذا يقدم الشبكة غير مغال فيها ، وهى من قبيل الهدايا التى قال الرسول ﷺ فيها : (تهادوا ، تحابوا)^(٤) وفاتنا أن نذكر قبل الشبكة الاستخارة ، وكيفيتها : « أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت

(١) الترغيب والترهيب - ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥١٨ ط دار الفكر .

علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدريه لي ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدري الخير حيث كان ثم رضني به فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الذهاب إلى العرافين والمنجمين وضاربي الودع والرمل ليستكشفوا عندهم سر الزواج الخطير أفیه خير فيقدمون عليه أم ضرر فيحجمون عنه ؛ فهذا دجل وتضليل ، وفي هذا يقول الأديب :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصي ولا زاجرات الطير ما الله صانع ؟

وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (١) وقال رسول الله ﷺ : (الطيرة شرك . الطيرة شرك . الطيرة شرك . وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك - ولكن الله يذهبه بالتوكل) (٢).

فإذا ما انشراح صدره إلى الزواج يستأذن من ولي أمرها أن يرى كفيها ووجهها بحضرة محرم ، ويتفق على المهر المناسب من غير غلوفيه ، ولا فيما وراءه من شبكة وغيرها ، وكما لا يفوته أن يتفق مع أهلها أن تترف إليه ليفض بكارتها وحده بينه وبينها .

نتائج إهمال هذه الأمور :

[أولاً] : من الناس من يستبدل النظر إلى خطيبته بمعاشرتها مدة ، حتى يتعرف على سلوكها قبل زفافها إليه ، ولكن دلت التجارب أن هذه المخالطة تنتهي إلى فضائح تجلب عاراً للعائلة لا يمحي وتكسد سوق الزواج لها ، ولم ينبج من هذه المأساة الخلقية إلا القليل ، وحسبنا في ذلك ماترويه عناوين الصحف صباحاً ومساءً مما يندى له الجبين وتقشعر منه الأبدان .

[ثانياً] يتغالى بعض الناس في الحجاب فلا يسمح للخطيب أن يرى خطيبته ، ويرى أن هذا من الدين ، وهذا جهل فادح ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية تارة تتفق وتارة تختلف ، وليس للجمال فيها أى مدخل . يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ : (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) (٣) رواه مسلم وغيره .

وقد أمر رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فقال له : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) (٤) رواه النسائي وغيره . ومعنى يؤدم بينكما : تدوم المحبة بينكما ، ونتيجة عدم النظر تؤدي غالباً إلى الفشل والطلاق .

[ثالثاً] استبدال النظرة بالصورة الشمسية ، فإنها لا تحقق المعنى المقصود ، لأن الصورة تخالف الأصل بكثير .

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ٩٤ ط مصطفى البابي الحلبي

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

(١) سورة النمل آية : ٦٥

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٣ ط وزارة الأوقاف

[رابعاً] : التغالى فى المهر والجهاز . ولقد نجم عن ذلك أضرار جمة : منها إجحام الشباب عن الزواج مما كان سبباً فى فساد الشبان وبوار الفتيات ، ومنها الاستدانة ، فيبدأ الزوج حياته بالهم الدائم والعذاب الواصب وتكليف ولى الأمر مالا طاقة له به ، فيظل أبو العروس يقاسى مضض الدين وآلامه ، ويكون معظم الجهاز قد فنى وتبدد .

علام هذا كله ؟ والرسول ﷺ يقول : (خير الصداق أيسره)^(١) ، وقال أيضاً (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة)^(٢) . ويقول الله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾^(٣) .

وهذه الآية لا تدل على الغلو فى المهر ، لأن المقصود منها على فرض أن المهر قنطار لا يحل أخذ شيء منه ، وهذا مثل قول الرسول ﷺ : (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضاها ، بنى الله له بيتاً فى الجنة)^(٤) .

ويدهى أن مفحص القطاة : أى مكان البيضة ، لا يتصور أن يكون مسجداً .

[خامساً] : إزالة البكارة بالإصبع :

هذا الغشاء الرقيق يفضيه الرجل وحده من غير عنت ولا مشقة ، ولقد فشت هذه العادة فى الأرياف ، فتراهم يحضرون نساء جاهلات لهذا الغرض ، ويدخل الزوج بحالة تقشعر منها الابدان فيتملكها الخوف . ويتمكن منها الرعب من شدة الصدمة . يرتكبون هذه الجريمة النكراء لا من أجل إزالة البكارة التى لا صعوبة فيها ولا مشقة ، ولكن ليحصلوا من وراء هذه على دم البكارة التى لبسها عليهم إبليس وأعوانه من شياطين الإنس فيظهروا بهذا الشرف المزعوم أمام أعدائهم ومن يتربصون بهم الدوائر ، وقد لا يجدون هذا الدم لكون البكارة غوراء أو لأنها زالت بسبب غير الوطء كمرض أو وثبة أو عترة ، فماذا تكون حال الزوجة المسكينة وحال أهلها ولا ذنب عليها ؟ وقد أثبتت التجارب أن البكارة تارة تكون فى زاوية من زوايا الرحم ، فلا تظهر حتى بعد الولادة ، اطلع على مؤلفنا (ارشاد الأمة) تجد الأدلة واضحة ، واسم الأطباء الشرعيين الذين أثبتوا ذلك ، منهم الدكتور محمد عمار أستاذ الطب الشرعى بكلية الطب بجامعة القاهرة . لهذا نجد بعض البلاد يصطحب فيها النساء دماً مستعاراً وبعضهم يصطحب آلة حادة يشق بها عضو التناسل يسترون بذلك موقفهم . وأفضل علاج لهذه المأساة هو ما جاء به النبى ﷺ ، فهو البلسم الشافى والطب الواقى ، وذلك بترك الزوج لزوجه تاتنس به ويأتنس بها ، وتسكن إليه ويسكن إليها ، فتحصل المودة وتصفو القلوب ، ثم تمر هذه العملية بسلام .

[سادساً] : بدع الولائم :

من البدع التى تنافى قوانين الاقتصاد وشريعة الله ، ما نراه من التبذير فى إعداد الولائم للأغنياء دون

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٦٢٠ ط دار الفكر
(٢) سورة النساء آية ٢٠
(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر
(٤) نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبي

الفقراء ، ولمن لا يحتاجون دون من يحتاجون ؛ وقد ذم الرسول ﷺ هذا الصنيع وعده من شر الأعمال . قال ﷺ : (شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الشبعان ويحس عنه الجائع)^(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ولو أحسنوا هداهم الله - لجعلوا ولائهم عامة ، فشملت الكل ، وعمموا الدعوة ، ولكان خيراً لهم . وما يزيد الطين بلة أن تقوم طائفة فتغني بأغنيات يندى لها جبين الفضيلة وتأبأها نفس الحر الكريم وتبترأ منها العزة والكرامة . نعم لا مانع من اللهو البريء والطرب الممتع من ذوى صوت حسن أو إلقاء القصائد الفياضة بالمعاني السامية والتي تدعو إلى الأخلاق الفاضلة فلا شيء فيها ، بل هو من المباح في الأعياد والأفراح والحرب ، وقد أذن فيه رسول الله ﷺ ورخص فيه .

حقوق الزوجة :

أولاً : الإنفاق عليها من غير إسراف ولا تقتير ، لقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ﴾^(٢) .

ثانياً : الكسوة : لقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾^(٣) .

ثالثاً : السكن الشرعى : لقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكتن من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾^(٤) .

رابعاً : العدل بين الزوجات إذا تعددت : فقد صح حديث رسول الله ﷺ : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)^(٥) . والعدل إنما يكون في النفقة والمبيت وتوابعهما ؛ أما الحب فهو لا يملكه الإنسان كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾^(٦) ، الآية واردة في الحب . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك)^(٧) يعنى القلب ، فإن لم يستطع فواحدة .

خامساً : إرشادها إلى طريق الحق وإبعادها عن مواطن الشر لقوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾^(٨) .

سادساً : معاشرتها بالمعروف : لقوله تعالى : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾^(٩) .

وجاء في خطبة الوداع أنه ﷺ قال : (الله الله في النساء فإنهن عندكم عوان ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٦ ط دار الفكر .

(٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .

(٦) سورة النساء آية : ١٢٩ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة التحريم آية : ٦ .

(٩) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

وفى البخارى وغيره أنه ﷺ قال : (استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمة كسرتة ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً)^(١) .

وقال ﷺ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى)^(٢) .

وأجمع آية فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾^(٣) .

سابعاً : ومن حسن المعاشرة أن يكون بأشأ فى وجهها ، فلا يقطب وجهه عند ملاقاتها ، بل يداعبها مداعبة لا تسقط هيئته عندها ، فإن ذلك أطيب لقلبها وأدعى إلى حبها وإخلاصها . قال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون مع أهله مثل الصبى ، وما أحسن وصف أعرابه لزوجها : كان ضحوكاً إذا ولج ، سكيناً إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير سائل عما فقد .

ثامناً : ألا يفشى سرها ، لقوله ﷺ : (إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه)^(٤) رواه مسلم .

تاسعاً : الغيرة عليها ، حماية لها ، وحفظاً لكرامتها . والغيرة من علامات الإيمان ، ومن لا غيرة له لا إيمان له ، ومن الغيرة ألا يصرح بالخلوة معها لأجنبى وإن كان أخاً له ، وألا تخرج من البيت لغير الضرورة ، قال على كرم الله وجهه : ألا تستحيون ألا تغارون ، يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها . وقالت فاطمة رضى الله عنها : خير للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

عاشراً : تعليمها حقوق الزوجية والعفة والأمانة وتدبير المنزل والعقائد الدينية والعبادات والمعاملات .

حادى عشر : احتمال أذاها . فقد كانت أزواج الرسول ﷺ يراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن اليوم والليلة حتى صبح أنه آلى منهن شهراً كاملاً .

حقوق الزوج :

أولاً : الولاية والرياسة : يؤدبها ويأخذ على يدها حتى لا تخالفه فى معروف ، قال تعالى : ﴿ للرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ويما أنفقوا من أموالهم ﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾^(٦) والدرجة تقتضى الرياسة ، لأنها حياة اجتماعية ، وكل حياة اجتماعية تحتاج إلى رياسة ، والرجل أجدر بالرياسة ، لأنه أبعد نظراً من المرأة وأقوى إرادة منها وأعلم بالمصلحة وأملك لعواطفه وأقدر على التنفيذ بقوته وماله .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٨١ ط دار الفكر .

(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٦ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٥ ط وزارة الأوقاف .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

ثانياً : طاعة الزوج فيما يطلب مما لا معصية فيه ، ومن حقه ألا تخرج إلا بإذنه ، ومن حقه إذا أرادها ، ولو كانت على ظهر بعير أو أمام التنور لا تمنعه ، ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه إلا في الأشياء اليسيرة فيجوز لها إذا غلب على ظنها إرضاءؤه ، كذلك من حقه عليها ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه أما الفرض فتصومه ولو بغير رضائه .

ثالثاً : ألا تكلف زوجها ما لا يطيقه ، بل ينبغي لها إذا نزلت به نازلة تواسيه بما لها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (١) .

رابعاً : ألا تدخل أحداً يكرهه زوجها إلى بيته إلا بإذنه ، لقوله ﷺ : (ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً . فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لما تكرهون) (٢) .

خامساً : إظهار البشر له ، فتقابل به فرحة مسرورة ملازمة لما يرضيه ، لقوله ﷺ : (خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك) (٣) .

سادساً : أن تصون نفسها وتستر عورتها ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (٤) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (٦) . ودخلت أسماء رضي الله عنها على رسول الله ﷺ في ثياب رفاق فأعرض عنها وقال : (يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه) (٧) .

أعرابه توصي ابنتها ليلة زفافها :

« أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة العاقل . أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفه وقريب لم تألفه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرة : أما الأولى والثانية فاصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة وتنغيص العيش مغضبة . وأما السابعة والثامنة : فالاحتباس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله وملاك الأمر حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصى له أمراً ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفته أو غرت صدره ، وإن أنت أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح

(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .

(١) سورة النساء آية : ٤ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٧ ط وزارة الأوقاف .

(٦) سورة النور آية : ٣١ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٦٢٣ ط ١ دار الفكر .

(٧) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي ج ٢ ص ١٠٤ ط الرابعة .

بين يديه إن كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً ، وكوفي أشد الناس له إعظماً يكن أشدهم لك إكراماً . واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت .

وأخرج النسائي عن حذيفة - رضى الله عنه - أن رجلاً قد خضب فاستعدى عليه أهل المرأة عمر ، قالوا حسبناه شاباً . فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت بالقوم .

وروى أيضاً أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما : من أنتما ؟ فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله . فقالوا : بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ . فقال : اسكت ، فقد صدقت فأنكحنا الصدق .

أحكام الحيض

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

المفردات : الحيض : لغة السيلان ، يقال حاض السبيل وفاض وشرعاً : دم ذوا أوصاف خاصة يخرج من الرحم في مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى . والأذى : الضرر ، واعتزال النساء في الحيض : ترك غشيانهن في هذه المدة . والطهر : انقطاع دم الحيض . والتطهر : هو الاغتسال بالماء إن وجد ولم يمنع منه مانع ، أو التيمم خلفاً عنه عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن طهرت لأقل من عشرة أيام فلا تحل له إلا إذا اغتسلت ، أو مضى وقت الصلاة والدم منقطع ، وإن طهرت لأكثر مدته ، وهى العشرة ، حلت له ولو لم تغتسل . والحرق : موضع النبت ، أى الأرض التى تستنبت ، شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، متى كان المأتى واحداً وهو موضع الحرق .

بعدما بين الله تعالى بعض الأحكام المتعلقة بالزواج بالآية السابقة ، ذكر فى هذه الآية أحكاماً أخرى تتعلق أحكاماً بالنساء ، وهو الحيض ، ويتعلق بعضها بالرجال فى المعاشرة الزوجية ، قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ولم يقل ويسألونك عن الحيض ، لأن المحيض لفظ يشمل ثلاثة معان : يشمل الحيض ، ومكان نزوله ، وزمانه وقد أجاب الله تعالى على هذه المعاني الثلاثة في الآية نفسها . أما عن الحيض فقال تعالى : ﴿ قل هو أذى ﴾ ، وأما عن مكانه فقال تعالى : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ ، وأما عن زمانه فقال سبحانه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ . وسوف نذكر هنا الأحكام المتعلقة بالحيض وما ذكره الفقهاء من هذه الأحكام . يقول الإمام أبو حنيفة : إن الحيض دم ينفضه رحم الأنثى البالغة التي لا داء بها ولا حبل ولم تبلغ سن اليأس ، ويحرم به ويدم النفاس : الصلاة والصيام وقراءة آيات من القرآن ومسها إلا بغلاف ، ودخول المسجد ، والطواف ، والجماع ، والاستمتاع إلى ما بين السرة ومنتهى الركبة .

ويقول الفقهاء : إن وقت الحيض لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين ، فإذا رأت الدم قبل بلوغها هذه السن لا يكون دم حيض بل دم علة وفساد ، وقد يمتد إلى آخر العمر ، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهي إليها ، فمتى رأت العجوز المسنة الدم فهو حيض .

لونه : يشترط في دم الحيض أن يكون على لون من ألوان الدم الآتية :

(أ) السواد : لحديث فاطمة بنت أبي حبيش أنها كانت تستحاض ، فقال لها النبي ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فامسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلي فإنما هو عرق)^(١) رواه أبو داود .

(ب) الحمرة : لأنها أصل الدم .

(جـ) الصفرة : وهي ماء تراه المرأة كالصديد يعلوه اصفرار .

(د) الكدرة : وهي التوسط بين لون البياض والسواد كالماء الوسخ ، لحديث علقمة بن أبي علقمة عن أمه مرجانة مولاة عائشة رضی الله عنها قالت : « كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسف (وعاء تضع المرأة فيه طيبها ومتاعها) فيه الصفرة ، فتقول : لا تعجلن حتى ترين القصة البيضاء » رواه مالك . إنما تكون الصفرة والكدرة حيضاً في أيام الحيض ، وفي غيرها لا تعتبر حيضاً ، لحديث أم عطية رضی الله عنها قالت : كنا لا نعد الصفرة والكدرة بعد الطهر شيئاً .

(هـ) مدته : لا يتقدر أقل الحيض ولا أكثره ولم يأت في تقدير مدته ما تقوم به الحجة ، ثم إن كانت لها عادة متقرة تعمل عليها ، لحديث أم سلمة رضی الله عنها : أنها استفتت رسول الله ﷺ في امرأة تهراق الدم فقال : (لتنظر قدر الليالي والأيام التي كانت تبيضهن وقدرهن من الشهر ، فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستنفر (أى تشد خرقة على فرجها) ثم تصلي^(٢) رواه الخمسة إلا الترمذي ، وإن لم تكن لها عادة متقرة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم ، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش المتقدم ، ومنه قول النبي ﷺ : (إذا كان دم الحيضة فإنه أسود يعرف) فدل الحديث على أن دم الحيض متميز عن غيره معروف لدى النساء .

(٢) المصدر السابق .

(١) نيل الأوطار للشوكاني ج ١ ص ٢٣٦ ط الحلبي .

(و) مدة الطهر بين الحيضتين : اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر المتخلل بين الحيضتين ، واختلفوا في أقله ، فقدره بعضهم بخمسة عشر يوماً ، وذهب فريق منهم إلى أنه ثلاثة عشر ، والحق أنه لم يأت في تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج به .

النفاس :

تعريفه : هو الدم الخارج من قبل المرأة بسبب الولادة ، وإن كان المولود سقطاً .

(مدته) لا حد لأقل النفاس ، فيتحقق بلحظة ، فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة ، أو ولدت بلا دم ، وانقضى نفاسها لزمها ما يلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرها ، وأما أكثره فأربعون يوماً لحديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : (كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً)^(١) رواه الخمسة إلا النسائي ، وقال الترمذى بعد هذا الحديث : قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فإنها تغتسل وتصلى ، فإن رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

ما يحرم على الحائض والنفاس :

تشترك الحائض والنفاس مع الجنب في جميع ما تقدم مما يحرم على الجنب ، وفي أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة يقال له محدث حدثاً أكبر ، ويحرم على الحائض والنفاس — زيادة على ما تقدم — أمور

(١) الصوم : فلا يحل للحائض والنفاس أن تصوم ، فإن صامت لا ينعقد صيامها ووقع باطلاً ، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الحيض والنفاس في شهر رمضان ، بخلاف ما فاتها من الصلاة ، فإنه لا يجب عليها قضاؤه دفعةً للمشفقة ، فإن الصلاة يكثر تكرارها بخلاف الصوم ، لحديث أبي سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : (يا معشر النساء تصدقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن : ولم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن . فقلن : ما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك نقصان دينها)^(٢) رواه البخارى ومسلم .

وعن مغاذه قالت : « سألت عائشة رضى الله عنها فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ قالت : كان يصيبننا ذلك مع رسول الله ﷺ . فتؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة » رواه الجماعة^(٣) .

(٢) الوطء : وهو حرام بإجماع المسلمين بنص الكتاب والسنة ، فلا يحل وطء الحائض والنفاس حتى

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

تظهر ، لحديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها . ولقد سأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) (١) . وفي لفظ إلا الجماع رواه الجماعة إلا البخارى . قال النووي : ولو اعتقد مسلم حل جماع الحائض في فرجها صار كافراً مرتداً ، ولو فعله غير معتقد حله ناسياً أو جاهلاً الحرمه أو وجود الحيض فلا إثم عليه ولا كفارة ، وإن فعله عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة يجب عليه التوبة منها . وفي وجوب الكفارة قولان : أصحابهما أنه لا كفارة عليه ، ثم قال : النوع الثانى أن يباشرها فيما فوق السرة وتحت الركبة ، وهذا حلال بالإجماع ، والنوع الثالث : أن يباشرها فيما بين السرة والركبة غير القبل والدبر . وأكثر العلماء على حرمة . ثم اختار النووي الحل مع الكراهة ، لأنه أقوى من حيث الدليل . انتهى ملخصاً .

والدليل الذى أشار إليه ما روى عن أزواج النبي ﷺ أن النبي كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها شيئاً رواه أبو داود (٢) . قال الحافظ إسناده قوى .

الاستحاضة :

١ - تعريفها : هى استمرار نزول الدم وجريانه فى غير أوانه .

٢ - أحوال المستحاضة : المستحاضة لها ثلاث حالات :

(أ) أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل الاستحاضة ، وفى هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هى مدة الحيض والباقى استحاضة ، لحديث أم سلمة أنها استفتت النبي ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : (لتنتظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستنفر ثم تصلى) (٣) رواه البخارى والشافعى . قال الخطابى : هذا حكم المرأة يكون لها من الشهر أيام معلومة تحيضها فى أيام الصحة قبل حدوث العلة ، ثم تستحاض فتتهريق الدم ويستمر بها السيلان ، أمرها النبي ﷺ أن تدع الصلاة من الشهر قدر الأيام التى كانت تحيض قبل أن يصيبها ما أصابها ، فإذا استبوت عدد تلك الأيام اغتسلت مرة واحدة وحكمها حكم الطواهر .

(ب) أن يستمر بها الدم ولم يكن لها أيام معروفة ، إما لأنها نسيت عادتاً أو بلغت مستحاضة ، ولا تستطيع تمييز دم الحيض ، وفى هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة على غالب عادة النساء ، لحديث حمنة بنت جحش قالت : كنت أستحاض حيضة شديدة كثيرة ، فجئت رسول الله ﷺ أستفتيه وأخبره ، فوجدته فى بيت أختى زينب بنت جحش ، قالت فقلت : يا رسول الله إني أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فما ترى فيها ، وقد منعتنى الصلاة والصيام ؟ فقال : (أنعت لك الكرشف (تلجمى بالقطن) فإنه يذهب

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

الدم . قالت : هو أكثر من ذلك ، قال : فتلجمي . قالت : إنما أئج ثجاً . فقال : سأمرك بأمرين أيهما فعلت فقد أجزأ عنك من الآخر ، فإن قويت عليهما فأنت أعلم ، فقال لها : إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان فتحيضين ستة إلى سبعة أيام في علم الله ، ثم اغتسلي حتى إذا رأيت أنك قد طهرت واستنقيت فصلي أربعاً وعشرين ليلة أو ثلاثاً وعشرين ليلة وأيامها ، وصومي ، فإن ذلك يجزئك ، وكذلك فافعلي في كل شهر كما تحيض النساء وكما يطهرن بميقات حيضهن وطهرهن ، وإن قويت على أن تؤخري الظهر وتعجلي العصر فتغتسلين ثم تصلين الظهر والعصر جميعاً ، ثم تؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين فافعلي ، وتغتسلين مع الفجر وتصلين فكذاك فافعلي ، وصلي وصومي إن قدرت على ذلك . وقال رسول الله ﷺ : هذا أحب الأمرين إلى^(١) . رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

قال الخطابي تعليقا على هذا الحديث : إنما هي امرأة مبتدئة لم يتقدم لها أيام ولا هي مميزة لدمها . وقد استمر بها الدم حتى غلبها ، فرد رسول الله ﷺ أمرها إلى العرف الظاهر والأمر الغالب من أحوال النساء ، كما حمل أمرها في حيضها كل شهر مرة واحدة على الغالب من عادتهن ، ويدل على هذا قوله : « كما تحيض النساء ويطهرن بميقات حيضهن وطهرهن » . قال (وهذا أصل في قياس أمر النساء بعضهن على بعض في باب الحيض والحمل والبلوغ وما أشبه هذا من أمورهن) .

(ج) ألا تكون لها عادة ، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره ، وفي هذه الحالة تعمل بالتمييز ، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش : أنها كانت تستحاض فقال لها النبي ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فامسكي عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلي فإنما هو عرض)^(٢) وقد تقدم .

٣ - أحكامها : للمستحاضة أحكام نلخصها فيما يأتي :

(أ) أنه لا يجب عليها الغسل لشيء من الصلاة ولا في وقت من الأوقات إلا مرة واحدة حينما ينقطع حيضها ، وبهذا قال جمهور السلف واختلف .

(ب) أنه يجب عليها الوضوء لكل صلاة لقوله ﷺ في رواية البخاري : (ثم توضئي لكل صلاة) ، وعند مالك يستحب لها الوضوء لكل صلاة ولا يجب إلا بحدث آخر .

(ج) أن تغسل فرجها قبل الوضوء وتحشوه بخرقه أو قطنه دفعاً للنجاسة وتقليلها لها ، فإذا لم يترفع الدم بذلك شدت مع ذلك على فرجها وتلجمت واستثفرت ، ولا يجب هذا ، وإنما هو الأولى .

(د) ألا تتوضأ قبل دخول وقت الصلاة عند الجمهور ، إذ طهارتها ضرورية ، فليس لها تقديمها قبل وقت الحاجة .

(هـ) أنه يجوز لزوجها أن يطأها في حال جريان الدم عند جماهير العلماء ، لأنه لم يرد دليل بتحريم

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

جماعها . قال ابن عباس : للمستحاضة يأتيها زوجها إذا صلبت ، الصلاة أعظم . رواه البخارى . يعنى إذا جاز لها أن تصلى ودمها جار ، وهى أعظم مايشترط لها الطهارة ، جاز جماعها . وعن عكرمة بنت حمزة أنها كانت مستحاضة ، وكان زوجها يجامعها . رواه أبو داود . وقال النووى إسناده حسن .

(و) أن لها حكم الطاهرات : فتصلى وتصوم وتعتكف وتقرأ القرآن وتمس المصحف وتحمله وتفعل كل العبادات ، وهذا مجمع عليه .

وحيث قد انتهينا من ذكر أحكام الفقهاء ، ننتقل بعد هذا إلى ما جاء فى تفسير آية المحيض فى كتاب (القرآن والطب) . قال المؤلف :

إن بلاغة القرآن الكريم لاتزال من أكبر معجزاته الخالدة التى حيرت عقول البلغاء ، وأفحمت جهابذة الخطباء ، وأعجزت فطاحل الكتاب والشعراء . نزل القرآن الكريم والعرب لايشق لهم فى البلاغة غبار ، فتحداهم بقوله : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ ^(١) ، فعجزوا ولجأوا إلى الطعن والنزال حين خذلهم المقال ، واستعانوا ببذاءة اللسان حين خانهم البيان ، فلزمتهم الحجة كما لزمت المصريين حين خذل سحرة فرعون .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصص حياة ﴾ ^(٢) ، كيف أن اللفظ اليسير قد حوى المعنى الكبير ؛ ثم انظر إلى آية المحيض فى جزالة لفظها وسلامة تركيبها كم تحوى من معان سامية ، تنظر إليها من أى جهة فتبهر بصرك وتأخذ عليك عقلك ، فلرجل اللغة فيها مقالات ، وللفقيه جولات ، وللطبيب عجائب وحالات .

وعندما أصل إلى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ أقف مشدوها ، وقد أسرنى بديع النظم ، وأخذنى جلال المعنى ، وسحرتنى دقة البيان . إن لفظ ﴿ أذى ﴾ ، هذا اللفظ المتواضع فى هذه الآية المعجزة سوف نرى كم يضم من المعانى ، وكم يحوى من الأغراض .

والله لقد حاولت أن أجد كلمة تستطيع أن تقوم مقامها أو تحمل حملها فأعيانى البحث ، وسنرى كيف أن أمثال إثم ونجس وضرر . . الخ ، لا تفسر المعنى الطبى الذى تؤديه كلمة ﴿ أذى ﴾ ، وسنرى كيف أن هذه الكلمة فى هذه الآية درة من دررها ومعجزة من معجزاتها .

حكم المحيض عند اليهود :

إن وطء الحائض يحرمه الدين اليهودى تحريماً باتاً ، وقد جاء فى كتبهم : (ولا تقترب إلى امرأة فى نجاسة طمثها لتكشف عورتها) لاوين ١٧-١٩ . بل لم يقتصر الحكم على تحريم الوطء فقط ، بل تعداه إلى الحكم على نجاسة كل ماتمسه الحائض من فراش أو متاع أو ثياب ، بل كل من لمسها من الناس يصير كذلك نجساً ، ويحكم بنجاسة من لامس الحائض سبعة أيام يصير أثناءها منجساً لكل من مسه من الأشياء أو مسه

من الناس مما هو مفصل في سفر اللاويين بالأصحاح الخامس عشر حيث يقول : (وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دمًا في لحمها فسبعة أيام تكون في طمئتها وكل من مسها يكون نجسًا ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسًا إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمئتها عليه يكون نجسًا سبعة أيام ، وكل فرش يضطجع عليه يكون نجسًا ، وهذا هو الحكم في اليهودية .

حكمه عند المسيحيين :

أما المسيحيون فإنجيلهم لا ينقض هذا الحكم ، بل ينص على أن جميع أحكام التوراة واجب العمل بها ؛ فقد جاء في كتابهم أن عيسى عليه السلام صرح بأنه ما جاء لينقض الناموس الإسرائيلي ، بل ليكمله . كما جاء في إنجيلهم على لسان المسيح : (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل ، فإنما الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل) متى ٥ - ١٧ ، ١٨ . بالرغم من ذلك فإن المسيحيين عموماً لا يرون في وطء الحائض إثماً .

حد من وطأ الحائض في الإسلام :

وللخطورة التي تترتب على وطء الحائض أجمع المسلمون على اعتباره محرماً ، عملاً بالآية الشريفة . ولو اعتقد مسلم حله كان كافراً ، وإنى أعلم أن كثيراً من المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، لا يتورعون عن مخالفة أوامر الله تعالى ، بل تراهم يقلدون غير المسلمين تقليداً أعمى لا سبيل فيه للتروى ولا للعقل فيه مجال ، ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سيلاً ﴾ (١) ، بل يريدون أن يحوروا كلام الله تعالى حسب أهوائهم المضلة ويفسروه كما يتراءى لعقولهم الطائشة .

والحمد لله أن هذه الفئة قليلة ، هتك الله سترها ووقى المسلمين شرها ، وإلا فما حكمك على دعوى في العلم يحسب أن نهاية المعرفة ترك الدين والتنفير من أحكامه ، ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ (٢) .

والإسلام يرى أن من يباشر امرأته بالجماع في الحيض ، وكان ناسياً أو غير عالم بوجود الحيض ، لا إثم عليه ولا كفارة ؛ أما إذا كان متعمداً ، فقد ارتكب معصية . نص الشافعي على أنها كبيرة ووجب عليه التوبة . قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٣) .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ .

(١) سورة النساء آية : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٦ .

توجيه النهى للرجال :

والحكمة العظيمة في توجيهه سبحانه وتعالى النهى إلى الذكور دون الإناث مع اشتراكهما جميعاً في كل ما يترتب على هذا الفعل من الويلات ، وفيما يجره من الأذى والأهوال ، هي لما عرف عن النساء من ضعف الإرادة وقلة الحيلة وخور العزيمة ، ولكون هذا الأمر يكاد يكون في أيدي الرجال دونهم ، ولكون امتناع أحد الطرفين هو ذاته الامتنال إلى التحريم والاذعان له ، والحكمة كلها في تكليف أقوى الجنسين وأقدرهما على ضبط النفس ومقاومتها ، والتغلب على العاطفة الجنسية وعدم الاستسلام لها ؛ قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ (١) .

دورة الحيض :

وليس يهنا هنا البحث في فسيولوجيا الحيض ، بل يكفي أن نذكر أن الطمث حالة طبيعية تمر بدورتها بنات حواء عامة ، وهذه الدورة تقبل في كل شهر قمرى حيث تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يوماً ؛ ويبدأ الحيض من السنة الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة من سنى الحياة ، وذلك في بلادنا المعتدلة الحرارة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ، ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهى حين تبلغ الأنثى سن الخامسة والأربعين أو الخمسين .

آلام الحيض :

ودورة الحيض ، رغم كونها طبيعية ، إلا أنها تسبب للنساء آلاماً شتى ، فإنهن يجدن عادة في زمن الحيض انحرافاً في مزاجهن ، ويشعرن بتعب عام في أجسامهن ، ويقاسين في بعض الأحيان آلاماً شديدة في أصلاهن ، ويعانين حدة في طبعهن إلى غير ذلك من الآلام التي تعتبر في ذاتها أعراضاً للطمث . والطمث ، ولو أننا لا نستطيع أن نسميه مرضاً بالاصطلاح العلمى ، حالة لا تقل عن المرض خطورة ، من حيث الآلام التي قد تحدثها ، والضعف الجسماني الذي يترتب عليها ، والأمراض التي تكون الأنثى أثناءها عرضة لها ؛ وهذه الحالة أشبه بالحمل ، قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾ (٢) أى ضعفاً على ضعف كلما كبر حجم الجنين ، ولكن الحيض ، فوق ما يسببه من الضعف ، يسبب للأنثى متاعب قد تبلغ حدّاً لا يطاق وآلاماً لا تحتمل ؛ خلاف ما تتعرض له من المضاعفات التي سنذكر أمثلة لها .

كثيراً ما تتضاعف أعراض الحيض السالفة الذكر وتشتد وطأتها حتى تعاني منها المرأة آلاماً مبرحة وتعباً شديداً يزيد في أيامه الأولى ، وقد تشعر الحائض بمغص شديد تصحبه عادة أعراض (هستيرية) قد تنتهى بالإغماء . وإنّ أشير إلى هذه الحالة لأن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يقاسى كل هذا العناء وينوء وحده تحت أهوال هذا العبء ؛ ولعل عسر الطمث أكثر الأمراض شيوعاً بين بنات حواء وأشدّها ملازمة لهن ، ولعل الواجب يقتضى اعتزال الحائض لما تعانیه وتكتمه أو تبديه من الآلام ، هينها وشديدها ، هذا الأمر هو

(١) سورة النساء آية : ٢٤ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٤ .

بعض ما حوته كلمة «أذى» من المعاني المتشعبة ، بل هناك قذارة الدم ورداءة الموضع ، مما يدعو الرجل المهذب أن يكون عفيفاً لا يستعبده هواه ولا تذله نفسه .

عرضة الحائض للأمراض :

إن الجهاز التناسلي للمرأة هو في الواقع أهم أعضائها ، وإننا نستطيع أن نقرر أن الحالة الطبيعية لها هي الحمل والرضاع ، والحيض يمتنع في أثناء هذين الزمنين لاحتياج الجسم إلى المدخر من المواد الغذائية ، فيما عدا ذلك يأتي الطمث حتى يتوازن نظام الوارد والمنصرف ، فإذا حصل أى خلل في الجهاز التناسلي كالالتهابات مثلاً ، اختلفت دورة الحيض وترتب على ذلك عسر الطمث ، وهو ما أشرنا إليه . وسنرى فيما يلي كيف أن الوطء في الحيض من الوسائل القوية في إحداثه :

إن المرأة أيام الحيض معرضة لكثير من العلل التي تؤثر تأثيراً ليس مقصوراً على صحتها العامة فقط ، بل على حياتها التناسلية ، ولا يفوتني أن أذكر أن اضطرابات الحيض أو البرد أثناء دورة الطمث أو الإفراط في الشهوات من أقوى الأسباب المهيئة للتهابات المبيض التي تكون أقرب نتيجة مباشرة لها هي العقم ، ولو علمت بالأمراض الخطرة التي تتعرض لها الأنثى من الوطء في الحيض لرحمت نفسك ورحمتها ، ولأمنت شراً يصيبك ويصيبها . ولعل مباشرة المرأة بالجماع في أثناء الطمث من أكبر الكبائر ، لأن الضرر لو كان عائداً على الرجل وحده لكان الأمر ولقلنا : أحق ، يريد بنفسه ضرراً ، ولكنها هي نفسها التي سوف تقاسى الألم الأكبر وتعاني العذاب الطويل . ولا يغيب عن البال أن الضرر لا يقتصر على الرجل والمرأة وحدهما ، بل هو على الهيئة الاجتماعية أشد وبلا وأعظم مصيبة ، فحسبك أنه يسبب قلة النسل ، حتى إذا ما فشا بين الناس قطعه بالكلية ، وعندها تكون الطامة على المجتمع الإنساني .

الوسط المهبل وتغيره بالحيض :

إنه في الأحوال العادية في أثناء الصحة يفرز المهبل إفرازاً خاصاً لتلينه ، وهذا الإفراز حمضي في تفاعله وسبب ذلك يرجع إلى احتوائه على حامض اللينيك ، ويحتوى هذا الإفراز كذلك على جراثيم باسلية عديدة تسمى «باسلات المهبل» ، وبجانب ذلك يعيش نوع من الكائنات الحية الفطرية لا يسبب مرضاً ، ويسمى هذا الفطر «مونيلىا كانديدا» ، وهذا الأخير لا يمكنه التكاثر مطلقاً إلا في وجود باسلات المهبل .

وما هو جدير بالذكر أن هذا الإفراز ، بما يحتويه ، يمنع نمو الجراثيم الرمية والصديدية . وإذا تغير هذا الإفراز وأصبح قلوياً أو متعادلاً انعدمت فيه باسلات المهبل والمونيلىا جميعاً ، وحلت محلها جراثيم أخرى فتاكة ، كالجراثيم العفنة والاستافيلوكوكس (مكروبيات البذور العنينة) ، والاستر بتوككس (البذور السبحية) ، وفي بعض الحالات الجونوكوكس ؛ وكل هذه جراثيم فتاكة تحدث آفات مهبلية ورحمية ، بل قد يمتد ضررها إلى جميع الجهاز التناسلي ، ولكي نقرب إلى الأذهان ماهية هذه الجراثيم نضرب مثلاً بالاستربتوككس ، وهو جرثومة مستديرة الشكل أبيضية ، يبلغ طولها من سبعة من العشرة من الميكرونات

إلى ميكرون واحد وتتصل هذه الجراثيم بعضها ببعض على هيئة سلاسل مختلفة الطول ، وهذه الجراثيم تتحمل الحرارة القوية حتى درجة ٥٤ سنتجرام ، والاستربتوككس هو العامل المعفن في بعض الالتهابات البوقية ، كالعنق النفاس مثلاً ، حيث وجد في القيح بين الخلايا البشرية . ولقد وجد أن الإستافيلوكس يعمل عمل الإستربتوككس في هذه الحالة ، ولقد وجد معه كثيراً ، ولو أن وجوده في القيح يعد نادراً .

ولقد عثر كل من « شيفر » و « منجه » على الاستربتوككس في المبيض مسبباً التهاباً مبيضياً حاداً ، وما هو جدير بالذكر أن الإفراز المهبل العادى له فعل مطهر شديد المفعول ، وهذا الفعل يعود إلى وجود حامض اللينيك الذى تنتجه الباسلات المهبلية ، فتكون جميع أنواع الالتهابات ناجمة عن هجوم البكتريا وإصابتها للمهبل . والأسباب المهيمنة لهذه الالتهابات هى أية حالة تؤثر في الإفراز ، فتجعله قلوياً أو متعادلاً .

والحالات التى تحدث ذلك أهمها وجود الدم الذى يحول الوسط الحامضى إلى القلوية أو التعادل ، ووجود الدم يحدث طبيعياً في أثناء الحيض . ويدعو كذلك إلى تحويل الوسط الحامضى إلى القلوى ، أى مهيئ آلى للغشاء المخاطى كوجود أشياء غريبة في المهبل أو الوطء أثناء الطمث .

أذى وطء المرأة في أثناء الحيض :

من هنا يتضح لك أن الحيض ، والوطء في أثناءه ، هو أهم الأسباب المهيمنة لالتهاب المهبل ، وهذا أكثر أنواع التهاب المهبل شيوعاً ، وفيه تكبر البابلى ، وتأخذ في الازدياد في الحجم حتى ينتهى الأمر بتلف الغشاء المخاطى لها ، وينجم عن ذلك نموتوءات على جميع سطح المهبل ، وعند هذه الحالة يسمى الالتهاب اسماً خاصاً ، وهذه الالتهابات تحدث ألاماً شديدة في الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وفي الوقت نفسه يظهر رشح وترتفع درجة حرارة الأعضاء التناسلية ويحترق الغشاء المخاطى ، وفي الأحوال الحادة تجد المصابة ألاماً مبرحة وتعانى ورماً شديداً ويلتهب الجهاز التناسلى ويحدث رشح شديد وترتفع درجة الحرارة وتزداد ضربات القلب ، وتظهر أعراض أخرى كثيرة ناشئة عن امتصاص الجسم لمواد سامة .

وأريد أن أوجه النظر إلى مرض غاية في الخطورة ينشأ عن الالتهاب المهبلى ، هذا المرض يسميه الطب (فجينسمص) ، ويكفى أن تعرف أنه يسبب العقم . ولاشك أن الالتهاب المهبلى هو من أكبر العوامل المسببة للالتهاب الذى يصيب الغشاء المخاطى للمثانة ، فيظهر فيها التهاب شديد ، وتمتاز إذ ذاك بصلابتها ، وتشعر المريضة بالميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه ، ويصبح البول شديد الكدرة مصحوباً بقيح ومدة وبعض الزلال ، وفي الأحوال الحادة جداً يكون مصحوباً بدماء ، وعند فحص البول بالمجهر تجد فيه كثيراً من البكتريا ، وفي الأحوال المزمنة تشاهد تقرحات في الغشاء المخاطى للمثانة .

إن الجماع هو من وسائل حمل البكتريا إلى داخل المهبل ، وهذا الأمر لم يعرف في الطب إلا حديثاً ؛ وقد علمنا أن الوسط المهبل في أثناء الحيض صالح لنموها . فالجراثيم الصديدية التى توجد في الالتهابات الحادة المختلفة في أحوال التقيح والتى تكون مصحوبة دائماً بالمدة لا تعيش مطلقاً إلا في الوسط القلوى ، ولقد وجد

بالتجارب أنك إذا أدخلت بعض أنواع هذه الجراثيم في المهبل السليم لا تلبث أن تموت في ساعات قليلة . وأنواع البكتريا التي ينتظر أن تصيب المهبل هي : الجونوككس ، والاستافيلوككس ، والاستربتوككس ، والبالسلس كلای كميونس . وأنواع مختلفة من الدبلوككس والباكتريا السابروفيتك باسلات الدفترید ، وهناك ، كذلك ، أصناف مختلفة من الفطر تصيب المهبل وتسبب مرضاً يسمى (ميكونك فجينيتس) ، وأهم أنواع هذه الفطريات هي أونيدیم البيكاتز ولبتوتركس فجينالز . وأريد أن أقول هنا إن الحيض والوطء في أثناءه هو من أهم الأسباب المهيئة لتعفن الرحم الذي فضلاً عن أنه يسبب العقم ، فهو من أشد الأمراض إيلاماً للمرأة ، حيث تقاسى منه آلاماً في الحوض لا تطاق ، فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة والمضاعفات الأخرى الخطرة التي تكون نتيجة ذلك التعفن ، ولعل أهمها إصابة ملحقات الرحم .

منايع العدوى :

والرجل إما أن يكون هو الناقل للعدوى إلى الحائض ، وهو الأكثر وقوعاً ، ثم يظهر المرض لوجود الوسط الصالح لنمو الجراثيم المذكورة ، أو تصل هي إليه من الحائض حين تكون العدوى ذاتية ، وذلك لوجود بكتريا مرضية في المهبل والرحم السليمين في حالة خمول ، وهذا الحمل لا يلبث أن يتحول إلى نشاط إذا وجد الوسط الصالح لنمو الجراثيم وتكاثرها ، وكل ذلك متوفر طبعاً في أثناء الحيض من حيث يصاب الرجل .

ومنايع العدوى كثيرة بالرغم من أن بعض الناس قد يظن خلاف ذلك ، وتلك المنايع تشمل الفتحة التناسلية وجميع الأعضاء التي تحف بها ، كالإست والعجان ، وذلك بسبب إفراز العرق والدهن من غدد كل منها ، وهو ما يؤدي إلى تجمع الجراثيم وامتدادها وسهولة غزوها للأعضاء التناسلية ؛ أما الأوساط الآلية فأولها الجماع ، ثم تأتي بعده الملابس والمناشف وغيرها ، بل الهواء والغبار وكل ما ذهب مذهبهما وسائل لإيصال الجراثيم .

الأذى الذي يصيب الرجل :

من ذلك يتضح جلياً أن المهبل في أثناء الحيض عرضة لكل ما ذكرت من الجراثيم المعدية التي تصيب الرجل ، فتحدث عنده التهابات مختلفة في أعضائه التناسلية ، إذ تمتد الجراثيم إلى داخل القناة البولية ، بل قد تصيب المثانة والحالبين ، بل قد يمتد الالتهاب حتى يصيب غدة كوبر والبروستاتا والخويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ . إن الجماع في الحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو في غنى عنه وعن مضاعفاته لو عفت نفسه ووعى أمره ، فليست إصابة القناة البولية بالأمر الهين أو الخطب اليسير ، بل هذه الإصابة هي التي تجر ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات إذا ما ولجت هذه القناة أحدثت التهاباً شديداً يتعذر معه التبول الذي يحدث في بعض الأحيان آلاماً لا تطاق ومتاعب لا تحتمل ، وهذا الالتهاب يصحبه عادة إفراز مدي شديد يلوث عند اشتداد الحالة بالدماء ، ولا يخفى أن ذلك يكون مصحوباً كذلك بأعراض عامة مختلفة في جميع أجزاء الجسم كالحمى والقشعريرة ، وذلك بجانب ما يطرأ من الضعف العام والانحطاط في جميع

الأعضاء . أما إذا امتد الالتهاب إلى المجرى الخلفى ، فهناك تكون الطامة الكبرى ، حيث يكثر القيح الذى تتخلله خيوط من الدماء ، ويصعب التبول وتتضاعف مع ذلك الآلام ويشتد الضعف وتقل الشهية للطعام ، ويسير هذا الحال بجانب الحمى وسرعة ضربات القلب وإجهاده . . . إلخ . . . ولأسباب شتى يزمن المرض وتصحبه مضاعفات عامة فى غاية الحدة والخطورة ، فمن ذلك التهاب الحشفة والقلقة مما قد يؤدى إلى حدوث الغنغرينة فيها ، وذلك يكون خاصة فى حالة الانكماش أو الاختناق ، مما يدعو إلى وجوب القيام بعملية البتر حتى لا يتسمم سائر البدن .

وإذا علمت أن مجرى البول ملتصق الجدران حتى أنه لا يظهر بمظهر القناة إلا إذا سرت فيه أجسام غريبة ، كالبول مثلاً ، إذا علمت ذلك سهلت عليك معرفة كيفية امتداد الجراثيم المرضية إلى سائر الجهاز التناسلى . وفى المجرى البولى توجد فتحتان لقناتى غدة (كوبر) ، من حيث تصاب الغدة المذكورة فتحدث الآلام الشديدة سواء أكان ذلك عند التبول أم التبرز ، ويحس المصاب ألماً كبيراً عند العجان ، وهو الموضع الذى بين الخصيتين والشرج ، وقد ينتهى الأمر بتقرح الغدة وامتلائها بالقيح . وتوجد فتحات كثيرة لغدد البروستاتا فى الجزء البروستاقى من القناة البولية ، وعند إصابة هذه الغدد تتشنج المثانة ويختل فعلها ، فتشتد الآلام ويصير البول مصحوباً بمدة ودم ، وقد ينتهى الأمر بتقيح البروستاتا مما يستدعى تدخل الجراح ، وهذه العملية من الخطورة بمكان ، ولا يخفى أن حالة المريض إذ ذاك يرثى لها وتعتريه الحمى ، وعند ذلك يختل نظام القلب ، وعند إصابة الحويصلتين المنويتين يشتد الألم فى العجان ويتضاعف هذا الألم عند التبول أو التغوط كما يحدث نفس الأمر عند المشى أو عند مجرد الجلوس ، وعند امتداد الإصابة إلى البربخ والخصيتين يعانى المصاب آلاماً متشعبة ، إذ قد يصاب البربخ بالورم حتى يبلغ حجمه بيضة الدجاجة ، وقد ينسد الحبل المنوى الذى قد يستمر انسداد مدى الحياة ، وفى هذه الحالة يتألم المريض عند الوقوف ، وقد تعتريه نوبات هستيرية ، كل هذه الحالات لا ينجو من إحداها من ركب رأسه وأق هذا العمل الشائن الذى حكم الشرع بضرره وخطورته وحذر من ويلاته ومصائبه ونهى عن إلقاء النفس بين مخالبه .

ولقد عرف الطب هذا الخطر الداهم للبشر واهتدى إلى أصل أمراضه وعلمه ، وقد أشرت إلى كل ذلك إشارة أظن أنها كافية لإعطاء المرء فكرة عامة صحيحة عن مبلغ الأذى الذى ينجم عن الوطء فى المحيض . ليس عدم إصابة رجل وطأ امرأته مرة وهى حائض دليلاً على عدم وجود الأذى ، والعاقل هو الذى يتجنب الشيء الذى يتحتم وصول الضرر إليه منه ، ولكن كثيراً من الناس ، لضعف عقولهم واستهتارهم ، لا يبالون بالضرر حتى يصيبهم . ﴿ وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿ (١) ﴾ . وكيف يتعامى الإنسان عن آيات ربه ويتغافل عنها ؟ ولقد نبهه إلى سبيل الأمراض والعلل وحذره من الوقوع فى حبال الرذيلة والفساد وأمره بالمحافظة على جسمه وحته على تهذيب نفسه وتطهيرها من أدران القبائح والمساوىء حتى يصبح رجلاً كاملاً صحيح الجسم والنفس سعيداً فى الدنيا وسعيداً فى الآخرة ؛ وهل ترى السعادة فى الدنيا غير سلامة الجسم

وطهارة الروح وصفاء النفس ؛ الأمر الذى يدعو إليه الدين الإسلامى قال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ (١) . إن الالتهاب البسيط فى القناة البولية هو الذى يسبب كل هذه المضاعفات التى ذكرتها ، وكيف لا ؟ وهذا الالتهاب سببه الجراثيم الفتاكة التى سميتها آنفاً ، وليس ببعيد أن يمتد الالتهاب فى الحالبين وقاعدة الكليتين ، حيث يمتنع نزول البول فى الحالة الأولى ، فيترتب عليه التسمم الدموى (يوريميا) ، أما فى الحالة الثانية فالموت هو أقرب النتائج لها .

وإن إصابة البربخ ، فضلاً عن كونها تنشأ عن امتداد الإصابة من القناة البولية ، فهى نتيجة مباشرة كذلك للجماع فى المحيض ، ويجب ألا يغيب عن البال أن كثيراً جداً من أحوال العقم تسبب عن هذه الإصابة التى تنذر العالم بشر مستطير وتهدد كيانه بخطر داهم .

مما تقدم يستطيع القارئ اللبيب أن يلم بالأذى المتشعب الذى عناه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ، ذلك الأذى الذى يحمل بنى آدم ، رجالاً ونساء ، ما لا طاقة لهم به من الآلام والأمراض ، بل ذلك الأذى الذى يترتب عنه عقم المرأة وعقم الرجل جميعاً ، وهو ما يهدد العالم بالفناء والزوال .

وإنى لأظن أنه كاف للمرء أن يذكر الله له ضرر الشيء ليتحاشاه ويتجنبه ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ (٢) . وكيف لا يكون فاسقاً من يعصى أمر ربه ويسلك سبيل الغواية الذى حذره منه بعد أن تبين له ضرره وشاهد بعينى رأسه خطورته . قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ (٣) .

المنع وتقوية الإرادة :

ولا يخفى أن من حكم تحريم المباشرة فى أثناء الطمث تعويد الرجل على الصبر على بعد المرأة مدة من الزمن ، إذ أن الرجل كثيراً ما تدعوه أعماله الخاصة إلى السفر والتغيب عن أهله مدداً مختلفة ، ففى التحريم رحمة به وتقوية لعزيمته ، ولعل ذلك كحكمة الصيام فى تدريب المرء على الصبر على الجوع واحتمال قلة الطعام أو عدمه فى سفره وترحاله وما قد يلاقه فى أثناء صيامه ، والمنع فى الحالتين تعويد للجسم على احتمال الطوارئ حتى لا يفاجأ البدن بما لم يتدرب عليه ، ولا تؤخذ النفس على غرة منها .

وطء الحيض لا إنبات فيه :

هنالك نقطة أخرى أريد الإشارة إليها إشارة لا تتعدى الحصر ، ولو أنها لها أهمية خلقية كبيرة ، وهى أن الوطء فى ذاته لم يخلقه سبحانه وتعالى لمجرد الشهوة البهيمية ، بل خلقه لغاية هى أسمى بكثير من ذلك ، ألا وهى النسل وحفظ كيان العالم والعمل على عدم فنائه وبواره . وكلنا يعلم ، فضلاً عما تقدم ، أن الوطء

(٣) سورة البقرة آية : ٩٩ .

(١) سورة النساء آية : ١٣٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٨٧ .

في المحيض لا يعقب ولا يحدث حملاً مطلقاً ، بل هو كواضع الشيء في غير موضعه وكبذر البذور في أرض قاحلة جرداء لا تنبت زرعاً ولا تأتى بشمر ؛ وحسبك قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، والحرث مكان الإنبات ، وليس في وقت الحيض تلقيح أو نسل ؛ ولا يظن أحد أن هذا وحده سبب كاف للنهى عن هذا الفعل ، بل هو ، كما ذكرت ، يعطيه مظهر الحيوانية وعدم التعفف وقلة العقل لما بينته من آلام المحيض وقذارة الدم وأضرار الوطء في أثناء الطمث ا . هـ .

وبعد بيان الجانب الطبى في دم الحيض وما احتواه من أذى ، نفق خاشعين أمام قول الله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، وكيف اقتضت الحكمة الإلهية أن تحتتم آية المحيض بالتوبة والطهر ، ذلك لأن الله يعلم ما بالإنسان من ضعف الإرادة أمام نداء الغرائز ، وأن هناك من ضعفاء الإرادة من ينهزم أمام نداء الشهوة ، فيياشر في الحيض أمام ضعف عزيمته ، فأراد ربك ألا يقنط أحد من رحمته ، ففتح باب التوبة لكل من هوى في سحيق الرذيلة ومضمار الجريمة فلا يأس من رحمة الله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ (١) . وكما أنه تعالى يحب التوابين فإنه يحب المتطهرين ، سواء أكان المقصود بالطهارة هنا الطهارة الحسية بالغسل والوضوء أم الطهارة المعنوية كطهارة النفس من الذنوب والمخالفات ، وطهارة القلب من الشحناء والبغضاء ، وسبحان من زكى عقائد المؤمنين فقال في أول سورة المؤمنين ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وطهر قلوبهم فقال : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ ، وطهر ألسنتهم فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ وطهر أموالهم فقال : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ، وطهر أعراضهم فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، وطهر معاملتهم فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ووصفهم بالالتزام في العبادة فقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وحكم لهم حكمه الكريم الذى يفيض رحمة وكرماً ويشع نوراً وبهاء وجلالاً وجمالاً وكمالاً فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ وما أدراك ما الفردوس ، إنه أعلى الجنات ، سقفه عرش الرحمن جل جلاله .

ونختتم الكلام عن المحيض بما جاء في كتاب «الإسلام والطب الحديث» قال المؤلف : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ .

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم ، مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته إلخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) ، وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض ، وهذا النوع يسمى (Excretion) . فهذه الآية الكريمة علمت الإنسان ، قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الإفرازات ، أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾

فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان ، والأعصاب تكون في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ؛ فالاختلاط الجنسي يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبي ، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية ، من النساء وقت الحيض . ا . ه .

قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ ، المقصود بهن الزوجات ، والحَرْث هو مكان الزرع والغرس والنسل . وفي التعبير بالحَرْث إشارة لطيفة إلى حسن اختيار الزوجة ، فالمكان الطيب ينبت النبات الطيب ، ومن هنا وجب التخير للنطفة ، فإن العرق دساس ، ومن حق الولد على والده أن يستنجب أمه ، إذ البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

إياك تجنى سكرًا من حنظل فالشيء يرجع في المذاق لأصله

كما أن في كلمة الحَرْث إشارة إلى مكان المباشرة ، ومن هنا فإن الله تعالى قال بعد ذلك : ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أُنَى شَتْمٌ ﴾ ، ليعلم البشرية أنه لا يؤتى النساء إلا في هذا المكان الذي حدده الله بالحَرْث ، ولو شاء لقال : فَأَتُوا نَسَاءَكُمْ أُنَى شَتْمٌ ، فحتى يقطع أقاويل الجاهلين العابثين فإنه حدد مكان الحَرْث للإتيان . قال ﷺ : (ملعون من أتى امرأة في دبرها) (١) ، وقال : (ملعون من عمل بعمل قوم لوط) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أُنَى شَتْمٌ ﴾ ، أى على أى وضع وكيفية ، بشرط أن يكون من حيث أمركم الله وبينه لكم في قوله نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ . قال جل شأنه : ﴿ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، أى قدموا العمل الصالح ليكون لكم ذخراً يوم العرض على الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) . ثم أمر تعالى بتقواه فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، أى احذروا مخالفته في ما أمركم به ، فعليكم بالترام ما أمر واجتنب ما نهى . ثم قال سبحانه : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ ، فلا مفر من لقائه ، فنفذوا أحكامه ومنها ما جاء في هذه السورة مما سبق بيانه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، بشرهم بالجنة ونعيمها .

الآيمان

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

(٣) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

المفردات : العرضة كالغرفة : المانع المعترض دون الشيء ، والمراد من الأيمان ، الأمور المحلوف عليها ، كما جاء في الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) . واللغو : ما يقع في حشو الكلام من الأيمان من غير قصد ولا روية كقول الإنسان : أى والله ، ولا والله ، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين ، فلا يؤخذ الله به بفرض كفارة ولا بعقاب حتى لا يكون في ذلك حرج على المؤمنين . والإيلاء : لغة الحلف ، وشرعا حلف الرجل ألا يقرب امرأته إما لمدة معينة أو غير معينة كأن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر ، أو لا أقربك ، والتربص : الانتظار ، وفاءوا : أى رجعوا إلى نسائهم ، وعزموا الطلاق : أى صمّموا في قصده وعزموا ألا يعودوا إلى ملازمة نسائهم .

في الآيات السابقة حذّرنا الله تبارك اسمه من الوقوع في أشياء حرّمها علينا ، كقرب الحائض في قوله جلّ شأنه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ ، وفي هذه الآيات حذّرنا جلّ شأنه من الوقوع في أشياء أخرى تتعلق بالأيمان ، فقال : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، ومعنى عرضة أى مانعا من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فقد اقتضت رحمة الله الحكيم أن يزيل الموانع والعوائق من طريق البر ، إذ أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء . وصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكتئا . فاصنع المعروف في أهله وفي غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله . فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

ازرع جميلا ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحضده إلا الذى زرعا

ولو كان المانع من فعل الخير حلقا ، فإن الله عظمت حكمته يأمر بفعل الخير ويكفر الخالف يمينه حتى لا تكون اليمين مانعة من البر والتقوى والإصلاح .

قال ﷺ : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) (١) .

ولما حلف أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أن يمنع العطاء عن مسطح ، بعد ما خاض مع الخائضين في حادثة الإفك ، أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، كما أنزل : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (٢) .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . (٢) سورة النور آية : ٢٢ .

قال أبو بكر : والله إني أحب أن يغفر الله لي فأعطاه وأجزل له العطاء وكان مسطح من ذوى القربى . . . قال ﷺ : (أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح)^(١) ، أى الذى يضمم السوء والحقد والبغضاء ، ذلك لأن فى التصديق عليه هدفين من أسمى الأهداف : أولهما أن المتصدق يجاهد نفسه ، وجهاد النفس فى أعلى مراتب الجهاد ؛ فالنفس هنا تقول : لا تعطه فإنه يضمم لك السوء ، والله تعالى يقول : اعطه لأغفر لك ، فإن أطعت ربك وعصيت نفسك وأعطيته فأنت ممن قال الله فيهم : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾^(٢) .

والهدف الثانى أنك بالعطاء تطفىء غيظ قلبه وتحول سوء نفسه إلى محبة ووفاء ، فتكون قد أصبت الهدفين ، وبها تنال الرضا من الله ، ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾^(٣) .

وهناك من الأحاديث ما يفيد اتباع الخير وترك الشر ولو كان هناك حلف . قال ﷺ : (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتها)^(٤) .

وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)^(٥) .

وقال ﷺ : (لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفراتها)^(٦) .

قوله تعالى : ﴿والله سميع عليم﴾ ، أى سميع لأقوالكم وأيمانكم ، عليم بنياتكم وما فى قلوبكم . وفى تلك الآية يتجلى جانب الإنسانية فى الإسلام ، فالإسلام خير كله وبر كله وإصلاح كله . (ألا أدلكم على ما هو خير من الصلاة والصدقة والصيام والحج ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، فإن قطيعة ذات البين هى الخالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين)^(٧) . ولقد نهى الإسلام نهيا قاطعا وحذّر تحذيرا شديدا للهجة من الإيقاع بين الناس وإفساد الصلوات بينهم . قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾^(٨) ، فسماه الله تعالى فاسقا ولو كان صادقا فى نقل ما يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، فإن كان كاذبا فقد سماه الله تعالى مشاء بنميم ، وخرطه فى سلك المنحرفين عن طريق الجادة . قال تعالى : ﴿ولا تطع كل حلاف

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ ط الشعب .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٧٢ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة الحجرات آية : ٦ .

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(٣) سورة الليل الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .

مهيّن * همّاز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم ﴿١﴾ . قال ﷺ : (لا يدخل الجنة ثمام) ﴿٢﴾ . وقال : (شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف لسانه أو يخاف شره) ﴿٣﴾ ، وقال : (ألا أخبركم بشراركم ؟ قلنا : بلى . قال : من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقبل عشرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه) ﴿٤﴾ .

فأنعم بالإسلام وأكرم به وأعظم بتعاليمه :
لو أن إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا هي أنت بل أنت اليد البيضاء
دين يُشيد آية في آية لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا ؟ والله جلّ جلاله البناء

ومن بيان أحكام الإيمان قوله جل شأنه : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ ، والمقصود باللغو ما يجري على الألسنة من غير قصد ، كقول الخالف : نعم والله ولا والله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ قال : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله) ﴿٥﴾ .

وليمين اللغو وجوه نذكرها فيما يلي :
فمن تلك الوجوه ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه .
وقيل : هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه .
وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجني الله من مالي ، وإن لم آتك غدا فهو هذا .
وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

وفي حديث مرسل - عن الحسن بن أبي الحسن - قال : مر رسول الله ﷺ يقوم يتتضلون - يعني يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ، قال : (كلا ، أيمان الرماة لغو ، لا كفارة فيها ولا عقوبة) ﴿٦﴾ .

وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة ! فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك !

(٤) المصدر السابق .

(١) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ ط الشعب .

(٢) رياض الصالحين للإمام النووي ص ٣٩٣ ط دار التراث العربي .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٢ ط الشعب .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٧ ط دار الفكر .

كفر عن يمينك وكلم أخاك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ، ولا في قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك)^(١) .

قال الإمام مالك في الموطأ : أحسن ما سمعت في ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحداً ويقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن تكون له كفارة .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ ، أي من القصد والنية ، ويشمل ذلك نوعين من الأيمان : اليمين المنعقدة ، أن يحلف على شيء سيفعل ثم لا يفعل . وإنما سميت يمين الغموس لأنها تغمس حالفها في النار ، لأنه تعمد الكذب على الله ، وتسمى الكاذبة والفاجرة ، وكثيرا ما تقع من شاهد الزور أمام القاضي حتى قال بعض الفقهاء : إنها أعظم من الكفارة فلا كفارة له .

أما اليمين المنعقدة إذا حنث فيها حالفها فلها كفارة ، جاء بيانها في سورة المائدة . فعلى الحالف أن يراعى ثلاثة أمور : ألا يحلف إلا بالله ، وألا يحلف إلا للضرورة ، وأن يكون صادقا إذا حلف . قال تعالى : ﴿ واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾^(٢) . أما الذي يحلف بما شاء وبمن شاء فهو الله وحده ، لأنه خالق الأشياء ، يحلف بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، ويحلف بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . ويحلف بالعاديات والصفات والمرسلات والنازعات . كما يحلف بحياة سيد الكائنات محمد ﷺ فيقول : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾^(٣) .

قال تعالى : ﴿ والله غفور حلیم ﴾ ، حيث تجاوز عن أيمان اللغو مغفرة منه وحلما ، وحيث فتح باب التوبة وشرع الكفارات أمام الأيمان التي فيها كسب للقلوب وقصد ونية ، فهو الغفور الذي يستر الذنوب ويخفيها ، والحليم الذي يتجاوز عن السيئات .

مازلت أعرف بالإساءة دائما	ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتنى	حتى كأن إساءتي إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم المنان

يا من له علم الغيوب ووصفه	ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الوري	كرما فليس عليه ثم جناح
تولى الجميل على القبيح تكرما	أنت الإله الواحد الفتاح

(٣) سورة الحجر آية : ٧٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٣ ط الشعب .

(٢) سورة المائدة آية : ٨٩ .

وهذه أحكام تتعلق بالإيمان ورد ذكرها في أحاديث الرسول ﷺ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)^(١) وعنه رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : « لا والكعبة » فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك)^(٢) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان)^(٣) . قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقا من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾^(٤) .

وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الخارثي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيا من أراك)^(٥) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)^(٦) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب)^(٧) .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)^(٨) .

قال الفقهاء في الإيمان : جمع يمين وهى فى الشرع : تحقيق الأمر أو توكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته . أو هو عقد يقوى به الخالف عزمه على الفعل أو الترك . واليمين والحلف والإيلاء والقسم بمعنى واحد . واليمين لا يكون إلا بذكر الله أو صفة من صفاته : سواء أكانت صفات ذات أم صفات أفعال كقوله : والله وعزة الله وعظمته وكبريائه وقدرته وإرادته وعلمه . وكذا الحلف بالمصحف أو القرآن أو سورة أو آية منه .

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿^(٩) . ويقول : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ على أن نبذل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴿^(١٠) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كانت يمين النبي ﷺ : (لا ومقلب القلوب)^(١١) . وعن أبي

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٢٩٧ ط دار الفكر . | (٧) المصدر السابق . |
| (٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . | (٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٥٦ . |
| (٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . | (٩) سورة الذاريات الأيتان : ٢٢ ، ٢٣ . |
| (٤) سورة آل عمران آية ٧٧ . | (١٠) سورة المعارج الأيتان : ٤٠ ، ٤١ . |
| (٥) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٣٠٠ ط دار الفكر . | (١١) نيل الأوطار للشوكاني ج ٨ ص ١٨٨ . |
| (٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٥٩١ ط دار الفكر . | |

سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال : (والذي نفس أبي القاسم بيده)^(١) .

أي الله وعمر الله وأقسمت عليك : قسم :
أي الله يمين ، لأنها بمعنى : والله - أو : وحق الله . ويمين الله يمين عند الأحناف والمالكية لأن معناها أحلف بالله .

الحلف بأنه غير مسلم ، أو الحلف بالبراءة من الإسلام :

من حلف بأنه يهودى أو نصرانى أو أنه برىء من الله أو من رسوله ﷺ ، إن فعل كذا ففعله . روى أبو داود والنسائي عن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال : (من حلف فقال : إني برىء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً)^(٢) وعن ثابت بن الضحاك أن النبي ﷺ قال : (من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال)^(٣)

شرط اليمين وركنها : يشترط في اليمين : العقل والبلوغ والإسلام وإمكان البر ، والاختيار ، فإن حلف مكرها لم تنعقد يمينه . وركنها : اللفظ المستعمل فيها .

حكم اليمين : حكم اليمين أن يفعل الحالف المحلوف به فيكون باراً . أولاً يفعله فيحنت وتجب الكفارة .

أقسام اليمين : تنقسم الأيمان أقساماً ثلاثة : اليمين اللغو - اليمين المنعقدة - اليمين الغموس .

١ - اليمين اللغو وحكمها : يمين اللغو : هي الحلف من غير قصد اليمين ، كأن يقول المرء : والله لتأكلن أو لتشربن أو لتحضرن . ونحو ذلك لا يريد به يمينا ولا يقصد به قسماً ، فهو من مسقط القول . فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أنزلت هذه الآية ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ . في قول الرجل : لا والله . وبلى والله . وكلا والله .

٢ - اليمين المنعقدة وحكمها : اليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمم عليها ، فهي يمين متعمدة مقصودة وليست لغواً يجرى على اللسان بمقتضى العرف والعادة . وقيل : اليمين المنعقدة هي أن يحلف على أمر من المستقبل أن يفعله . وحكمها : وجوب الكفارة فيها عند الحنث .

يقول الله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم ﴾ . ويقول : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾^(٤)

(٣) المصدر السابق ص ١٣ .

(٤) سورة المائدة آية : ٨٩ .

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق ج ٣ ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

٣ - اليمين الغموس وحكمها : واليمين الغموس وتسمى أيضا الصابرة ، وهي اليمين الكاذبة التي تهضم بها الحقوق أو التي يقصد بها الغش والخيانة . وهي كبيرة من كبائر الإثم ، ولا كفارة فيها ، لأنها أعظم من أن تكفر ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم ، وتجب التوبة منها . ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ (١) .

روى أحمد رضى الله عنه وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (خمس ليس هن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق) (٢) وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس) (٣) . وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : (من حلف على يمين مصبورة كاذبا فليتبوأ بوجهه مقعده من النار) (٤) .

لاحث مع النسيان أو الخطأ :

من حلف ألا يفعل شيئا ففعله ناسيا أو خطأ فإنه لا يحث لقول الرسول ﷺ : (إن الله تجاوز لى عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (٥) . والله يقول : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ (٦) يمين المكره غير لازمة :

لا يلزم الوفاء باليمين التي يكره المرء عليها ، ولا ياثم إذا حث فيها للحديث المتقدم ، ولأن المكره مسلوب الإرادة ، وسلب الإرادة يسقط التكليف . ولهذا ذهب الأئمة الثلاثة إلى أن يمين المكره لا تتعقد . كفارة اليمين :

تعريف الكفارة : الكفارة صيغة مبالغة من الكفر ، وهو الستر ، والمقصود بها هنا الأعمال التي تكفر بعض الذنوب وتستترها حتى لا يكون لها أثر يؤخذ به في الدنيا ولا في الآخرة .

والذى يكفر اليمين المنعقدة إذا حث فيها الخالف : ١ - الإطعام ، ٢ - الكسوة ، ٣ - العتق ، على التخيير ، فمن لم يستطع فليصم ثلاثة أيام مرتبة ترتبها تصاعديا ، أى تبدأ من الأدنى للأعلى فالإطعام أدناها ، والكسوة أوسطها والعتق أعلاها .

جواز الحث للمصلحة :

الأصل أن يفى الخالف باليمين . ويجوز له العدول عن الوفاء ، إذا رأى في ذلك مصلحة راجحة .

(٤) مصبورة : أى ألزم بها وجس عليها وكانت لازمة من جهة الحكم .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٠ .

(٦) سورة الأحزاب آية : ٥ .

(١) سورة النحل آية : ٩٤ .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١ .

يقول تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ ، أى لا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من البر والتقوى والإصلاح . ويقول عز وجل : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ ^(١) . أى شرع الله لكم تحليل الأيمان بعمل الكفارة . روى أحمد والبخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك) ^(٢) أقسام اليمين باعتبار المحلوف عليه :

- وعلى هذا يمكن تقسيم اليمين باعتبار المحلوف عليه إلى الأقسام الآتية :
- ١ - أن يحلف على فعل واجب أو ترك محرم . فهذا يحرم الحنث فيه ، لأنه تأكيد لما كلفه الله به من عبادة .
 - ٢ - أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم . فهذا يجب الحنث فيه لأنه حلف على معصية كما تجب الكفارة .
 - ٣ - أن يحلف على فعل مباح أو تركه . فهذا يكره فيه الحنث ويندب البر .
 - ٤ - أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه . فالحنث مندوب ، ويكره التماضى فيه وتجب الكفارة .
 - ٥ - أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة لله ، فيندب له الوفاء ويكره الحنث .

الإيلاء

قوله تعالى : ﴿ للذين يؤولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . بعدما بين الله جل ذكره أحكام الأيمان فى الآيات السابقة ، ذكر هنا حكما خاصا يتعلق بيمين الرجل ألا يقرب زوجته ، وهذا ما يسمى بالإيلاء ، وله أحكام يذكرها الفقهاء فيما يلى :

تعريفه : الإيلاء شرعا هو الامتناع باليمين من وطء الزوجة . وقد كان الرجل فى الجاهلية يحلف على ألا يمس امرأته السنة والستين والأكثر من ذلك بقصد الإضرار بها ، فيتركها معلقة ، لا هى زوجة ، ولا هى مطلقة . فأراد الله - سبحانه - أن يضع حدا لهذا العمل الضار ، فوَقَّته بمدة أربعة أشهر ، يتروى فيها الرجل ، عليه يرجع إلى رشده ، فإن رجع فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنث فى اليمين ولامس زوجته وكفر عن يمينه فيها وإلا طلق .

مدة الإيلاء : اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كان موليا ، واختلفوا فيما بين حلف ألا يمسها أربعة أشهر ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : يثبت له حكم الإيلاء . وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء ، لأن الله جعل له مدة أربعة أشهر وبعد انقضائها : إما الفىء وإما الطلاق .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى ج ٨ ص ١٩٨ .

(١) سورة التحريم آية : ٢ .

حكم الإيلاء : إذا حلف ألا يقرب زوجته فإن مسها في الأربعة الأشهر انتهى الإيلاء ولزمته كفارة اليمين . وإذا مضت المدة ولم يجامعها ، فيرى جمهور العلماء أن للزوجة أن تطالبه إما بالوطء وإما بالطلاق . فإن امتنع عنها فيرى مالك أن للحاكم أن يطلق عليه دفعا للضرر عن الزوجة . ويرى أحمد والشافعي وأهل الظاهر أن القاضي لا يطلق وإنما يضيق على الزوج ويجسه حتى يطلقها بنفسه . وأما الأحناف فيرون أنه إذا مضت المدة ولم يجامعها فإنها تطلق طلقة بائنة ، بمجرد مضي المدة . ولا يكون للزوج حق المراجعة لأنه أساء في استعمال حقه بامتناعه عن الوطء بغير عذر ، ففوت حق زوجته وصار بذلك ظالما لها . ويرى الإمام مالك أن الزوج يلزمه حكم الإيلاء إذا قصد الإضرار بترك الوطء وإن لم يحلف على ذلك ، لوقوع الضرر في هذه الحال كما هو واقع في حالة اليمين .

الطلاق الذي يقع بالإيلاء :

والطلاق الذي يقع بالإيلاء طلاق بائن لأنه لو كان رجعيا لأمكن للزوج أن يجبرها على الرجعة ؛ لأنها حق له ، وبذلك لا تتحقق مصلحة الزوجة ولا يزول عنها الضرر ، وهذا مذهب أبي حنيفة . وذهب مالك والشافعي وسعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن إلى أنه طلاق رجعي ، لأنه لم يقم دليل على أنه بائن ، ولأنه طلاق زوجة مدخول بها من غير عوض ولا استيفاء عدة .

عدة الزوجة المولى منها :

ذهب الجمهور إلى أن الزوجة المولى منها تعتد كسائر المطلقات لأنها مطلقة ، وقال جابر بن زيد : لا تلزمها عدة إذا كانت قد حاضت في مدة الأربعة أشهر ثلاث حيضات ، قاله ابن رشد ، وقال بقوله طائفة ، وهو مروى عن ابن عباس ، وحجته أن العدة إنما وضعت لبراءة الرحم ، وهذه قد حصلت لها البراءة .

أحكام تتعلق بالأسرة

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

المفردات : التربص : الانتظار . والقروء : واحدها قرء (بضم القاف وفتحها) ، يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها ، ومن ثم قال الحنفية والحنابلة : المراد به الحيض : وقال المالكية والشافعية : المراد

به الطهر ، وما في أرحامهن يشمل الولد والحيض . والبعولة واحداهم بعل ، وهو الزوج ، والمراد بالدرجة هنا ما جاء في قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ (١) .

هذه آية جامعة لأحكام عظيمة تقوم عليها حياة الأسرة ، فبعدما بين الله تعالى حكم الإيلاء وقال : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿ (٢) ؛ بين هذا أن المطلقة لا يحل لها أن تتزوج من آخر إلا بعد انقضاء عدتها ، وعلى المطلقة أن تتربص بنفسها ، أى تنتظر حتى تحيض ثلاث مرات إن كانت من ذوات الحيض . والله تعالى حكمة بالغة في وجوب العدة . قال الفقهاء : وحكمة مشروعية العدة معرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب بعضها ببعض ، وتهيئة فرصة للزوجين لإعادة الحياة الزوجية إن رأيا أن الخير في ذلك . كذلك التنويه بفخامة أمر النكاح ؛ حيث لم يكن أمراً ينتظم إلا بجميع الرجال ، ولا ينفك إلا بانتظار طويل ، ولولا ذلك لكان بمنزلة لعب الصبيان ، ينظم ثم ينفك في الساعة . إن مصالح النكاح لا تتم حتى يوطنا أنفسهما على إدامة هذا العقد ظاهراً ، فإن حدث حادث يوجب فك النظام لم يكن بد من تحقيق صورة الإدامة في الجملة بأن تتربص مدة تجد لتربصها بالآ وتقاسى لها عناء . ولناخذ الآن في بيان أحكام العدة : فقد عرفها الفقهاء بأنها مأخوذة من العد والإحصاء : أى ما تحبسه المرأة وتعدّه من الأيام : والأقراء ، وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها : وكانت العدة معروفة فى الجاهلية ، وكانوا لا يكادون يتركونها ، فلما جاء الإسلام أقرها لما فيها من مصالح ، وأجمع العلماء على وجوبها لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

وقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس : (اعتدى في بيت ابن أم مكتوم) .

وقد بين الفقهاء أنواعها فقالوا العدة أنواع : ١ - عدة المرأة التى تحيض هى ثلاث حيضات . ٢ - عدة المرأة التى يئست من الحيض وهى ثلاثة أشهر . ٣ - عدة المرأة التى مات عنها زوجها وهى أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً . ٤ - عدة الحامل أن تضع حملها . ونفصل أحكام العدة فيما يلى :

عدة الزوجة غير المدخول بها : والزوجة غير المدخول بها إن طلقت فلا عدة عليها لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ (٣) .

فإن كانت غير مدخول بها وقد مات عنها زوجها فعليها العدة كما لو كان قد دخل بها لقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ (٤) ، إنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

عدة المدخول بها : وأما المدخول بها فإما أن تكون من ذوات الحيض أو من غير ذوات الحيض . فإن كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ ، والقروء جمع قرء والقرء : الحيض ، ورجح ذلك ابن القيم ، فقال : إن لفظ القرء لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض ولم يحى عنه في موضع واحد استعماله للطهر ، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى بل يتعين ، فإنه قد قال به ﷺ وهو المعبر عن الله وقد بلغه قومه وبه نزل القرآن ، فإذا أورد المشترك في كلامه على أحد معنييه ؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه إذا لم يثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه البتة ، وبصير هو لغة القرآن التي خوطبنا بها وإن كان له معنى آخر في كلام غيره ، وإذا ثبت استعمال الشارع للقرء في الحيض علم أن هذا لغته ، فيتعين حمله عليها في كلامه ، ويدل على ذلك ما في سياق الآية من قوله تعالى :

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ ، وهذا هو الحيض والحمل عند عامة المفسرين . والمخلوق في الرحم إنما هو الحيض الوجودي وبهذا قال السلف والخلف ولم يقل أحد أنه الطهر . وأيضاً فقد قال سبحانه :

﴿ واللاتئى يشسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتئى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾^(١) فجعل كل شهر بإزاء حيضة ، وتعليق الحكم بعدم الحيض لا بعدم الطهر والحيض .

وقال في موضع آخر : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾^(٢) ، معناه لاستقبال عدتهن لا فيها ، وإذا كانت العدة التي يطلق لها النساء مستقبلية بعد الطلاق ، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض ، فإن الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هي فيه وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التي هي فيها .

أما عدة غير الحائض . فهي ثلاثة أشهر ، ويصدق ذلك على الصغيرة التي لم تبلغ والكبيرة التي لم تحض سواء أكان الحيض لم يسبق لها أم انقطع حيضها بعد وجوده ، لقول الله تعالى : ﴿ واللاتئى يشسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتئى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾^(٣) .

وتنتهى عدة الحامل بوضع الحمل سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها لقول الله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾^(٤) .

أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً لقول الله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾^(٥) ، وإن طلق امرأته طلاقاً رجعيّاً ثم مات

(١) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٢) سورة الطلاق الآية : ١ .

(٣) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٤) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

عنها وهي في العدة ، اعتدت بعدة الوفاة لأنه توفي عنها وهي زوجته .

أما انقضاء العدة فيحدث فيما يلي : إذا كانت المرأة حاملاً فإن عدتها تنقضي بوضع الحمل ، وإذا كانت العدة بالأشهر فإنها تحتسب من وقت الفرقة أو الوفاة حتى تستكمل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر وعشراً ، وإذا كانت بالحيض فإنها تنقضي بثلاث حيضات ، وذلك يعرف من جهة المرأة نفسها .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ . المراد بما خلق الله في أرحامهن : الحيض والولد كما سبق بيانه ، وتعلق ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هذا الأمر مرجعه إلى إيمان المرأة ومدى خشيتها من الله وخوفها من حسابه ، فعليها أن تكون صادقة في شأن عدتها ، لا تنقص ولا تزيد ولا تكذب ابتغاء النفقة أو تعجيل الزواج بغير المطلق ، ومن هنا فقد كان الإسلام حريصاً على إبقاء الحياة الزوجية حيث جعل للزوج الذي طلق زوجته طلاقاً رجعيّاً الحق في أن يراجعها ما دام ذلك في العدة . قال تعالى : ﴿ ويعولتهن أحق بربدهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ . ومما يشجع على ردها في العدة أن الشرع الحكيم ألزمها أن تقضي العدة في بيت الزوجية . قال الفقهاء : يجب على المعتدة أن تلزم بيتها (بيت الزوجية) حتى تنقضي عدتها ، ولا يحل لها أن تخرج منه ولا يحل لزوجها أن يخرجها منه ، ولو وقع الطلاق أو حصلت الفرقة وهي غير موجودة في بيت الزوجية ، وجب عليها أن تعود إليه بمجرد علمها :

يقول تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة وانقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (١) .

ومن حرص الإسلام على السعادة الزوجية أنه ناشد الرجال أن تتوفر إرادتهم على الإصلاح ، قال تعالى : ﴿ إن أرادوا إصلاحاً ﴾ وقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (٢) . كما أوصى الزوجات بحسن المعاشرة حيث قال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (٣) . وقد نظم الإسلام الحقوق والواجبات بين الزوجين ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات ، فمن حق المرأة الإنفاق عليها ، ومن واجباتها التربية والتدبير لأولاد الرجل ، والحرص على ماله بحيث تحفظه في عرضها وماله . « إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك » . وقد بلغ من عناية المسلمين بهذه الحقوق وتلك الواجبات أن ابن عباس كان يقول : إنني لأتزين لامرأتى كما تتزين لي ، ومن ثم جاء قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ ، أي لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، وتلك عدالة الإسلام النظيفة التي لا تعرف الظلم ولا تهضم الحقوق . أما قوله جل شأنه : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فيفسره ، قوله عز وجل :

(٣) سورة النساء آية : ٣٤ .

(١) سورة الطلاق آية : ١ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٩ .

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾^(١) ومهما قال الكتاب السوفسطائيون الذين يهرفون بما لا يعرفون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فإن الله تعالى أقام الوزن بالقسط ولم يخسر الميزان . فهل من حق المرأة أن تكون قيمة على زوجها وقد خلق الله الرجال أقوى جسماً وعقلاً ؟ فأى الفريقين أحق بقيادة البيت ؟ لقد خلق الله المرأة أكثر حناناً وعطفاً ، وتلك خاصية التربية تحققها على أكمل الوجوه ، فإذا كان الرجل أقوى عقلاً وجسماً فهو الحقيق بالقيام على شئون البيت الخارجية ، وإذا كانت المرأة أكثر حناناً فهي الجديرة بالتربية والتدبير ورعاية الأولاد . والمسئولية في الإسلام موزعة توزيعاً حكيماً عادلاً ، قال ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته)^(٢) . أما ما يردده هؤلاء المتغربون الذين صنعت رؤوسهم في عواصم الشرق الملحد والغرب المنحل ، فليس هذا تشريفاً أو تكريماً للمرأة ، إنما هو تدمير وتحطيم لها عندما تزاحم الرجال في أعمال لا شأن لها بها ، وعندما تغادر بيتها وتسلم أطفالها للحاضنات . . إنها بذلك تكون كالطفل الذي يحمل السلاح في يده ، فيجنى به عليه وعلى غيره ، أما مكانها الصحيح اللائق برسالتها فهو الذي قال فيه الحكيم الخبير : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾^(٣) .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

تلك عدالة الاسلام ، فليست المساواة أن تزاحم المرأة الرجال في الأعمال ووسائل المواصلات ، وتكشف ما أمر الله تعالى بستره ، إنما العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات ، فلكل من الرجل والمرأة حقوق وعلى كل واجباته . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾^(٤) . ومن الضلالة العمياء والجهالة الجاهلاء أن يقال إن هذه الآيات خاصة بأمهات المؤمنين ، وهن نساء رسول الله ﷺ ، ونحن نقول : إن الخطاب في هذه الآيات موجه إلى نساء المؤمنين وإلا فهل نساء المؤمنين غير مأمورات بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله المتمثل في آياته وسنة رسوله ؟ وهل نساء المؤمنين غير منهيات عن التبرج في قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾^(٥) . أما قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾^(٦) ، فإن المقصود بلستن هنا ، الثواب والعقاب المتمثل في قوله جل جلاله : ﴿ يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾^(٧) ، جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ ، فقد جاءت لستن بعد الثواب والعقاب ، وإلا فكان المنطق يقتضى أن تأتى الآية : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ بعد تمام الأوامر والنواهي . وقد بين الله تعالى ذلك الأمر بياناً شافياً وهو يحذر من التبرج قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .

(٧) سورة الأحزاب الأيتان : ٣١، ٣٠ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٨٩ ط دار الفكر .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٤ .

المؤمنين يدين عليهم من جلايبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً^(١) ، فعطف نساء المؤمنين في الحكم على أزواج النبی الأمين حتى يقطع المعاذير والحجج الواهية على الذين يعضفون الهواء ويحاولون أن يقتلوا من الرمال حبلاً ، يدعون أنهم بذلك أنصار المرأة ، والله يعلم أنهم أعداؤها ومحطموها ومدمروها ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء ، فالسقاء والإسلام صنوان ، والشمس وتعاليم الله متلازمان في الوضوح والصفاء والنقاء والسمو الروحي . وتبارك الله إذ يختم آية الأحكام المتعلقة بالأسرة فيقول : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ . فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز الذي شرع من الأحكام ما فيه عزة الزوجين وكرامة الأسرة ، حكماً يضع الأمور في نصابها ، ويقيم المعايير إقامة لا عوج فيها ولا التواء .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
لا تذكروا الكتب السوالم عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلاً

من الذي شرع هذه الأحكام ؟
﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾^(٢) ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾^(٣) .

أحكام تتعلق بالطلاق

الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَيْتَمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٨﴾

ومن أحكام الحياة الزوجية أحكام تتعلق بالطلاق ، وهو أبغض الحلال إلى الله تعالى كما أخبر بذلك الصادق المعصوم . وقد شرع الله الطلاق ليكون دواء لداء استعصى علاجه ؛ فشرعة الإسلام شرعية علمية ، فلا بد أن يتوافر في صيدليته كل الأدوية . وقد جعل الله الزواج شركة رأسمالها المودة والرحمة ، وجعله آية من آياته ونعمة من نعمه ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾^(٤) . وقد صحح النبي ﷺ مفاهيم قوم ظنوا أن ترك الزواج مقربة إلى الله فقال : (أما إنى لأتقاكم وأخشاكم لله لكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(٥) . لكن قد يطرأ على الحياة الزوجية ما يعكر صفوها فتتراكم

(٤) سورة الروم آية : ٢١ .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١١ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

الغيوم في سمائها ، عندئذ يعالج الإسلام تلك المنغصات علاجاً حكيماً فيقول : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (١) فهذه مراتب وأحوال عندما يقع النشوز من المرأة . . تعالج بالوعظ فيذكرها بالله ويذكرها بأقوال رسول الله ﷺ ويذكرها بأولادهما وبالأيام التي مضت وبالنعم التي أنعم الله بها عليهما وأن الحياة لا تخلو من كدر ولكن الله تعالى جعل مع الضيق فرجاً ومع الصبر نصراً ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسراً ، فالليل مهما طال فلا بد له من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وعليه في وعظه أن يخوفها من السنة السوء وقالة الحاسدين المبغضين ، فإن لم يجد الوعظ طريقه إلى قلبها فليهجرها في المضاجع ، بحيث لا يفارق المكان الذي تنام فيه إلى مكان آخر ، لأن الله يقول في المضاجع ولم يقل اهجروهن من المضاجع ، وذلك حتى يستطيع أن يروض سلاح كبريائها الذي تدل به عليه وهو الإغراء بالجنس ، ففي ذلك تهديئة لثورتها إذا ما أرادت أن تضع زوجها في اليم مكتوفاً وتقول له إياك إياك ان تبتل بالماء ، فإن لم يؤثر فيها الهجر ، بأن كانت باردة ، فعليه أن يؤديها بالضرب الخفيف ، فإن من الطباع طباعاً تفرعها العصي ، كما أن هناك طباعاً تكفيها المقالة . وقد يكون الضرب أهون بكثير من الذهاب إلى المحاكم وساحات القضاء حيث تذاع أسرار البيوت فتلوكها الألسنة ويحدث هناك فجور في الخصومة ، فيرمى كل من الزوجين الآخر بماليس فيه ؛ وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (٢)

هذا إن كان النشوز من جانب المرأة ، أما إن كان من جانب الرجل ، فقد بين الله سبيل الإصلاح في قوله : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ (٣) فقد يكون الرجل من الذين يصلحهم المال إن كانت زوجته ذات مال فلا بأس أن تطفئ غضب قلبه ببذل شيء من ماله ، فقد طبعت النفوس على الشح وجبلت على البخل إلا ما رحم ربي ، فبذل المال أهون من تحطيم صرح الزوجية وتركه قاعاً صفيصفاً تنعق فوقه اليوم والغربان بعد ما كان روضة غناء ، تصدح فوق أشجارها بلابل السعادة . أما إن كان النشوز من الزوجين كليهما فإن الله جلت قدرته بين سبيل الإصلاح في قوله : ﴿ وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ (٤) . وما أجمل ما كان يفهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله ، فقد كان محدثاً ملهماً نافذ البصيرة عميق الفهم قوى الحجة عبقرى الفؤاد صائب الرأي ثاقب الفكر . حدث أن أرسل حكيمين ليصلحا بين زوجين ولكنها عادا ولم يصلحا ، فعلاهما بدرته ، أي عصاه ، قالوا : يا أمير المؤمنين وما ذنبنا إذا لم يصطلحا ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لو كان في نيتكما أن يصطلحا لأصلح الله بينهما ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . وما أمس حاجة المسلمين في هذا العصر الذي تقطعت فيه أواصر المحبة وتمزقت

(٣) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٤) سورة النساء آية : ٣٥ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

فيه وشائج الألفة ، وما أمس حاجتهم إلى المصلحين الذين طهرت قلوبهم من الحقد وأيديهم من الرشوة وثيابهم من الدنس ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

فإذا لم يجد الوعظ والهجر والضرب سبيلاً إلى قلب المرأة الناشز ، ولم يجد الصلح وبذل المال سبيلاً إلى قلب الزوج الناشز ، ولم يجد التحكيم سبيلاً إلى قلب كل منهما ، فهل يترك الإسلام الموقف بينهما جامداً متحجراً كالماء الراكد حتى يعتدى كل منهما على الآخر للتخلص منه إما بالقتل أو الضرب المبرح أو إذاعة الأسرار التي حرم الله نشرها ، قال ﷺ : (إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة والمرأة تفضي إلى الرجل ثم ينشر كل منهما حديث الآخر) (٢) . إن الإسلام لا يعرف السلبية ، بل هو إيجابى فى الخير دائماً ، هل يترك الزوجين متنازعين متنافرين متناحرين ، إن هذه سلبية قاتلة ، إن الإسلام فى علاج مشاكل الدنيا كالنسيم الهادى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحاررة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ ﴾ (٣) ، فتأمل هذا التعبير العظيم الذى يعبر عن الطلاق بالتفريق ليشعر كل من الزوجين بمرارة الفراق ، وعندئذ يحسن كل منهما إلى الآخر فيكون الوفاق ويقع الإصلاح . وقد بلغ من حساسية الإسلام فى تلك المواقف أنه لا ينتظر وقوع البلاء ، بل إنه بمجرد الخوف من شبح المشكلة يدعو إلى إصلاحها قبل أن يصير الشر نارا عظيماً فيقول تعالى فى حق تعدد الزوجات : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾ (٤) ، بمجرد الخوف ، ويقول : ﴿ وَاللَّاتِ تَخَافُونَ نَشُوزَهُنَّ ﴾ (٥) ، ويقول : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ (٦) ، ويقول : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ (٧) ، وعندما يعين الطلاق علاجاً لداء استعصى علاجه قال : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ، أى مرة بعد مرة ، فقد يأتى الله بالفرج الذى قال فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (٨) ثم يقول تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (٩) ولحكمة أرادها الله يقول فى سورة الطلاق : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١٠) ، ويقول جللت قدرته : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴾ (١١) . ويقول عظمت حكمته : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (١٢) ويقول وسعت رحمته فى نفس السورة :

(٧) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٨) سورة الطلاق آية : ١ .

(٩) سورة الطلاق آية : ١ .

(١٠) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

(١١) سورة الطلاق الآيتان : ٤ ، ٥ .

(١٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .

(٢) حديث شريف .

(٣) سورة النساء آية : ١٣٠ .

(٤) سورة النساء آية : ٣ .

(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٦) سورة النساء آية : ٣٥ .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ (١).

هذا هو الإسلام وتلك عظمته ، ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل ليته ما نهى .

وللطلاق أحكام نبينها فيما يلي :

قال الفقهاء في تعريف الطلاق : هو حل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية ، ثم يعقب الفقهاء بقولهم : إن استقرار الحياة الزوجية غاية من الغايات التي يحرص عليها الإسلام ، وعقد الزواج إنما يعقد للدوام والتأبيد إلى أن تنتهي الحياة ليتسنى للزوجين أن يجعلوا من البيت مهداً يأويان إليه وينعمان في ظلاله الوارفة وليتمكنوا من تنشئة أولادهما تنشئة صالحة .

ومن أجل هذا كانت الصلة بين الزوجين من أقدس الصلات وأوثقها ، وليس أدل على قدسيتها من أن الله سبحانه سمي العهد بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ فقال : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٢) .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين هكذا موثقة مؤكدة ، فإنه لا ينبغي الإخلال بها ولا التهوين من شأنها ، وكل أمر من شأنه أن يوهن من هذه الصلة ويضعف من شأنها فهو بغضض إلى الإسلام لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق) (٣) ، وأى إنسان أراد أن يفسد ما بين الزوجين من علاقة فهو في نظر الإسلام خارج عنه وليس له شرف الانتساب إليه ؛ يقول الرسول ﷺ : (ليس منا من خيب (٤) امرأة على زوجها) (٥) .

وقد يحدث أن بعض النسوة يحاول أن يستأثر بالزوج ويحل محل زوجته ، والإسلام ينهى عن ذلك أشد النهي ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحتها) (٦) وتنكح ، فإنما لها ما قدر لها (٧) . والزوجة التي تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتض حرام عليها رائحة الجنة فعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة) (٨) . وقد كان الطلاق في الجاهلية كما ذكرته أم المؤمنين عائشة قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا راجعها وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لأطلقك فتبينى منى ولا آويك أبداً ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتكم أن تنقضى راجعتكم . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ومن لم يكن طلق .

(١) سورة الطلاق آية : ١١ .

(٢) سورة النساء آية : ٢١ .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤١ .

(٤) خيب : أفسد .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٦) أى لتخل عصىة أختها من الزواج ولتحظى بزواجها

(٧) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٨) المصدر السابق .

وقد جعل الإسلام الطلاق من حق الرجل وحده ، لأنه أحرص على بقاء الزوجية التي أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق وأراد عقد زواج آخر . وعليه أن يعطى المطلقة مؤخر المهر ومتعة الطلاق ، وأن ينفق عليها في مدة العدة . ولأنه بذلك ويمقتضى عقله وحكمته يكون أصبر على ما يكره من المرأة فلا يسارع إلى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئة منها يشق عليه احتمالها ، وقد تكون المرأة أسرع منه غضباً وأقل احتمالاً وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما عليه ، فهي أجدر بالمبادرة إلى حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب أو لما لا يعد سبباً صحيحاً إن أعطى لها هذا الحق . والدليل على صحة هذا التعليل الأخير أن الإفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين .

مسائل تتعلق بالطلاق

من يقع منه الطلاق ؟ اتفق العلماء على أن الزوج العاقل البالغ المختار هو الذي يجوز له أن يطلق وأن طلاقه يقع . فإذا كان مجنوناً أو صبيّاً أو مكرهاً فإن طلاقه يعتبر لغوا لو صدر منه . لأن الطلاق تصرف من التصرفات التي لها آثارها ونتائجها في حياة الزوجين ، ولا بد من أن يكون المطلق كامل الأهلية حتى تصح تصرفاته . وإنما تكتمل الأهلية بالعقل والبلوغ والاختيار ، وفي هذا يروى أصحاب السنن عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال : (رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل)^(١) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله)^(٢) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما - فحين يكرهه اللصوص فيطلق - فليس بشيء (البخارى) .

الطلاق قبل الزواج

لا يقع الطلاق إذا علقه على التزوج بأجنبية كأن يقول : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، لما رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك)^(٣) ، قال الترمذى : حديث حسن وهو أحسن شيء روى في هذا الباب وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم .

الإشهاد على الطلاق

ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون إشهاد ، لأن الطلاق من حقوق الرجل ولا يحتاج إلى بينة كى يباشر حقه ، ولم يرد عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد ، وذلك لأن الطلاق حق من حقوق الزوج وقد جعله الله بيده ولم يجعل الله لغيره حقاً فيه ، قال

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ .

قال ابن القيم : فجعل الطلاق لمن نكح لأن له الإمساك وهو الرجعة .

وعن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله : سيدى زوجنى أمته ، ويريد أن يفرق بينى وبينها ! قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : (يا أيها الناس : ما بال أحدكم يزوج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما إنما الطلاق لمن أخذ بالساق) .

وخالف فى ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا : إن الإشهاد شرط فى صحة الطلاق ، واستدلوا بقول الله سبحانه فى سورة الطلاق : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

فذكر الطبرى : أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق وأنه مروي عن أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنه للوجوب وشرط فى صحة الطلاق^(١) .

وبعد بيان تلك المسائل المتعلقة بالطلاق ننصح لكل مسلم أن يملك نفسه عند الغضب ، فإن الله تعالى جعل لكل ضيق فرجاً ولكل شدة مخرجاً ، وقد حدث أن أحد الصالحين ابتلى بزوجة ناشز فقيل له ما ضر لو طلقها ؟ فقال : أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى ، ومعاذ الله أن أكون سبباً فى أذى عباد الله . قالوا فماذا أنت صانع ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثلما أعطى آسيا امرأة فرعون . وعلى المسلم أن يتأدب بأدب الإسلام ، إذا طلق فلا يفشى سرّاً كان بالأمس قد خفى ، ولا ينكر عيشاً قد تقدم عهده ، فإن حسن العهد من الإيمان . لما طلق « قتادة » زوجته قبل له : لم طلقها ؟ فقال : العاقل لا يذيع سر أهله .

قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ . فمن طلق مرتين فإن الإسلام يؤدب أتباعه ويصحح سلوكهم الأخلاقى . فبعد التطلق يقال للمطلق إما أن تراجعها قبل انقضاء عدتها وتمسكها بالمعروف لا ضرر ولا ضرار ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكاً ، والبر لا يبلى ، ومن زرع الخير حصده خيراً ، ولن يضيع جميل أينما زرع ، والحياة الزوجية احترام وتخلق ومودة ورحمة : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾^(٢) .

والمعروف هو ما تعارف الناس عليه من الحق والخير والجمال . فمن لم يمسك بمعروف فعليه التسريح بإحسان ، والإحسان مرحلة فوق العدل ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ والله تعالى إن يُثبنا فبمحض الفضل ، والفضل إحسان ، وإن يعاقب فبمحض العدل ، والعدل حق ، فمن لم يعاشر بالمعروف فليفارق بإحسان .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) سورة النساء آية : ١٩ .

ومعنى تسريحها بإحسان ، أى ينتظر الرجل حتى تنتهى عدة المطلقة فيعطىها حقها كاملاً غير منقوص ، قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾^(١) وليذهب كل لما يسر الله له .

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ	فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً	فصنها وقل يا عين للناس أعين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ .

أقام الإسلام الميزان بالقسط ولم يحسر الميزان ، فالعدل لحمه الإسلام ، والحق سداه ، ومن وجوه هذه العدالة أن الله تعالى نهى الأزواج عن أن يضيقوا على زوجاتهم حتى لا يضطروهن أن يفتدين أنفسهن بدفع شيء من المال للرجال ، كما نهى الزوجات أن يطلبن الطلاق لغير ما حاجة ، قال النبي ﷺ : (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)^(٢) . قال الفقهاء : الحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وحسن المعاشرة وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق ، وقد يحدث أن يكره الرجل زوجته أو تكره هى زوجها ، والإسلام فى هذه الحال يوصى بالصبر والاحتمال ، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية ، قال الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾^(٣) . وفى الحديث الصحيح : (لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضى خلقاً آخر)^(٤) .

إلا أن البغض قد يتضاعف ويشد الشقاق ويصعب العلاج وينفذ الصبر ويذهب ما أسس عليه البيت من السكن والمودة والرحمة وأداء الحقوق ، وتصبح الحياة الزوجية غير قابلة للإصلاح ، وحينئذ يرخص الإسلام بالعلاج الوحيد الذى لا بد منه .

فإن كانت الكراهية من جهة الرجل فبيده الطلاق ، وهو حق من حقوقه ، وله أن يستعمله فى حدود ما شرع الله . وإن كانت الكراهية من جهة المرأة ، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع ، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية لينهى علاقته بها ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ . وفى أخذ الزوج الفدية عدل وإنصاف ، إذ أنه هو الذى أعطاها المهر وبذل تكاليف الزواج والزفاف وأنفق ، وهى التى قابلت هذا كله بالجحود وطلبت الفراق ، فكان من الإنصاف أن ترد عليه ما أخذت .

(٣) سورة النساء آية : ١٩ .

(٤) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١) سورة النساء آية : ١٢٠ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٤٥٤ .

وإن كانت الكراهية منها معاً : فإن طلب الزوج التفريق فيبده الطلاق وعليه تبعاته ، وإن طلبت الفرقة فيبدها الخلع وعليها تبعاته كذلك .

قيل إن الخلع وقع في الجاهلية ، ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه عامر بن حارث ، فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها فقال : لا أجمع عليك فراق أهلِكَ ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

الخلع

تعريفه : والخلع الذي أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله ، لأن المرأة لباس الرجل والرجل لباس لها قال الله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ .

ويسمى الفداء ، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها ، وقد عرفه الفقهاء بأنه : « فراق الرجل زوجته ببدل يحصل عليه » . والأصل فيه ما رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس قال : « جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت : (يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فقال : رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة) (١) .

ألفاظ الخلع : والفقهاء يرون أنه لا بد في الخلع من أن يكون بلفظ الخلع أو مشتق منه أو لفظ يؤدي معناه ، مثل المبرأة والفدية ، فإذا لم يكن بلفظ الخلع ولا بلفظ فيه معناه كأن يقول لها : أنت طالق في مقابل مبلغ كذا ، وقبلت ، كان طلاقاً على مال ولم يكن خلعاً .

وناقش ابن القيم هذا الرأي فقال : « ومن نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها ، يعد فسخاً بأي لفظ كان حتى بلفظ الطلاق » .

وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونقل عن ابن عباس ، ثم قال ابن تيمية : « ومن اعتبر الألفاظ ووقف معها واعتدها في أحكام العقود ، جعله بلفظ الطلاق طلاقاً » .

ثم قال ابن القيم مرجحاً هذا الرأي : « وقواعد الفقه وأصوله تشهد أن المرعى في العقود حقائقها ومعانيها لا صورها وألفاظها » وما يدل على هذا أن النبي ﷺ ، أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع تطليقة ، ومع هذا أمرها أن تعتد بحیضة ، وهذا صريح في أنه فسخ ، ولو وقع بلفظ الطلاق ، وأيضاً فإنه - سبحانه - علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية ، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ ، ولم يعين الله - سبحانه - لها لفظاً معيناً . وطلاق الفداء طلاق مقيد ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق ، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة .

العوض في الخلع : الخلع - كما سبق - إزالة ملك النكاح في مقابل مال ، فالعوض جزء أساسي من مفهوم الخلع ، فإذا لم يتحقق العوض لا يتحقق الخلع ، فإذا قال الزوج لزوجته : خالعتك ، وسكت لم يكن ذلك خلعا ، لأنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً رجعياً ، وإن لم ينو شيئاً لم يقع به شيء لأنه من ألفاظ الكناية التي تفتقر إلى النية .

كل ما جاز أن يكون مهراً جاز أن يكون عوضاً في الخلع :

ذهب الشافعية إلى أنه لا فرق في جواز الخلع بين أن يخالع على الصداق أو على بعضه أو على مال آخر ، سواء كان أقل من الصداق أم أكثر ، ولا فرق بين العين والدين والمنفعة ، وضابطه : أن كل ما جاز أن يكون صداقاً جاز أن يكون عوضاً في الخلع لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، ولأنه عقد على بضع فأشبهه النكاح ، ويشترط في عوض الخلع أن يكون معلوماً متمولاً مع سائر شروط الأعواض ، كالقدرة على التسليم واستقرار الملك وغير ذلك ، لأن الخلع عقد معاوضة ، فأشبهه البيع والصداق ، وهذا صميم في الخلع الصحيح . أما الخلع الفاسد فلا يشترط العلم به ، فلو خالعتها على مجهول كتب غير معين أو على حمل هذه الدابة ، أو خالعتها بشرط فاسد ، كشرط ألا يتفق عليها وهي حامل ، أو لا سكنى لها ، أو خالعتها بألف إلى أجل مجهول ونحو ذلك ، بانت منه بمهر المثل .

أما حصول الفرقة ، فلأن الخلع إما فسخ أو طلاق ، فإن كان فسخاً فالنكاح لا يفسد بفساد العوض ، وكذا فسخه ، إذ الفسخ تحكي العقود ، وإن كان طلاقاً فالطلاق يحصل بلا عوض ، وما له حصول بلا عوض فيحسن مع فساد العوض ، كالنكاح ، بل أولى لقوة الطلاق وسرايته .

أما الرجوع إلى مهر المثل ، فلأن قضية فساد العوض ارتداد العوض الآخر ، والبضع لا يرتد بعد حصول الفرقة ، فوجب رد بدله ، ويقاس بما ذكرنا ما يشبهه ، لأن ما لم يكن ركناً في شيء لا يضر الجهل به كالصداق .

ومن صور ذلك ما لو خالعتها على ما في كفها - ولم يعلم - فإنها تبين منه بمهر المثل ، فإن لم يكن في كفها شيء ففي الوسيط أنه يقع طلاقاً رجعياً ، والذي نقله غيره أنه يقع بائناً بمهر المثل ، أما المالكية فقالوا : يجوز الخلع بالغرر كجنين بيطن بقرة أو غيره ، فلو تفق الحمل فلا شيء له وبانت .

وجاز بغير موصوف وبثمرة لم يبد صلاحها وبإسقاط حضانتها لولده ويتنقل الحق له . وإذا خالعتها بشيء حرام كخمر أو مسروق علم به فلا شيء له وبانت وأريق الخمر ورد المسروق لربه ، ولا يلزم الزوجة شيء بدل ذلك حيث كان الزوج عالماً بالحرمة - علمت هي أم لا - أما لو علمت هي بالحرمة دونة فلا يلزمه الخلع .

الزيادة في الخلع على ما أخذت الزوجة من الزوج :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجوز أن يأخذ الزوج من الزوجة زيادة على ما أخذت منه ، لقول الله

تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما اقتدت به ﴾ ، وهذا عام يتناول القليل والكثير . روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : « كانت أختي تحت رجل من الأنصار فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أتردين حديقته ؟ قالت : وأزيد عليها ، فردت عليه حديقته وزادته » (١) .

ويرى بعض العلماء : أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ منها أكثر مما أخذت منه . لما رواه الدارقطني بإسناد صحيح أن أبا الزبير قال : « إنه كان أصدقها حديقة ، فقال النبي ﷺ : أتردين عليه حديقته التي أعطاك ؟ قالت : نعم وزيادة ، فقال النبي ﷺ : أما الزيادة فلا ولكن حديقته . قالت : نعم » (٢) .

وأصل الخلاف في هذه المسألة خلاف في تخصيص عموم الكتاب بالأحاديث الأحادية . فمن رأى أن عموم الكتاب يخص بأحاديث الأحاد . قال : لا تجوز الزيادة ، ومن ذهب إلى أن عموم الكتاب لا يخص بأحاديث الأحاد رأى جواز الزيادة .

وفي « بداية المجتهد قال » : « فمن شبهه بسائر الأعواض في المعاملات رأى أن القدر فيه راجع إلى الرضا ، ومن أخذ بظاهر الحديث لم يجز أكثر من ذلك ، فكأنه رآه من باب أخذ المال بغير حق » .

الخلع دون مقتض :

والخلع إنما يجوز إذا كان هناك سبب يقتضيه ؛ كأن يكون الرجل معيباً في خلقه ، أو سيئاً في خلقه ، أو لا يؤدي للزوجة حقها ، وأن تخاف المرأة ألا تقيم حدود الله فيما يجب عليها من حسن الصحبة وجميل المعاشرة كما هو ظاهر الآية ، فإن لم يكن ثمة سبب (٣) يقتضيه فهو محظور : لما رواه أحمد والنسائي من حديث أبي هريرة : (المختلعات هن المنافقات) وقد رأى العلماء الكراهة .

الخلع بتراضى الزوجين :

والخلع يكون بتراضى الزوج والزوجة ، فإذا لم يتم التراضى منها فللقاضى إلزام الزوج بالخلع ، لأن ثابناً وزوجته رفعا أمرهما للنبي ﷺ ، وألزمه الرسول بأن يقبل الحديقة ويطلق كما تقدم في الحديث .

الشقاق من قبل الزوجة كاف في الخلع :

قال الشوكاني : وظاهر أحاديث الباب أن مجرد وجود الشقاق من قبل المرأة كاف في جواز الخلع ، واختار ابن المنذر أنه لا يجوز حتى يقع الشقاق منها جميعاً ، وتمسك بظاهر الآية ، وبذلك قال طائفة والشعبي وجماعة من التابعين ، وأجاب عن ذلك جماعة ، منهم الطبري ، بأن المراد أنها إذا لم تقم بحقوق الزوج كان ذلك مقتضياً لبغض الزوج لها ، فنسبت المخالفة لذلك . . ويؤيد عدم اعتبار ذلك من جهة الزوج أنه - ﷺ - لم يسأل ثابناً عن كراهته لها عند إعلانها بالكراهة له .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٦١

(١) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٢٨ .

حرمة الإساءة إلى الزوجة لتختلع :

يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتختلع نفسها ، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حكم به قضاء .

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ (١) .

ولقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ (٢) .

ويرى بعض العلماء نفاذ الخلع في هذه الحالة مع حرمة العضل ، وأما الإمام مالك فيرى أن الخلع ينفذ على أنه طلاق ويجب على الزوج أن يرد البدل الذي أخذه من زوجته .

جواز الخلع في الطهر والحيض :

يجوز الخلع في الطهر والحيض ولا يتقيد وقوعه بوقت ، لأن الله - سبحانه - أطلقه ولم يقيد بزمان دون زمن ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ ولأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أطلق الحكم في الخلع بالنسبة لامرأة ثابت بن قيس من غير بحث ولا استفصال عن حال الزوجة ، وليس الحيض بأمر نادر الوجود بالنسبة للنساء .

قال الشافعي : (ترك الاستفصال في قضايا الأحوال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم في المقال ، والنبى - ﷺ - لم يستفصل هل هي حائض أم لا ؟ ولأن المنهى عنه الطلاق في الحيض من أجل ألا تطول عليها العدة . وهي - هنا - التي طلبت الفراق واختلعت نفسها ورضيت بالتطويل) (٣) .

هل الخلع طلاق أم فسخ ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الخلع طلاق بائن لما تقدم في الحديث من قول رسول الله ﷺ : (خذ الحديقة وطلقها تطليقة) (٤) ولأن الفسوخ إنما هي التي تقتضى الفرقة الغالبة للزوج من الفراق مما ليس يرجع إلى اختياره ، وهذا راجع إلى الاختيار فليس بفسخ .

وذهب بعض أهل العلم ، منهم أحمد وداود من الفقهاء وابن عباس وعثمان وابن عمر من الصحابة ، إلى أنه فسخ ، لأن الله تعالى ذكر في كتابه الطلاق فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، ثم ذكر الافتداء ثم قال :

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج-٢ ص ٢٠٠

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج-٢ ص ٢٩٥

(١) سورة النساء آية : ١٩ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٠ .

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾^(١) ، فلو كان الافتداء طلاقاً لكان الطلاق الذي لا تحل له فيه إلا بعد زواج هو الطلاق الرابع . ويجوز هؤلاء أن الفسوخ بالتراضي قياساً على فسوخ البيع كما في الإقالة .

قال ابن القيم : والذي يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ثلاثة أحكام كلها متفية عن الخلع .

أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه .

الثاني : أنه محسوب من الثلاث ، فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .

الثالث : أن العدة فيه ثلاثة قروء .

وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع ، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طليقتين ووقوع ثالثة بعده ، وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق .

وثمره هذا الخلاف تظهر في الاعتداد بالطلاق ، فمن رأى أنه طلاق احتسبه طلاقاً بائناً ، ومن رأى أنه فسخ لم يحتسبه ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعهما ، ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك وإن لم تنكح زوجاً غيره ، لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لغو .

ومن جعل الخلع طلاقاً قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث^(٢) .

هل يلحق المختلعة طلاق ؟

المختلعة لا يلحقها طلاق ، سواء قلنا بأن الخلع طلاق أو فسخ ، وكلاهما يصير المرأة أجنبية عن زوجها ، وإذا صارت أجنبية عنه فإنه لا يلحقها الطلاق . وقال أبو حنيفة : المختلعة يلحقها الطلاق ، ولذلك لا يجوز عنده أن ينكح مع المبتوتة أختها .

عدة المختلعة : ثبت من السنة أن المختلعة تعتد بحيضة ، ففي قصة ثابت أن النبي ﷺ قال له : (خذ الذي لها عليك وخل سبيلها . قال : نعم فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها) . رواه النسائي بإسناد رجاله ثقات . وإلى هذا ذهب عثمان وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وهو مذهب إسحق بن راهويه واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء .

وقال ابن القيم : هذا مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعبد الله بن عمر والربيع بنت معوذ

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٠ .

وعمها - رضى الله عنهم - وهو من كبار الصحابة ، فهو لاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم ، كما رواه الليث بن سعد عن نافع مولى ابن عمر : أنه سمع الربيع بنت معوذ بن عفراء ، وهى تخبر عبد الله ابن عمر أنها اختلعت من زوجها على عهد عثمان بن عفان فجاء عمها إلى عثمان فقال له : إن ابنة معوذ اختلعت من زوجها اليوم أفنتقل ؟ فقال عثمان : لتنتقل ولا ميراث بينهما ولا عدة عليها ، إلا أنها لا تنكح حتى تحيض حيضة ، خشية أن يكون بها حبل . فقال عبد الله بن عمر : فعثمان خيرنا وأعلمنا .

ونقل عن أبي جعفر النحاس في كتاب « الناسخ والمنسوخ » أن هذا إجماع من الصحابة . ومذهب الجمهور من العلماء أن المختلعة عدتها ثلاث حيض إن كانت ممن يحيض أ . هـ . (١) .

وهكذا يقيم الإسلام الحلول الواقعية على أساس من الحق والعدل والخير ، فما من داء إلا وله في الإسلام دواء ، وما من مشكلة إلا ولها في ضوء الإسلام حل .

قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ ، المراد بالحدود تعاليم الإسلام من أوامر ونواه التى تشمل أحكامه ، ومعنى لا تعتدوها أى لا تتجاوزوها بالمخالفة ، فله تعالى فرائض فأدوها ، وله حدود فلا تعتدوها ، وله حرمان فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها وإنما قال هنا ﴿ فلا تعتدوها ﴾ لأن الآية فيها أمر يجب التزامه كقوله تعالى : ﴿ فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، والأمر يقتضى عدم الاعتداء ، وإنما قال فى آية الصيام : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ (٢) لأن الآية فيها نهى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ (٣) ، والنهى يقتضى عدم القرب ، وهذا كتاب الله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، (٤) أى من يتجاوز أحكام الله بالمخالفة فقد انخرط فى سلك الظالمين ، فهو ظالم لنفسه باقتراف المعصية ، ظالم لغيره بتجاوز العدل ، فلا يلومن إلا نفسه .

الطَّلَقُ الثَّالِثَةُ

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

أى إنه إذا طلق رجل امرأته طلاقاً ثالثاً بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح . فلو تزوجت ولم يدخل بها الزوج الثانى فإنها لا تحل للأول . فعن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها

(٣) سورة البقرة آية : ١٨٧

(٤) سورة هود آية : ١

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧

فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى الأول قال : (لا .. حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك)^(١).

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون رغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج .

والمراد بالعسيلة الجماع ، روى الإمام أحمد بإسناده عن أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ألا إن العسيلة الجماع)^(٢) : ومن هنا فلا يشترط إنزال المنى ، فإن كان قصد الزوج الثاني أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : (لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله)^(٣) . وروى ابن ماجه بإسناده عن عقبة بن عامر قال . قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال . « هو المحلل » لعن الله المحلل والمحلل له)^(٤) .

وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل فقال : (لا .. إلا نكاح رغبة لا نكاح دلة ولا استهزاء بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها)^(٥) .

قال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم عن عمر عن نافع عن أبيه أنه قال : (جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال : لا .. إلا نكاح رغبة ، وكنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ) . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد^(٦) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ ، أى الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أى المرأة والزوج الأول ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى يتعاشرا بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾^(٧) ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(٨) .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، المقصود بالحدود ، كما ذكرنا ، الأحكام والتعاليم والشرائع ، والله تعالى يبين لعباده كما قال جل شأنه : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٩) .

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٣ .

(٧) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٨) سورة النساء آية : ١٩ .

(٩) سورة النساء آية : ٢٦ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٧٨

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤١٠ ط الشعب .

(٣) ابن كثير ج ١ ص ٤١١ ط الشعب .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٢ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴾ ، لأن العلم أساس المعرفة ، والمعرفة الصحيحة ينبنى عليها العمل الصحيح ، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

مسألة :

اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فيما إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ؟ فإذا عادت إلى الأول تعود لمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فإنه يهدم ما دونها بطريق الأولى والأخرى .

ولسائل أن يقول : ما الحكمة في الزواج الثاني والدخول بها فيه إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً ؟ ونقول : إن فيه تأديباً للزوج الأول الذي لم يضع الأمور في نصابها ، فقد جعل الله الطلاق من حقه فطلق مرة ، ولم يصبر فطلق الثانية ، ولم يتخذ جانب الحكمة فطلق الثالثة ؛ إنه بذلك ضيع فرصة منحه الله إياها ، فإذا ما رغب فيها بعد الثالثة فإنه عندئذ لا بد أن يعرف قيمة الزوجة ، فبناء عليه يجب أن يصونها وألا يتخذ آيات الله هزواً ، فجعل الله الزواج الثاني تأديباً له وتهذيباً ، والله عزيز حكيم ، يريد لعباده الخير حتى تسير سفينة الحياة في جو معتدل .

آداب إسلامية

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٤١﴾

المفردات : يقال بلغ البلد : إذا وصل إليه ، ويقال أيضاً بلغه إذا شارفه ودنا منه ، يقول الرجل لصاحبه : إذا بلغت مكة فاغتسل بذي طوى ، يريد دنوت منها ، لأن ذى طوى قبلها . والأجل يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، فيقال لعمر الإنسان أجل وللموت الذي ينتهي به أجل ، والمراد هنا زمن العدة . والمراد بالإمساك المراجعة ، والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً وعادة ، والمراد

بالتسريح ترك المراجعة حتى تنقضى عدتها . والضرار : الضرر والاعتداء : الظلم . وآيات الله : هي آيات أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك . وهزوا : أى مهزوءاً بها بالإعراض عنها والتهاون في المحافظة عليها لقلة الاكتراث بالنساء وعدم المبالاة بهن . ونعمة الله هي الرحمة التي جعلها بين الزوجين . وما أنزل عليكم من الكتاب أى من آيات أحكام الزوجين التي تحفظ لكم الهناءة في الدنيا والسعادة في الآخرة والحكمة هي سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح .

جاء في تفسير هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك ليضارها ويعضلها ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن السدي قال : نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار ، طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة ثم راجعها ثم طلقها مضارة لها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ .

إن الاسلام بتعاليمه السمحة يطارد الظلم أيا كان موقعه ، إنه وهوبين لنا أحكام الطلاق يرشدنا أن المرأة إذا طلقت وقرب انتهاء عدتها فعلى الرجل إما الإمساك بمعروف وإما التسريح بإحسان ، وليس بعد المعروف والإحسان إلا الإضرار بها ، وذلك إذا راجعها قبل انتهاء عدتها ، يريد إطالة العدة والإضرار بها كلما قربت العدة على الانتهاء راجعها ثم طلقها . إن الله تعالى لا يحب الظلم ، ومن ثم فإنه يؤكد الأمر بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان فيقول : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ ، ويحكم على من فعل هذا بأنه قد ظلم نفسه ، والظلم عاقبته وخيمه ، وهو ظلمات يوم القيامة ، فالنساء لا يكرهن إلا كريم ، وكان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله ؛ ولا يبينهن إلا لثيم . وأنا أحب أن أكون كريماً مغلولاً من أن أكون لثيماً غالباً .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعوك عليك وعين الله لم تنم

قال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ..) (١) ، وقال ﷺ : (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ ، المراد بالآيات هنا آيات الطلاق التي بين فيها أحكامه ، يدل على ذلك سياقها ، أى لا تطلقوا ثم تراجعوا ثم تطلقوا ، وكأن الحياة الزوجية مسرح أعد للهزل ، قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ النعمة هنا لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (٣) ومن أخص هذه النعم نعمة الزوجية التي قال فيها جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم

(٣) سورة إبراهيم آية : ٣٤ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٧٧ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ١٥٤ ط دار الفكر .

مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿١﴾ وقال ﷺ : ﴿ يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ﴾ (٢) وما أراد الرسول بذلك إلا تهذيب الغرائز وتنظيم الدوافع وتصليح السلوك . وقد حذر النبي ﷺ من الانحراف حيث قال : (اتق المحارم تكن أعبد الناس) (٣) وقال : (شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم) (٤) وقد ورد أن رجلاً من الصالحين ماتت زوجته ، فلما فرغ من دفنها مرقوم كان له بهم صداقة ، فتزوج منهم ودخل في نفس الليلة ، ف قيل له في ذلك فقال : خشيت أن ألقى الله عزبا .

ألسنت معي أن الزواج نعمة عظيمة من نعم الله على عباده ؟ فاذكروا هذه النعمة بالشكر ، واذكروا ما أنزل الله عليكم من الكتاب وما فيه من إرشاد وتوجيه وتأديب وتهذيب ، وما في السنة من بيان وتفصيل وتوجيه وتشريع ، فقد اشتمل كل منها على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك وتصحيح الفكر المنحرف ما لو أخذتم به لنلتم السعادة في الدنيا والآخرة . والله تعالى يعظكم بهذه الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ . دليل قاطع وبرهان ساطع على أن أساس الحياة الزوجية هو تقوى الله ، ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ﴾ (٥) . قيل لمحمد بن كعب القرظي وكان غنياً وقد حضرته الوفاة ماذا تركت لأولادك فقال ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ (٦) إن التقوى هى السلاح الأقوى ، هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، هذا لإيقاظ الهمم ، فليعلم العبد أن الله تعالى مطلع على سره وعلايته ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فليحذر أن يراه الله على معصية ، وليجتهد أن يراه الله دائماً على طاعة .

لا تعضلوا النساء

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ كَمَآرُكُمْ وَأَطْهَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٢﴾

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٧٦ ط الشعب .

(٥) سورة التوبة آية : ١٠٩

(٦) سورة النساء آية ٩

(١) سورة الروم آية : ٢١

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٩ ط الشعب

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٢٤ ط الشعب .

المفردات : البلوغ : الانتهاء . والأجل هنا آخر المدة المضروبة لانقضاء العدة لأقربها كما في الآية التي قبلها ، لأن الإمساك بالمعروف والتسريح لا يتأتى بعد انقضاء العدة ، إذ انقضاؤها إمضاء للتسريح ، فلا غل معه للتخير ، والتخير يستمر إلى قرب الانقضاء ، والمذكور هنا النهي عن العضل وإجازة النكاح ، وهذا لا يكون إلا بعد انقضاء العدة ، ومن ثم أثر عن الشافعي أنه قال : دل السياق على افتراق البلوغية والعضل : الحبس والتضييق والعظة : النصيح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل . والزكاء : النماء والبركة .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين فتتقاضى عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعها . وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك : أنها أنزلت في ذلك وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لا بد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير .

قال ﷺ : (لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل)^(١)

وفي هذه المسألة اختلاف بين العلماء .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار الحزني وأخته ، فقال البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن معقل بن يسار قال : كانت لي أخت تخطب إلى . وقال البخاري : وعن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل ، فنزلت : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، ذلك الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ إنما يتعظ به ويتنفع ويأثر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، حيث يعلم أن في عضل النساء ومنعهن من الزواج ظلم ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر يعلمون أنهم غداً بين يدي الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾^(٢) .

قال ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)^(٣) ، وسنة رسول الله التيسير في الزواج ، حتى قال لأحد الصحابة يريد الزواج : (التمس ولو خائفاً من حديد ، قال : لا أجد ، قال : تزوجها بما تحفظ من القرآن)^(٤) وقال (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة)^(٥) ويقول : (من يمن المرأة يسر نكاحها وحسن خليقتها)^(٦) . قوله تعالى : ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي ما بينته لكم من الأحكام أعظم بركة وأطهر سلوكاً ، ثم يقول تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٦ .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٨ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

(٢) سورة الشعراء آية : ٢٣٧ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٦ ط دار الفكر .

لا تعلمون ﴿١﴾ أى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) أين الخير من الشر ، إذ هو غيب لا يعلمه إلا الله ، فنفذوا أحكامه وطبقوا شرائعه وأقيموا دولة الإسلام في بيوتكم تقم على أرضكم ، فإن الذي شرع هذه الأحكام هو الذي علم ما يكون وعلم ما كان وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

أحكام تتعلق بالرضاعة

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتََرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٣﴾

المفردات : - الحول والعام يقعان على صيفه وشتائه كاملين ، والسنة تبتدىء من أى يوم عددته من العام إلى مثله ، والمولود له : هو الوالد ، والتكليف : الإلزام ، والوسع ضد الضيق ، وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ آخر مداها ، والطاقة آخر درجات القدرة ، فليس بعدها إلا العجز التام مأخوذة من آخر طاقة ، (فتلة) من الطاقات التي يتألف منها الحبل ، والمضارة : مشاركة كل من الوالدين للآخر في الضرر ، فيفيد أن كل إضرار من أحدهما للآخر بسبب الولد إضرار بنفسه ، إذ هذا يستلزم ضرر الولد ، وكيف نحسن تربية ولد بين أبوين هم كليهما إيذاء الآخر وضرره ، والفصال : الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها منه ، فيكون مستقلاً في غذائه دونها ، والتشاور والمشاورة : استخراج الرأي من المستشارين ، ولا جناح عليهما : أى لا حرج ، واسترضعت المرأة الطفل : أى اتخذتها مرضعاً له ، ما آتيت : أى ما ضمتتم ، والتزمت بالمعروف : أى على الوجه المتعارف المستحسن شرعاً وعادة .

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية من حيض وإيلاء وعدة وطلاق وأدب وتخلق بخلق الإسلام ، بعد هذا كله ذكر سبحانه وتعالى أحكاماً هنا تتعلق تعلقاً وثيقاً بالحياة الزوجية ونظام الأسرة . ألا وهى أحكام الرضاعة : فغذاء الطفل بعد الولادة أمر من الأمور التي اهتم بها الشارع الحكيم ؛ فبعد أن كان الطفل في رحم الأم جنيناً يتغذى بغذاء الأم ويتنفس بتنفسها أصبح بعد ولادته في حاجة إلى غذاء ، فكانت الرضاعة غذاءً له وهو لا يستغنى عن الغذاء ، فأرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وهذا أمر في

صورة الخبر ، وبين سبحانه أن مدة الرضاعة حولان كاملان وذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، والأم هي أولى الناس برضاعة أولادها ، لأنها لا تغذيه لبنا فحسب إنما تغذيه عطفًا وحنانًا وقدرات عقلية وخلقية ونفسية ، فقد نرى الطفل إذا بكى وحملته غير أمه ازداد بكاءً ، فإذا ما حملته أمه استراح وكف عن البكاء ، فما الذي أعلمه أنها أمه ؟ إنه يعرفها بدقات قلبها ، لذا فإن الإسلام يحيط الأولاد بعناية فائقة ، وتزداد عنايته بهم وهم في المهد ، ذلك لأن المهد ، هو النواة الأولى التي ينمو الطفل على أساسها وقد عني الإسلام أيضًا بالجانب الصحي للطفل حيث أوصى برضاعته وجعل أولى الناس بالرضاعة الأمهات ، لأنها أعظم الناس به رحمة وأكثرهم به عناية وأحفظهم له أمانة .

وقد اشتملت آيات الكتاب العزيز على الصحة الغذائية ، ومنها آية الرضاعة ، كما اشتملت أيضًا على الصحة الوقائية ، فحرم الإسلام الميتة والدم ولحم الخنزير ، كما حرم الخمر ؛ كما اشتملت على الطب الاجتماعي ، فشرع الإسلام الزواج وجعله نعمة ينعم الله بها على عباده . قال عز من قائل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١) . لما اشتملت الآيات على الطب النفساني ، قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (٢) .

وبالإضافة إلى هذه العناية فقد بين الإسلام خطوط التربية وفق مراحل النمو ، فأمر بأن تكون التربية على الوجه التالي : جاء في الأثر : لاعبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا .

وللفقهاء أحكام تتعلق بالرضاعة لا بد من معرفتها قالوا :

قال الشيخ السيد سابق : المحرمات بسبب الرضاع : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهن : الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، وبنات الأخت . وهي التي بينها الله تعالى في قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ (٣) وعلى هذا فتتزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على الموضع ، هي وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب . فتحرم :

- ١ - المرأة المرضعة ، لأنها يارضعها تعد أما للرضيع
- ٢ - أم المرضعة لأنها جدة له .
- ٣ - أم زوج المرضعة - صاحب اللبن - لأنها جدة كذلك .
- ٤ - أخت الأم ، لأنها خالة الرضيع .
- ٥ - أخت زوجها - صاحب اللبن - لأنها عمته .
- ٦ - بنات بنيتها وبناتها ، لأنهن بنات إخوته وأخواته .
- ٧ - الأخت سواء أكانت أختًا لأب وأم ، أم أختًا لأب ، أم أختًا لأب .

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٣) سورة النساء آية : ١٢٣ .

الرضاع الذي يثبت به التحريم :

الظاهر أن الإرضاع الذي يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع ، ولا يتحقق إلا برضعة كاملة ، وهي أن يأخذ الصبي الثدي ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعا من غير عارض يعرض له . فلو مص مصة أو مصتين ، فإن ذلك لا يحرم لأنه دون الرضعة ولا يؤثر في الغذاء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : (لا تحرم المصاة ولا المصتان) ، رواه الجماعة إلا البخاري .

وللعلماء في هذه المسألة عدة آراء نجملها فيما يأتي :

١ - إن قليل الرضاع وكثيره سواء في التحريم أخذاً بإطلاق الإرضاع في الآية ، ولما رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال : (وكيف قيل ؟ دعها عنك) فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات ، وأمره بتركها دليل على أنه لا اعتبار إلا بالإرضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه . ولأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له . ولأن إنشاز العظم ، وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره وهذا مذهب « علي » وابن عباس والحسن البصري وأبي حنيفة .

٢ - إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت : « كان فيما نزل من القرآن » عشر رضعات معلومات يحرمن ؛ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ « وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود ، وإحدى الروايات عن عائشة والشافعي .

٣ - إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر ، لأن النبي ﷺ قال : (لا يحرم المصاة ولا المصتان) . وهذا صريح في نفي التحريم بما دون الثلاث فيكون التحريم منحصرًا فيما زاد عليهما . وإلى هذا ذهب أبو عبيد وأبو ثور ، وابن المنذر ورواية عن أحمد .

لبن المرضعة يحرم مطلقا :

التغذية بلبن المرضعة محرم ، سواء أكان شربا أو وجورا^(١) أو سعوطا^(٢) حيث كان يغذي الصبي ويسد جوعه ، ويبلغ قدر رضعة ، لأنه يحصل بالإرضاع من إنبات اللحم ، وإنشاز العظم ، فيساويه في التحريم .

اللبن المختلط بغيره : إذا اختلط لبن المرأة بطعام أو شراب أو دواء ، أو لبن شاة أو غيره ، وتناول الرضيع فإن كان الغالب لبن المرأة حرم وإن لم يكن غالبا فلا يثبت به التحريم . وهذا مذهب الاحناف والمزني وأبي ثور .^(٣)

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٧٤ .

(١) الوجور : أن يصب اللبن في حلق الصبي من غير ثدي .

(٢) السعوط أن يصب اللبن في أنفه .

الشهادة على الرضاع :

شهادة المرأة الواحدة مقبولة في الرضاع إذا كانت مرضية ، لما رواه عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » فلما ذكرت ذلك للنبي ﷺ قال : (وكيف وقد زعمت أنها أرضعتكما ؟ فنهاه عنها .) . احتج بهذا الحديث : طاووس . والزهرى وابن أبي ذئب والأوزاعي ورواية عن أحمد على أن شهادة المرأة الواحدة مقبولة في الرضاع . وذهب الجمهور إلى أنه لا يكفي في ذلك شهادة المرضعة لأنها شهادة على فعل نفسها . وقد أخرج أبو عبيد عن عمر ، والمغيرة بن شعبة وعلى بن أبي طالب وابن عباس أنهم امتنعوا عن التفريق بين الزوجين بذلك . ولو فتح هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين زوجين إلا فعلت . ومذهب الأحناف أن الشهادة على الرضاع لا بد فيها من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ولا يقبل فيها شهادة النساء وحدهن ، لقول الله عز وجل : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾ (١) . وروى البيهقي : أن عمر رضى الله عنه أتى بامرأة شهدت على رجل وامراته أنها أرضعتهما . فقال لا ، حتى يشهد رجلان أو رجل وامرأتان .

وعن الشافعي رضى الله عنه : أنه يثبت بهذا ، وبشهادة أربع من النساء لأن كل امرأتين كرجل ، ولأن النساء يطلعن على الرضاع غالباً كالولادة . وعند مالك : تقبل فيه شهادة امرأتين بشرط فشق قولهما بذلك قبل الشهادة .

أبوة زوج المرضع للرضيع :

إذا أرضعت امرأة رضيعاً صار زوجها أباً للرضيع وأخوه عمّاً له ، لما تقدم من حديث حذيفة ، ولحديث عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : (ائذنى لأفلح أخى أبى القعيس فإنه عمك) . وكانت امرأته أرضعت عائشة رضى الله عنها . وسئل ابن عباس عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلاماً : أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ قال : « لا » اللقاح واحد . وهذا رأى الأئمة الأربعة ، والأوزاعي والثوري . ومن قال به من الصحابة على وابن عباس رضى الله عنهما .

وما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الناس يتساهل في أمر الرضاع فيرضعون الولد من امرأة ، أو من عدة نسوة ، دون عناية بمعرفة أولاد المرضعة وأخواتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب على ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق هذه القرابة الجديدة التي جعلها الشارع كالنسب فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدري . والواجب الاحتياط في هذا الأمر حتى لا يقع الإنسان في المحذور (٢) .

حكمة التحريم بالرضاع :

وأما حكمة التحريم بالرضاعة فمن رحمته تعالى بنا ؛ أن وسع لنا دائرة القرابة بإلحاق الرضاع بها ، وأن بعض بدن الرضيع يتكون من لبن المرضع ، وأنه بذلك يرث منها صفاتها كما يرث ولدها الذي ولدته .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، المراد بالمولود له هو الأب ، وإنما عبر بهذه الصيغة ليفيد نسبة الولد إلى أبيه . والوالد عليه أن يقوم بالإنفاق من مطعم ومشرب وكسوة بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ : نهي الإسلام نهياً شديداً عن الضرر أيًا كان نوعه . فمن أصول الإسلام المقررة قوله ﷺ : (لا ضرر ولا ضرار) (٢) ، فلا يجوز أن يضر الرجل زوجته : بسبب ولدها وذلك بانتزاعه منها ، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تضر زوجها بسبب الولد بأن تطرحه عليه ، فلا ينبغي أن يكون الولد سبباً في وقوع الضرر بين الزوجين ، وذلك لأن نعمة الزوجية يجب أن تظل صافية بعيدة عن الأكدار ، كما أنه لا يجوز الضرر بسبب الولد ولو زالت الزوجية بالطلاق . وقد بلغ من حرص المسلمين على دفع الضرر أن رجلاً صالحاً تزوج بامرأة ناشز فقيل له : ما ضرلو طلقتهما ؟ فقال أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيري ، فلا يستطيع معها صبراً . فقيل له : فماذا أنت فاعل معها ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلاً أعطى أيوب على بلائه ، وأما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثلاً أعطى آسية امرأة فرعون . وسبحان الذي قال : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ المراد به التزام الأقارب بعدم الضرر وأمرهم بالإحسان والمعروف لأقاربهم ، كما تفيد أن على الوارث النفقة على الأقارب ، فكما أن له الغنم بالميراث فعليه الغرم بالنفقة ، وهذا منطلق العدالة . إذ الغنم بالغرم .

قوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصلاً عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ هذا حكم من أحكام رضاعة الطفل ، وهو يبين مدى دقة الإسلام وحساسيته وعنايته بالتربية ، حيث جعل الفصال (أى فطام الطفل) مبنيًا على التشاور والاتفاق بين الزوجين ، لا يجوز أن يستبد به أحدهما . قال تعالى : ﴿ فإن أرادا ﴾ أى الزوجين ﴿ فصلاً ﴾ أى فطاماً قبل الحولين برضاها والتشاور بينهما ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ (٤) .

فانظر إلى آثار رحمة الله بالرضيع حيث نظم له غذاءه ، وهو في عالم الأجنة ، ثم أمدّه بلبن الأم بعد الولادة ، ثم جعل فطامه مبنيًا على المشورة لا على الاستبداد خشية أن يخطيء الناس الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

فإذا كانت المشورة في فطام الرضيع قد نص عليها القرآن الكريم ، إنها بالأولى والأوجب في شئون

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .

(١) سورة الطلاق آية : ٧ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٤٦ ط دار الفكر .

الأمم والقضايا المضيرية ويرحم الله أمير المؤمنين عمر إذ يقول : « رحم الله امرأ أهدي إلى عيوي » . ويرحم الله من قال في عمر :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ . المراد بالاسترضاع طلب الرضاع . وذلك بدفع الرضيع إلى مرضعة غير أمه لسبب من الأسباب . قال تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ ^(١) . قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ ، أى أن تفعلوا هذا إذا سلمتم المرضعة ما التزمت به من الأجر بالمعروف . وقد شاعت كلمة المعروف في الحياة الزوجية وأصبحت كالزهرة الناضرة فواحة الشذى طيبة العبير ، لأن الإسلام يدعو إلى تقوية العلاقات تقوية تقوم على الألفة والمودة والمحبة والرحمة لا استبداد فيها ولا تسلط ولا إرهاب ولا تهديد . وكما شاعت كلمة المعروف في الأحكام الشرعية شاع كذلك الأمر بتقوى الله . قال تعالى في ختام هذه الآية الكريمة : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ ، أى اتقوه سبحانه فلا تخالفوا أمره ، فهو بصير بأحوالكم عليم بشئونكم ، ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ ^(٢) .

فأما أسرة قامت على المعروف والتقوى كان العز رائدها والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف . وأما أسرة ابتليت بالذنوب والانحراف كان الذل رائدها والشقاء حليفها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

عدة المتوفى عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۖ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ

(١) سورة الطلاق آية : ٦ .

(٢) سورة الحديد آية : ٤ .

حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

المفردات : ﴿ يتوفون منكم ﴾ : أى يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم ، ﴿ ويذرون ﴾ : أى يتركون الزوج يطلق على الذكر والأنثى كما قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ ، وأصله العدد المكوّن من شيئين اتحدا وصارا شيئا واحداً فى الباطن وإن كانا شيئين فى الظاهر ، وسمى به كل من الرجل والمرأة للدلالة على أن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعليها ، بتمازج النفوس ووحدة المصلحة حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر . ويتدبرصن : أى ينتظرن ، وبلغن أجلهن : أى أتممن عدتهن وانتهت مدة التربص والانتظار ، والتعريض فى الكلام أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح بدون تصريح ، والخطبة (بكسر الخاء) هى طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس ، والإكنان فى النفس هو ما يضمه مريد الزواج فى نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة . والقول المعروف : ما لا يستحى منه فى المجاهرة كذكر حسن المعاشرة وسعة الصدر للزوجات إلى نحو ذلك . وعزم الشيء وعزم عليه واعتزمه : إذ صمم على تنفيذه ، والكتاب : بمعنى المكتوب أى المفروض ، وأجله : أى نهايته .

قال الفقهاء وعلماء الحديث فى آية العدة : هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتدّن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال أقول فيها برأىي ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً . وفى لفظ ، لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً . وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (١) .

وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تدبرص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشراً للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى ، لولا ما ثبت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو

السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرا . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فافتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى^(١) . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به .

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتتمال اشتغال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً ، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم^(٢) . ولقد سئل سعيد بن المسيب : ما بال العشر ؟ قال : فيها ينفخ الروح ، وقال تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا)^(٣) وفى الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عنها أفنكحلها ؟ فقال : « لا » كل ذلك يقول لا — مرتين أو ثلاثا ثم قال : (إنما هى أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة)^(٤) .

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى ، وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً ، وذلك لفوات نعمة الزوجية ، فهو وجه من وجوه الوفاء وحسن العهد من الإيمان .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ﴾ ، المراد به الزواج بعد انقضاء العدة والخطاب فى قوله : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ لأولياء أمر المرأة ، أى إذا ما انقضت عدتها فلا إثم عليكم إذا ما تزوجت ، فذلك أمر أحله الشارع ودعا إليه ، قال تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾^(٥) ففى الزواج وقاية وعصمة وتعفف ، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى عالم بدقائق الأشياء ، لا يعلمها إلا هو ، فاحذروا عقابه وارجو ما عنده من الثواب والأجر .

وبعد الفراغ من بيان أحكام العدة والإحداد على الزوج ، شرع يبين لنا الحكم فى خطبة المتوفى عنها زوجها أثناء العدة . قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ أى لا إثم عليكم فى

(٤) المصدر السابق

(٥) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

(١) فقه السنة للشيخ . السيد سابق ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق .

التعريض بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ : التعريض أن يقول إني أريد التزويج ، وإن أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف ، وفي رواية : ووددت أن الله رزقني امرأة ، ونحو هذا ، ولا ينتصب للخطبة ، وفي رواية : إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ، ولوددت أن وجدت امرأة صالحة ، ولا ينتصب لها مادامت في عدتها ، ورواه البخاري تعليقاً فقال : وقال لي طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ ، هو أن يقول : إني أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة .

قوله تعالى : ﴿ أو أكنتم في أنفسكم ﴾ ، أى أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ (١) ولهذا قال : ﴿ علم الله أنكم ستذكروهن ﴾ أى في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرّاً ﴾ ، وهو قول الرجل للمرأة في عدتها : عاهديني ألا تتزوجي بغيري . قوله تعالى : ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ ، أى بأسلوب التعريض والتلويح لا بأسلوب العبارة والتصريح ، وكأن يقول لها : إني فيك لراغب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ ، أى لا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنتهي عدتها ، وهذا معنى بلوغ الكتاب أجله ؛ والمراد بالكتاب ما حكم الله به من العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة :

وبعد بيان هذه الأحكام المتعلقة بالمتوفى عنها زوجها من العدة والإحداد والخطبة ؛ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ أى كونوا على حذر من مخالفة الله في أمره ، فلا تضمروا في أنفسكم إلا ما هو خير ، وإياكم أن تضمروا شراً ، فإن الذي شرع الأحكام يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (٢) .

وبعد الوعيد يشرق علينا نور الوعد فيقول تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ إنه سبحانه وتعالى يعلم ضعفنا فيقول : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً (٣) ويقول جل شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾

(١) سورة الممتحنة آية : ١ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

(٣) سورة النساء الآيتان : ٢٧ : ٢٨ .

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴿١﴾ . جل جلال الله ، يغفر الذنوب ، وهو الحليم لا يعجل العقوبة ، بل يمهّل لعل العبد يرعوى ويحجل .

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الأثم

الطلاق والصدّق

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾

المفردات : الجناح هنا التبعة (المسئولية) كالإتزام بمهر وغيره ؛ والميسر : اللمس باليد من غير حائل ، ويراد به في لسان الشرع ما يراد بالمماسه والملاصه والمباشرة وهو غشيان المرأة ، والفريضة : المهر ، وفرضها : تسميتها ، والمتعة والمتاع : ما ينتفع به مع سرعة انقضائه ، ومن ثم يسمى التلذذ بالشئ تمتعاً لسرعة انقطاعه ، وأوسع الرجل : إذا صار إذا سعة في المال وبسطة وغنى ، وأقتر : إذا قل ماله وافتقر وأقتر على عياله ، وقتر : إذا ضيق عليهم في النفقة ، وإلقدر : (بفتح الدال وسكونها) قدر الإمكان والطاقة ، ومتاعاً : أى حقاً ثابتاً واجباً ، والمعروف : ما يتعارفه الناس بينهم ويليق بهم بحسب اختلاف أصنافهم ومعايشهم وبيئاتهم ، والمحسنون : هم الذين يحسنون في معاملة المطلقات ، والذي بيده عقدة النكاح هو الزوج المالك لعقد النكاح وحله ، وعفوه : تركه ما يعود إليه من نصف المهر الذي ساقه إليها كاملاً تكريماً منه ، والفضل : المودة والصلة .

نحن قد علمنا ان أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق ، وقد شرعه الله سبحانه ليكون دواء لداء استعصى علاجه بعد اتخاذ خطوات عديدة ومتنوعة في العلاج : فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، ﴿٢﴾ فابعدوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً ﴿٣﴾ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح

خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً^(١) إلا أن النفوس قد تكون غير قابلة . لأى حل ، ذلك لأن الشيطان قد يستبد بالنفس فيجعل صاحبها لا يعى ولا يسمع ، وكأن الدنيا قد سدت عليه المنافذ ، عندئذ يكون آخر العلاج الكى ، قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً^(٢) . . والآية التى بين أيدينا قد اشتملت على أحكام فصلها فقهاء المسلمين تفصيلاً لا يذر ولا يدع حكماً إلا جاء على الوجه الصحيح ؛ قال الفقهاء : أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها ، قال ابن عباس والحسن البصرى : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان فى هذا إنكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها ، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسراً بثلاثة أثواب . وقال الشعبي : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب . قال : وكان شريح يتمتع بخمسمائة . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال : كان يتمتع بالخادم أو بالثففة أو بالكسوة : قال : ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف . ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعى فى المذهب الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة . وقال فى المذهب القديم : لا أعرف فى المتعة قدراً ، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً : هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾^(٣) ، ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ﴾^(٤) ، وقد كان مفروضاً لهن ومدخولاً بهن ، وهذا قول سعيد بن جبيرة وأبى العالية والحسن البصرى . والقول الثانى : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكن عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾^(٥) . القول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ، وهذا قول ابن عمر ومجاهد ، ومن العلماء من استحباها لكل

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٨ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٩ .

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٤١ .

مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ ، وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴿^(١)﴾ ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقاً .

قال تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ . هذه الآية الكريمة اشتملت على حكم المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها وقد سمي لها الزوج مهراً محدداً ، فالحكم أن لها نصف المهر المسمى إلا أن يكون هناك عفو من جهة النساء فيتنازلن عن حقهن في النصف ، أو أن يكون هناك عفو من جهة الرجال فيتنازلوا عن المهر كله ، والله تعالى يذكر الناس بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ . قال الشيخ المراغي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : إن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمي لهن مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع إلى الزوج النصف الثاني ، وهذا جار على ما كان يعمل الناس من سوق المهر كله للمرأة حين العقد لاعلى ما استحدثوه من تأخير ثلث المهر أو أقل لرغبتهم في حب الظهور والتفاخر بكثرة المهر ، مع اجتناب إرهاق الزوج بدفعه كله .

وإن مات أحد الزوجين قبل الدخول وجب المهر كله للزوجة إذا مات الزوج ، أو لوأرثها إذا ماتت هي ، لأن الموت كالدخول بها يوجب المهر كله إن كان هناك مهر مسمى أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهر :

﴿ إلا أن يعفون ﴾ ، أى إلا أن يعفو المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه ، فتقول المرأة : ما رأتى ولا خدمته ولا استمتع بي ، فكيف آخذ منه شيئاً ؟ فيسقط حينئذ ما وجب عليه ، وحق الإسقاط إنما يكون للمرأة البالغة الرشيدة .

﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ ، أى أو يعفو الزوج ويترك ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها تكملاً منه ، وحينئذ تأخذ الصداق كاملاً ، النصف الواجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتخصيف وعبر بقوله : ﴿ بيده عقدة النكاح ﴾ ، للتنبيه إلى أن الذى ربط المرأة وأمسك العقدة بيده لا يليق به أن يحلها ويدعها بدون شيء ، بل يستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى ، وإن كان الواجب المحتم نصفه ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، أى إن من عفا من الرجال والنساء فهو المتقى ، فأحياناً تكون المصلحة في عفو الرجل عن النصف الآخر ، وأحياناً في عفو المرأة عن النصف الواجب لها ، لأن الطلاق قد يكون من قبله بلا سبب داعٍ منها ، وقد يكون بالعكس . والمراد بالتقوى هنا ؛ تقوى الله المطلوبة في كل أمر ، إذ العفو أكثر ثواباً وأجراً . أو المراد تقوى الدين بما يترتب على الطلاق من التباعد ، إذ السماح بالمال يذهب هذا الأثر ويعيد الصفاء إلى القلوب ، وهذا ما بينه سبحانه بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ ، أى ينبغي لمن تزوج من أسرة ثم طلق ألا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم ، ولكن المسلمين نسوا دينهم أو تناسوا وجروا على عكس هذا فصارت روابط الصهر وسائر أنواع القرابة واهنة ضعيفة ، وإنك لورأيت ما يجري بين الأزواج من المخاصمات والمنازعات وما يكيد به بعضهم

(١) سورة البقرة آية : ٢٤١ .

لبعض ، لوجدت أنهم تجافوا وأمر شريعتهم ، وجعلوا إلههم هواهم ؛ فالرجال يتركون نساءهم بلا نفقة حتى يضطرون أحياناً إلى بيع أعراضهن ، أو يذروهن كالمعلقات ، فلاهم يمسن بمعروف ولا هم يسرحونهم بإحسان حتى يفتردين منهم بالمال .

والمطلقات المعتدات بالإقراء يزعمن أن الحيض قد حُبس عنهن فتمضى السنة أو أكثر منها ولا تنقضى عدتهن بزعمهن ، وما الغرض من هذا إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة انتقاماً منه ، ولكن العمل الآن في المحاكم المصرية على أن نفقة العدة لا تزيد على سنة قمرية (٣٥٤ يوماً) .

وإذا حدث طلاق ، كان بين أسرق الزوجين حرب عوان ، ونصبت كل منهما للآخرى الجبائل والأشراك لتوقعها في مهاوى الهلاك . فأين هؤلاء من كتاب الله وشرعه ؟ إنهم ليسوا منه في شيء ، فقد عميت أبصارهم واران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ ، ختم سبحانه الآية بالتذكير باطلاعه تعالى وإحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضاً ترغيباً في المحاسبة والفضل ، وترهيباً لأهل المخاشنة والجهل لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذى الإيمان وتبعث على الامثال .

الأمر بالمحافظة على الصلاة

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

المفردات : حافظ على الشيء وداوم عليه وواظب عليه : فعله المرة بعد المرة ، وحفظ الصلاة المرة بعد الأخرى : الإتيان بها كاملة الشرائط والأركان بالخشوع والخضوع القلبي ، والصلوات : هي الخمس المعروفة بالبيان العملي من النبي ﷺ والتي أجمع عليها المسلمون من جميع الفرق ، حتى أن من جحدتها أو شيئاً منها لا يعد مسلماً ، وقد استنبطوا عددها من آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴿١﴾ ، والصلاة الوسطى : هي إحدى هذه الخمس ، والوسطى إما بمعنى المتوسطة بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وإما بمعنى الفضلى ، ويكل من المعنيين قال جماعة من العلماء ومن ثم اختلفوا : أي الصلوات أفضل ؟ وأيتها المتوسطة ؟ وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر لما رواه الإمام أحمد عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب (شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا) ثم صلاها بين العشاءين . المغرب

(١) سورة الروم الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

والعشاء^(١) وعن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ﴾ وسماها لنا إنها هي صلاة العصر)^(٢) .

والقنوت : الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله والتوجه إليه لذكره ودعائه ، والرجال : واحد منهم راجل ، وهو الماشى ، والركبان : واحد منهم راكب .

روى أحمد والشيخان من حديث زيد بن أرقم قال : كنا نتكلم في الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام^(٣) . وقد جاءت آية المحافظة على الصلاة كواسطة العقد من آيات تتعلق بنظام الأسرة لتفيد آية الصلاة أنها (أى الصلاة) صمام الأمن في سعادة الأسرة ، فما من بيت يحافظ على الصلاة إلا اتسع لأهله وسكنته الملائكة وطردت منه الشياطين ، لذا فقد أمر رسول الله ﷺ أن يجعل الرجل من صلاته في بيته ، أى يصلى النوافل في البيت . قال الصادق المعصوم : (صلاة الرجل في بيته تطوعاً نور فمن شاء نور بيته) . وقال : (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)^(٤) فالبيت الذى يذكر فيه الله وتقام فيه الصلوات وتقرأ فيه الآيات تنزل عليه البركات وتحفه الملائكة وتهبط عليه السكينة وتغشاه الرحمة ويذكر الله أهله فيمن عنده ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، ومن سره أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن سره أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . والصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحه العادات : رياضة أبدان ، وطهارة أدران ، وتهذيب وجدان ، وشقى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازيق ، وأفضل ما يردده المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر خلال الجمع وتأمل أثرها في المجتمع وكيف سارت العلية بالرفع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء في عتبة الله ، وإذا كان الله تعالى قد أمر بالمحافظة عليها كلها ، فالمقصود بالمحافظة أداؤها بأركانها وشروطها في وقتها مع حضور القلب وخشوع الجوارح . وقد خص الصلاة الوسطى ، وهى صلاة العصر ، بمزيد من المحافظة ذلك لأن الناس يكونون قد فرغوا من أداء أعمالهم فيميلون إلى الكسل ويخلدون إلى الراحة ، فذكرهم سبحانه بصلاة العصر ، فإن من تركها فقد حبط عمله ، ومن فاتته فكأنما وتر أهله وماله . وقد أمر تعالى بالقنوت فيها ، وهو تفرغ القلب لله بعيداً عن لهُو الدنيا وفى صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاوية بن الحكم حين تكلم في الصلاة « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح وذكر الله »^(٥) . وقد حذر الإسلام من ترك الصلاة وضياح وقتها .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٩ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٠ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٤ ط دار الفكر .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

وروى أحمد وأصحاب السنن من حديث بريدة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر)^(١) .

وروى أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ؛ ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف)^(٢) .

وروى الترمذي قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

ولما كانت الصلاة عماد الدين فإنه لا عذر لأحد في تركها ، فالمرضى يصلي كما يصلي الصحيح ، فهي فرض في حقه ، ولكن للمريض صلاة بالكيفية التي لا تشق عليه قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ، كما أن الخائف والأمن ، كما أن السليم وصاحب الأعذار ، كل هؤلاء لا تسقط عنهم الصلاة ، والخائف من العدو أو من وحش يصلي راكباً أو راجلاً ، ويسقط عنه استقبال القبلة ، ولصلاة الخوف أحكام سوف نعرض لها في موطنها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، فإذا ما كان الإنسان في حالة أمن من العدو والوحش فعليه أن يذكر الله ويشكره بما علمه من الأحكام ما فيه سعادة دنياه وآخره .

أحكام تتعلق بالطلاق وغيره

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾

المفردات : يذرون : أى يتركون زوجات بعد وفاتهم . وصية لأزواجهم : أى وصية من الله لأزواجهم . متاعاً إلى الحول : أى جعل الله لهم ذلك متاعاً مدة الحول . غير إخراج : أى لهن ذلك المتاع وهن مقيمات في البيت غير مخرجات منه ولا ممنوعات من السكنى فيه .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على أحكام شرعية تتعلق بالزوجات اللاتي توفى أزواجهن ، كذلك تتعلق بأحكام المتعة للمطلقات ، وقد لخص الفقهاء هذه الأحكام فيما يلي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾ ، أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن بوصية وليمتعهن متاعاً إلى آخر

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٩٦ ط دار الفكر .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ط دار الكتاب العربي .

الحول غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنعنهن السكنى فيها . . والخلاصة : أن على الأزواج أن يوصوا لمن بشيء من المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت مدة سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التي يتذكرون أزواجهن فيها . وهذا الأمر أمر نذب واستحسان لا أمر وجوب وإلزام ، وقد تهاون فيها الناس كما تهاونوا في كثير من المندوبات .

﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف ﴾ ، أى فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيما فعلن في أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة كالتعرض للخطاب بعد العدة والتزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه كل مكلف .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ، أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ، حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده .

ومن عزته وقدرته أن يحول الأمم من عادات ضارة إلى عادات نافعة ؛ تقتضيها المصلحة كتحويل العرب من عاداتهم فى العدة والحداد ، إذ كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة فى عقر دارها سنة كاملة ، إلى ما هو خير من ذلك ، وهو إكرامها فى بيت زوجها بين أهله وعدم الحجر على حريتها ؛ إذا أرادت الخروج منه مادامت فى حظيرة الشرع وآدابه .

﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب إذا كانت غير مدخول بها وعلى سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف من عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطيباً للقلوب وإزالة للضغن .

والخلاصة : أن المطلقات أصناف أربعة :

- ١ - مطلقة مدخول بها وقد فرض لها مهر ، وهذه لها كل الفروض وهى التى عنها الله سبحانه بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ (١)
- ٢ - مطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها ، وهذه يجب لها المتعة بحسب يسار الزوج ولا مهر لها ، وهى التى عنها الله بقوله : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، ولا عدة لها .
- ٣ - مطلقة مفروض لها وغير مدخول بها ولها نصف المهر المفروض ولا عدة لها ، وفيها نزل قوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . ﴾ (٣)
- ٤ - مطلقة مدخول بها غير مفروض لها ولها مهر مثلها من قريباتها وأسررتها .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ المراد من البيان ذكر الحكم وفائدته ثم قرنه بالموعظة

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

وقوله : ﴿ تعقلون ﴾ : أى تدبرون الأشياء وتدعون لما أودع فيها من الحكم والمصالح إذعانا يكون له الأثر في الأعمال :

والمعنى : إن الله جلت قدرته بين لعباده أحكام دينهم على هذا النحو من البيان الذى تقرن فيه الأحكام بعلمها وأسبابها وبيان فوائدها ليعدهم بذلك لكمال العقل ؛ حتى يتحرروا الاستفادة من كل عمل وليكونوا على بصيرة من دينهم عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم ، فدينهم هو دين العقل ، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر في كل زمان ومكان .

إحياء الموتى والقتال في سبيل الله

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

روى ابن عباس أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل استنفر عسكره للقتال ، فقالوا إن الأرض التى سنذهب إليها موبوءة ؛ فدعنا حتى يزول الوباء ، فأماهم الله ثمانية أيام حتى عجز بنو إسرائيل عن دفنهم لكثرتهم فأحياهم الله .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد بيان الأحكام التى تتعلق بالأسرة ونظامها وحياتها ، وهذه الآية تتعلق بأحكام الأمم ونظمها وأحكامها ، ولكى تعيش الأمة فى عزة وكرامة لا بد لها من الجهاد ، قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ؛ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (١) .

قال على رضى الله عنه : بقية السيف هى الباقية : أى هى التى يحيا بها أولئك المجاهدون .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كُتِمَ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ (٢) ويرحم الله سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى قال وهو على فراش الموت : وها أنذا أموت على فراشى وقد خضت مائة معركة فى سبيل الله وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو

رمية بسهم ، أموت على فراشى كالبعير ، وقد كنت أود أن أموت شهيداً في سبيل الله ، فلانامت أعين الجبناء ، يرحمك الله ياسيف الله يا من قال فيك أبو بكر رضى الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد ، إن خالداً سيف سله الله على أعدائه ، ويرحم الله من قال فيك :

غزا فأبلى وخيل الله قد عقدت	ياليمين والنصر والبشرى نواحيها
ولم يجز بلدة إلا سمعت بها	الله أكبر تدوى في نواحيها
أتاه أمر أبى حفص فقبله	كما يقبل أى الله تاليها
وما اعترته شكوك في خليفته	ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها
لذلك أوصى بأولاد له عمراً	لمادعاه إلى الفردوس داعيها
وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا	فيها وقد كان أعطى القوس باريها
فقال خفت افتتان المسلمين به	وفتنة النفس أعتت من يداويها

ويرحم الله الصديق العظيم إذ يقول : احرص على الموت توهب لك الحياة . إن الإسلام لا يرضى بالذل ولا يقبل الضيم ، وإن الله تعالى قد ساق هذه القصة بأسلوب التعجب ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تعلم ، ثم ألم ينته إلى علمك أمر هذه الجماعة الذين بلغ عددهم الألوف خرجوا من ديارهم يخافون الموت ويرفضون القتال فأماهم الله ليعلم الناس أن الآجال بيد الله ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد . قال جل جلاله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ (٢) لقد أمات الله هؤلاء الخائفين من الموت ثم أحياهم بعد موتهم وقد ماتت مع موتهم غرائز الخوف والجبن والحرص على الحياة وهذا فضل من الله على عباده ، يدعوهم لما يحييهم ويحیی فيهم عزة الإيمان ونظافة الإسلام وطهارة الوجدان وإعزاز الجنان .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فيا أمة الإسلام قاتلوا في سبيل الله لا لمغنم أو مكانة أو لإظهار الحماسة والشجاعة ، إنما من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وما غزى قوم في عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة . واعلموا أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم ، فاصدقوا الله في الجهاد ؛ يصدقكم في النصر .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

القرض الحسن

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٩﴾

يقول الإمام ابن كثير : بحث تعالى عباده على الاتفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع . وفي حديث النزول أنه يقول تعالى : (من يقرض غير عديم ولا ظلوم) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود قال : لما نزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله : وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال أرني يدك يا رسول الله . قال فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربّي عز وجل حائطي قال : وكان حائطه به ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ؟ قالت : لبيك . قال : اخرجي فقد أقرضته ربّي عز وجل وقد روى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه . وقوله : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة في سبيل الله ، وقيل هو النفقة على العيال ، وقيل هو التسييح والتقديس . وقوله : ﴿ فيضاعفه له أضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ (١) الآية ، وسيأتى الكلام عليها . وقال الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي قال : أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له : إنه بلغني أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة . قال : وما أعجبك من ذلك قد سمعته من النبي ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) . وعن زياد الحصاص عن أبي عثمان النهدي قال : لم يكن أحد أكثر منى مجالسة لأبي هريرة ، فقدم قبلى حاجاً ، قال : وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة منى فما سمعت هذا الحديث . قال : فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج لأجل أن ألقاه في هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت : يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأترونه عنك قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة . قال : يا أبا عثمان وما العجب من ذلك والله يقول : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ويقول : ﴿ وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ ، والذي نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) . وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : (من دخل سوقاً من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحاه عنه ألف ألف سيئة) . الحديث .

وعن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ إلى آخرها ، قال رسول الله ﷺ : (رب زد أمتي) ، فنزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، قال : (رب زد أمتي) ، فنزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وعن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال : إنني سمعت رجلاً يقول : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف غرفة من در ؛ وياقوت في الجنة أفأصدق بذلك ، قال : نعم أو عجبت من ذلك ؟ قال : نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ فكثير من الله لا يحصى ^(١) . وقوله : ﴿ والله يقبض ويسط ﴾ ، أى أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويوسع على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة .

بنو إسرائيل مع نبي لهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفِتْنَاءُ أَنْ تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا إِنَّ يَكُونُ لَهُ أَلْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

المفردات: الملأ : القوم يجتمعون للتشاور ، ولا واحد له ، سموا بذلك لأنهم يملأون العيون رواء والقلوب هية ، والنبي هو شمويل معرب صمويل أو صموئيل ، عسى : كلمة تفيد توقع الحصول وقرب تحققه .
كتب : أى فرض . وطالوت : معرب شاول لقب لطوله ، فقد جاء في سفر صموئيل الأول من العهد

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ط الشعب .

العتيق (فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق) . اصطفاه : أى بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك . وبسطة الجسم عظمته .

هذه قصة من قصص القرآن العظيم . وقصص القرآن عبرة وعظة ومدرسة ، حفلت مناهجها بالدروس النافعة ، فبعدما بين الله تعالى حال الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وأمر بالقتال في سبيل الله ، كما حث على النفقة إذ بالجهاد والنفقة تنهض الأمة وترتفع كلمتها ولا يستطيع العدو أن يقتحم عليها أسوار عزتها المنيرة . بعد ذلك ساق القرآن هذه القصة والعبرة التى يجب على كل عاقل أن يعرفها ، وألا يغتر بالكثرة من الناس ، فقد تختفى وراء عواطف الناس الحقائق المرة ، وأعظم الرجال في تربية الناس هو سيدنا محمد ﷺ الذى وصف أصحابه ذات يوم في كلمتين اثنتين فقال : إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ، ذلك لأن الرجال يعرفون بالمواقف ، كما يعرفون بالحق ، لكن المواقف والحق لا تعرف بالرجال ، كما أن القلة إذا كانت صادقة فسوف تكون إيجابية .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾^(١) ولا بد من اختيار النفوس حتى لا يقع القائد في شباك اللؤم والخداع ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾^(٢) وهكذا صفت القلة على قلة ، ولكنهم كانوا صامدين ثابتين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ قال أحد الشعراء :

تغيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وديننا صحيح ودين الآخرين عليل

كما أن هذه القصة صححت مفهوماً خطيراً وهو أن الرجال لا يوزنون بالمال ، إنما يوزنون بالقيم والعلم ، فإذا كان قائداً للجيش يكفى أن يكون قد أوتي بسطة في العلم والجسم ، والمال ليس عاملاً مؤثراً ، إذ القيادة السليمة تحتاج إلى تخطيط علمي وقوة في الجسم ، فالمعارك قبل أن تدور في حومة الوغى دارت على مكاتب القادة تفكيراً وتوجيهاً .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم ينته إلى علمك قصة الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى وفي عصر داود لقد قالوا لنبيهم صموئيل ابعث لنا ملكاً ليقودنا للقتال في سبيل الله ، فقال لهم نبيهم وكأنه يستشف الحجب وينظر بنور الله : هل أتوقع منكم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ وهل سيحدث منكم النكوص والعصيان ؟ فقالوا له متعجبين ﴿ ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وآبنائنا ﴾ ومع ذلك ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالفرار والتولى ، وظلموا أمهم بضرب الذلة عليهم والهوان ، فقد قاتلهم أهل فلسطين وقتلوا منهم عدداً كثيراً ولما استجاب

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

لهم نبيهم قال لهم : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وطالوت هذا من عظماء القوم علماً وجسماً ، ولما كان القوم قد أشربت قلوبهم حب الذهب وعبادة المال ، عجبوا وقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ﴾ ، ولماذا الأحقية ؟ لأنه ﴿ لم يؤت سعة من المال ﴾ عجيب أمر هؤلاء القوم إنهم كما قال القائل :

رأيت الناس قد مالوا	إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال	فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا	إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب	فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضه	إلى من عنده فضه
ومن لا عنده فضه	فعنه الناس منفضه

وجاء الرد حكيماً على لسان نبيهم : ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ فما أجمل هذا التعبير الرائع : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ هل بعد اصطفاء الله العليم بكوامن النفوس ، الخير بحقائقها ودقائقها يقول قائل : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ وهذا هو الأصل في أحقيته بالقيادة ، فالذى اختاره هو علام الغيوب ، ثم إنه قد جمع أصول القيادة من عظمة العلم والجسم ، فهو واسع العلم صحيح الجسم .

﴿ والله يؤت ملكه من يشاء ﴾ فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى ، فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوعاً وإرادته . فهو الواسع العليم ، الواسع الرحمة ، المحيط بعلمه كل شيء . (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) (١) .

أحداث القصة

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ۖ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ۖ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ۖ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ

أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المفردات الآية : العلامة . والتابوت : صندوق وضعت فيه التوراة أخذه العمالقة ثم رد إلى بني إسرائيل . وفي سفر تثنية الاشتراع : أن موسى لما أكمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملِي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل على عهد عالي الكاهن انتصر فيها الفلسطينيون وأخذوا التابوت من بني إسرائيل ونكلوا بهم تنكيلاً فمات عالي كمداً وكان صموئيل أو شمويل قاضياً لبني إسرائيل من بعده وهو نبيهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل وجعل رجوع التابوت إليهم آية للملك طالوت الذي أقامه لهم . والسكينة : ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب . وتحمله : أى تحرسه ، وقد جرت عاداتهم بأن من يحفظ شيئاً في الطريق ويحرسه يقال إنه حمله وإن كان الحامل غيره . وفصل بالجنود : أى فصل عن بلده مصاحباً لهم لقتال العمالقة . والجنود : واحد هم جندي ، وهم العسكر ، وكل صنف من الخلق ، كما جاء في الحديث « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . والابتلاء : الاختبار والامتحان . والنهر : (بسكون الهاء وفتحها) مكان بين فلسطين والأردن . والشرب : تناول الماء بالضم من موضعه وابتلاعه دون أن يشرب بكفين ولا إناء .

وطعم الشيء : أى ذاقه مأكولاً كان أو مشروباً . والغرفة (بالضم) المقدار الذى يحصل فى الكف بالاغتراف . والغرف : أخذ الماء بالكف ونحوه . والطاقة : أدنى درجات القوة . وجالوت : أشهر أبطال الفلسطينيين أعدائهم . والفئة : الجماعة من الناس قليلاً كان عددهم أو كثيراً . والبراز (بالفتح) الأرض المستوية الفضاء . والإفراغ : إخلاء الإناء مما فيه بصبه .

وثبات القدم : كمال القوة وعدم التزلزل عند المقاومة . وداود : هو داود بن ييسى ، وكان راعى غنم وله سبعة إخوة هو أصغرهم .

والحكمة : النبوة ، وعليه نزل الزبور كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وتعليمه مما يشاء : هو صيغة الدروع ، كما قال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لِبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ . ومعرفة منطق الطير كما

قال : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ ^(١) وفصل الخصومات لقوله : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ^(٢) .

سارت أحداث هذه القصة سيراً رتيباً منسقاً ، وكل حدث أسلم إلى ما بعده ، فأخذت الأحداث يعانق بعضها بعضاً في ترتيب بديع ونسق رتيب ، وكأن القوم لم يقتنعوا بقول نبيهم : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤث ملكه من يشاء ﴾ ، فأراد أن يقيم لهم آية أخرى تدل على صدق ملكه ، وأن الله تعالى هو الذي اصطفاه ، قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت فيه سَكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أى وقال لهم نبيهم « إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن ديني خاص) وفيه بقية من رضاضة الألواح (فئاتها) ، وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون . وقد أضيف إلى آل موسى وآل هارون لأنه قد تناولته القرون بعدهما إلى وقت طالوت .

وفي صدور هذا القول من النبي دليل على أن بني إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم من استحقاق طالوت للملك للأسباب المتقدمة ، ومن ثم جعل لهم علامة أخرى تدل على عناية ربه به ، وقد وصف التابوت في كتب بني إسرائيل بأوصاف هي غاية في الغرابة في كيفية صنعه وجمال منظره وما تحلى به من الذهب ودخل في تركيبه من الخشب الثمينة .

والسبب في صنعه أن المصريين الوثنيين حينذاك استعبدوا الإسرائيليين طويلاً ، فملك قلوب بني إسرائيل عظمة الهياكل الوثنية وما فيها من الزينة وجمال الصنعة ، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه وتذكر به . وقد سمي التابوت أولاً تابوت الشهادة : أى شهادة الله سبحانه ، ثم تابوت الرب ، وتابوت الله ، وقد جاء الإسلام ومنع الزخارف والزينة في المساجد وبيوت العبادة حتى لا يشغل المصل شىء منها عن مناجاة ربه . ولكن وأسفاه ، قلد المسلمون أرباب الملل الأخرى في الزخرف والنقش في المساجد والمنابر وأقيمت الأضرحة ، ولبس رجال الدين مثل لباسهم ، بل سبقوهم في كثير من ذلك ، فأصبحت المساجد كأنها هياكل ومعابد للوثنيين ، ونسوا أو تناسوا الحكمة التي من أجلها امتنع المسلمون في الصدر الأول عن تجميلها وفرشها بالطنافس وعمل الحلى فيها ، وصدق فيهم ما جاء في الأثر : « لتبتعن سنن من قبلكم باعاً فباعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

﴿ تحمله الملائكة ﴾ . قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربية) من بعض بلاد فلسطين إلى بني إسرائيل كانتا تسيران مسحرتين بإلهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق . وقد جرت العادة بأن ما يحدث بإلهام ولا كسب فيه للبشر ، وهو من الخير ، يسند إلى إلهام الملائكة .

وقالوا في سبب إتيان التابوت : إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران في زرعهم والبواسير في أنفسهم فتشاءموا منه وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم ، فأعادوه على عجلة تجرها بقرتان ، ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب ، وجعلوا ذلك كفارة لذنبهم .

﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن في مجيء التابوت علامة على عناية الله بكم ، واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرقوا عنه ، بل عاونوه ، يرق بكم إلى مراقي السعادة والفلاح . ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ، أى فلما خرج طالوت من البلد يصحبه هؤلاء الجنود قال لهم هذه المقالة .

وقد روى أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال لهم طالوت : لا يخرج معي شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء ولم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبين بها ، ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارع ، فاجتمع إليه من اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً (شديد الحر) ، وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء وسألوا الله أن يجرى لهم نهراً ، فقال لهم : إن الله سيختبر حالكم ويعلم المطيع منكم من العاصي والراضي من الساخط ، وستقابلون نهراً ، فمن شرب منه فليس من أشياعى المؤمنين إلا أن يكون ما يتناوله قليلاً ، وهو غرفة تؤخذ باليد ، ومن لم يذقه فهو الذى يوثق به ويركن إليه عند الشدائد . وحكمة هذا الابتلاء أن يختار المطيع الذى يرجى بلاؤه في القتال وثباته حين النزال ويبعد من يظهر عصيانه ويخشى في الوغى خذلانه ، فطاعة الجيش لقائده من أهم أسباب الظفر ، وأحوج القواد إلى ذلك من ولى على قوم وهم له كارهون .

والخلاصة أن مراتب الاختبار ثلاث :

- ١ - من يشرب فيروى ولا يبالي بمخالفة الأمر وهذا يتبرأ منه .
- ٢ - من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول على ما به من نقص في الجملة .
- ٣ - من لا يذوق الماء أبداً ، وهذا هو المولى والنصير الذى يوثق به ويعول على جهاده .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ لأنهم كانوا قد اعتادوا العصيان وفسد بأسهم وتزلزل إيمانهم ولم يبق منهم من أهل الإيمان والغيرة على الدين إلا النفر القليل . والقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التى أشربت حب الإيمان وامتلاّت غيرة عليه بفعل مالا يفعله كثير من ذوى الأهواء المختلفة والنزعات المتقاربة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾^(١) .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى فلما تخطى طالوت النهر هو ومن آمن معه ، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما نذبهم إليه ، قال بعض من آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، وهم الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده ؛ فضلاً عن أن يكون لنا الغلب عليهم لما شاهدوا من كثرتهم وقوتهم ، فرد عليهم الفريق الثانى لوثوقه بنصر الله وقوة أهل الحق على قلتهم وخذلان أهل الباطل على كثرتهم كما حكى الله عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم

ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿١﴾ ، أى قال الذين يستيقنون بقاء ربهم بالبعث ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيراً ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، وهذا دليل منهم على ثقتهم بنصر الله وتوفيقه : ﴿٢﴾ والله مع الصابرين ﴿٣﴾ فهو ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه . وفى هذا حض على الصبر المؤدى الى الغلبة والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له من عباده . ﴿٤﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿٥﴾ ، أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والفقد لجأوا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم بالصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملا نفوسهم ثقة واطمئناناً وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين أشربوا حب الدنيا ، وامتلاّت قلوبهم بالترهات والأباطيل . ولقد راعوا الترتيب الطبيعى فى الدعاء بحسب الأسباب الغالبة ، إذ الصبر سبب الثبات ، والثبات سبب النصر ، وأولى الناس بنصر الله المؤمنون ، ﴿٦﴾ فهزمهم بإذن الله ﴿٧﴾ ، أى فاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزمهم وانتهى أمرهم بالهرب فى المعركة وفقاً لسنته تعالى فى نصر أهل الحق المؤمنين الصابرين على أهل الباطل الضالين ، ﴿٨﴾ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ﴿٩﴾ . كان جالوت جبار الفلسطيني طلب المبارزة ، فلم يمرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته حتى جعل طالوت مكافأة لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، فبرز له داود ، وكان صغير السن ولم يلبس درعاً ولم يحمل سلاحاً ، بل حمل حجارتة ومقلعه الذى كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد ، فسخر منه جالوت وقال ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة لأبدن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع ، فرماه داود بمقلعه فأصاب الحجر رأسه وجاء به فألقاه بين يدي طالوت وانهمز من كان معه ، واشتهر داود بين الناس ، وكان له من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع ومعرفة منطق الطير وعلوم الدين وفصل الخصومات كما قال تعالى : ﴿١٠﴾ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴿١١﴾

﴿١٢﴾ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ﴿١٣﴾ . ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله ، إذ كان من أحوالهم أن يبعث الله إليهم نبياً ، ويملك عليهم ملكاً يأتمر بأمر ذلك النبى ، وكان نبى هذا العصر شمويل والملك طالوت ؛ فلما توفيا صار له الملك والنبوة .

ثم بين سبحانه الحكمة فى الأمر بالقتال الذى استفيد من الآيات السالفة فقال : ﴿١٤﴾ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿١٥﴾ ، أى ولولا دفع الله أهل البغى والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان فى الأرض . فكان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن للمصلحين بقتال البغاة المفسدين ،

وهو سبحانه جعل أهل الحق حرباً لأهل الباطل وهو ناصرهم ما نصره وأصلحوها في الأرض .
وقد نسب عز اسمه الدفع إلى نفسه ، لأنه سنة من سنته في المجتمع البشرى وعليه بنى نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ ، أى هذه القصص السالفة من حديث الألف الذين خرجوا من ديارهم ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانزاع الجبابرة ، وقتل داود جالوت - آيات لله نقصها عليك على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب ، إذ هم يجدونه مطابقاً لما جاء في كتبهم الدينية والتاريخية ، فأنت من المرسلين لما دلت عليه هذه الآيات ، ولو كنت قد تعلمتها لجئت بها على النهج الذى عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاص ، ولم تشاهد أزمته وقوعها حتى تراها رأى العين وقد أشار سبحانه إلى مثل هذه الحجة للدلالة على نبوته ﷺ فقال : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ * ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ﴿ ^(١) .

العبرة من هذه القصص :

- ١ - إن الأمم إن سيمت الخسف تنتهى أفكارها إلى دفع الضيم ، فتعلم أن لا سبيل إلى ذلك إلا بانضوائها تحت لواء زعيم عادل باسل ، كما وقع من بنى اسرائيل حين نكل بهم أهل فلسطين .
- ٢ - إن أول من يشعر بالحاجة إلى ذلك هم خواصها وأشرافها ، كما حدث من الملأ من بنى اسرائيل ، ثم تنتقل الفكرة من ذلك إلى عامتهم حتى إذا وصلت إلى حيز العمل نكص ضعفاء العزائم على أعقابهم كما يدل عليه قوله : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ﴾ .
- ٣ - إن من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الملك ، ومن ثم لجأ الملأ من بنى اسرائيل إلى نبيهم ليختار لهم ملكاً . وقد جاء الإسلام وجعل المرجح اختيار أرباب المكانة في الأمة ، وهم أهل الحل والعقد وعون الحاكم وقوته لاحترام الأمة لهم وثقتها بهم .
- ٤ - إن الأمم زمن الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة هم أصحاب الجاه والثروة كما يدل على ذلك قول المنكرين لملك طالوت ﴿ ولم يؤت سعة من المال ﴾ مع أن الأجدر بهذا الاختيار أهل الشرف بمعارفهم وعلومهم وأخلاقهم الفاضلة ونفوسهم الكريمة .
- ٥ - إن الأمم إذا ارتقت في علومها ومعارفها وحضارتها اختارت ملوكها من سلاسل الملوك والأمراء وحافظت على قوانين الوراثة ولم يشذ عن ذلك إلا أصحاب الحكومات الجمهورية التى تختار رئيسها بالانتخاب .